دراسات في

تاريخ آوربا الحديث والمعاصر

دكتور
محمد محمود السروجي
استاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الأداب – جامعة الإسكندرية

دار الثقافة العلمية

ثبت المحتويات

	الصفحة
تقديم	١
الفصـــل الأول : حالـــة دول أوربا السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى أواخر القرن الثامن عشر	٣
الفصل الثانى : وصول نابليون إلى السلطة والحكم	٣٢
الفصل الثالث : مؤتمر فيينا سنة١٨١٥	٥٤
الفصل الرابع:الحركات القومية فى أوربا وثورات ١٨٤٨	٨١
الفصـــل الخامس : المسألة الشرقية وحرب القرم١٨٥٣-١٨٥٦	١٠٣
الفصل السادس : حركة الوحدة الايطالية	١١٣
الفصل السابع : حركة الوحدة الألمانية	١٣٧
الفصل الثامن : الحرب التركية الروسية١٨٧٧-١٨٧٨	١٥٤
الفصل التاسع : مؤتمر برلين١٨٧٨	١٨١
الفصل العاشر : ممهدات الحرب العالمية الأولى	١٩٧
الفصل الحادى عشر : نشوب الحرب	٢١٩
الفصل الثانى عشر : معاهدات الصلح	٢٥٦
مصادر ومراجع البحث	٢٨١

تقـــديم

لدراسة تاريخ أوربا فى القرن التاسع عشر/ والعشرين أهمية خاصة لتفهم التطورات السياسية والاجتماعية والثقافية فى المجتمع الأوربى ، وانعكاس هذه التطورات بصورة أو بأخرى على دول الشرقين الأدنى والأوسط بصفة عامة ، وعلى العالم العربى بصفة خاصة .

فقبيل بذوغ فجر هذا القرن شاهدت أوربا قيام الثورة الفرنسية التى قضت على النظم الملكية الاستبدادية، وبقايا الحكم الاقطاعى، وسلطة الكنيسة. ولم تكن هذه الثورة محلية ،وانما كانت لهاالصفة العالمية،وذلك عندمابدأت تحتك بالقوى الرجعية الاستبدادية فى أوربا ، وعندما أعلنت فرنسا الثورة بأنها على استعداد لتقديم المساعدة لأى شعب يريد الخلاص من حكم الطغاة المستبدين.

بدأت عروش أوربا تهتز تحت ملوكهـــا ، وبدأت القوى الاستبدادية الرجعية تستقطب لمواجهة المد الثورى الزاحف على أوربا من فرنسا . فبدأت سلسلة المحالفات التى كونتها انجلترا ضد فرنسا لايقاف تهديدها للنظم الأوربية القائمة ، والحيلولة دون تسلط فرنسا على أوربا بعد ما بدا من حكومة الثورة ميولا توسعية .

وفى ظل الثورة الفرنسية أخذت ملامح المجتمع الفرنسى تتغـــير تغيرا ملحوظا ، وأصبحت النظم الفرنسية أكثر النظم الأوربية تقدمية . وفى ذلك الوقت يظهر نابليون على مسرح الأحداث فى فرنسا كرجل عسكرى ناجح ، استطاع بذكائه أن يثبت دعائم الثورة . فنابليون ـ ولو أنه لم يكن من رجال

السياسية الصف الأول للثورة ـ إلا أنه استطاع أن يرث الثورة وأن ينشر مبادئها، وأن تحمل جنوده معها تلك المبادىء أينما ذهبت ، وفى أى مكان حلت به .

وبعد سلسلة من المواقع الحربية الشهيرة التى انتصر فيها نابليون على أعدائه مجتمعين ومتفرقين ، يبدأ نجمه فى الأفول ، وتأخـذ الامبراطورية النابليونية الشامخة فى التداعى . وتجتمع الدول الاوربية المعادية فى فينا لوضع خريطة أوربا الجديدة مراعية فى ذلك مبدأين هامين، هما : إرجاع الحقوق الشرعية لأصحابها ، وإحاطة فرنسا بدول قوية لمنعها من تهديد أوربا مرة ثانية . وستكون الحروب النابليونية هى آخر الحروب التى تخوضها فرنسا ضد انجلترا .

وبعد مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ تمر أوربا بمرحلة (من ١٨١٥ - ١٨٤٨) تنتشر فيها موجـة من الحركات القومية التى قامت متأثرة بمبـادىء الثورة الفرنسية ، وبرد الفعل القوى من جانب المعسكر المضاد للثورة الذى أخذ يبطش بكل الحركات المطالبة بالاصلاح، ومتأثرة بثورتى فرنسا فى سنة ١٨٣٠، ١٨٤٨ .

وإذا ما وصلنا إلى نهاية الربع الثالث للقرن التاسع عشر نجد أن عوامل الوحدة أخذت تدب فى كيان المانيا وايطاليا . فهاتان الدولتان كانتا حتى ذلك الوقت مجرد تعبير جغرافى ؛ ولم يكن لهما وزن أو دور كبير فى السياسة الاوربية حتى ذلك الوقت . وكان قيام الوحدتين الالمانية والايطالية بفضل جهود نفر من أبنائها ، وبمساعدة الظروف الدولية حدثا له خطره فى أوربا . فشعرت الدول الاوربية القديمة أن دولتين جديدتين أخذتا تنازعها المصالح فى أوربا وفى خارجها ، وتتطلع إلى الاستحواز على مستعمرات لتكون متنفسا اقتصاديا وعسكريا لها ، فبدأت المصادمات السياسية ثم المساومات الاستعمارية حول تقسيم مناطق النفوذ ، لاسيما فى القارة الافريقية الغنية بمواردها الطبيعية .

الفصل الأول

حالة دول أوربا السياسية والاجتماعية والاقتصادية

فى أواخر القرن الثامن عشر

لتاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر أهميته البالغة بالنسبة لتطور نظم الحكم والنظم الإقتصادية والاجتماعية فى أوربا وأثر هذا التطور فى العالم الجديد ، وفى الشرقين الأدنى والأقصى .

وفى دراستنا لتاريخ هذا القرن سنتناول الدول الأوربية كبيرها وصغيرها. بشيء كثير من الإيجاز ، لمعرفة مدى ماوصلت اليه من تقدم أوإنحلال فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . وهدفنا من وراء ذلك الالمام بحالة تلك الدول بصفة عامة، وتفهم الموقف الدولى الأوربى، وأثره فى التطور السياسى والاقتصادى لدول أوربا بصفة عامة ، ولكل من فرنسا وانجلترا وألمانيا بصفة خاصة .

إذا نظرنا إلى خريطة أوربا السياسية فى هذه الحقبة نجد أن هذه القارة تنقسم إلى دول كبرى ومتوسطة وصغرى . الدول الكبرى فى ذلك الوقت كانت انجلترا وفرنسا وبروسيا والنمسا وروسيا . ونقصد بكلمة دولة كبرى ، بتلك الدولة التى لها نفوذ سياسى كبير فى القارة الأوربية قائم على قوة حربية محترمة تجعل مهاجمتها أمرا ليس باليسير ، فلها قوة حربية ونفوذ سياسى كبير ، وقوة إقتصادية وعدد

من السكان ومساحة من الأرض تجعل لها هيبة ومكانا مرموقا فى العالم . ولا يهم أن يكون للدولة الكبرى مستعمرات، فبعض الدول الكبرى ظل بغير مستعمرات، بل قام بعضها وسقط دون أن يكون له مستعمرات. وخير مثل لذلك الامبراطورية النمساوية المجرية ، فنشأت فى العصور الوسطى وانتهت دون أن يكون لها مستعمرات .

إذن ما هى سياسة تلك الدول التى تكون فى مجموعها سياسة أوربا فى تلك الفترة . ولنبدأ أولا بالدول الكبرى التى كان لهـــا أثر بعيد فى توجيه السياسة الأوربية .

نبدأ بانجلترا، فهى من أقوى الدول الأوربية ، ففى أواخر القرن الثامن عشر خرجت من نضال حربى شديد مع فرنسا منتصرة وقوية ، فأضافت إلى امبراطوريتها ممتلكات كبيرة فى الهند وأمريكا . ونجـــد أنجلترا قد استطاعت أن تطرد النفوذ الفرنسى من الهند وكذلك من أمريكا الشمالية بعـــد طرد الفرنسيين من كندا . فأصبحت المناطق المستعمرة فى أمريكا الشمالية يملكها الانجليز فقط . ويرجع الفضل فى ذلك إلى قوة البحرية الإنجليزية ، وبذلك اتسعت الإمبراطورية البريطانية إلى حد كبير ، وتلى هذا التوسع إنهزامات إنجلترا . إذ قامت ثورة الإستقلال الأمريكية على الحكم الانجليزى، فنجد أن الدول المناوئة لانجلترا، مثل فرنسا وأسبانيا تنضم إلى الثائرين وتتمكن من الإنتقـــام من انجلترا ، وينهزم الأسطول الإنجليزى أمام الأسطول الفرنسى فى المياه الأمريكية . وبالرغم من الخسارة التى لحقت بالانجليز فقد أفادتهم مستقبلا، فرأت انجلترا أنه يجب أن يكون الحكم فى المستعمرات فى جانب المستعمِر والمستعمَر على حد سواء، فعالجت النقص الذى بها ، وساعد ذلك على الاحتفاظ بالمستعمرات الأخرى . فانجلترا ولو أنها انهزمت فى الحرب الأمريكية

إلا أنها ظلت بالرغم من ذلك من أقوى الدول الأوروبية ، لأن التفوق الفرنسي لم يدم ، فأمكن لانجلترا استرجاع التفوق البحرى ، وكذلك استطاعت اصلاح ماليتها على يد وزيرهـــا بت Pitt . بينما فرنسا التي دخلت الحرب الأمريكية لم تتمكن من إصلاح ماليتها ، فقبل الحرب كانت الحالة المالية سيئة ، وبعد الحرب أصبحت أكثر سوءا ، فتعقدت أمورهـا وكان من أثرهـا قيـام الثورة الفرنسية .

وعلى أى حال إذا كانت إنجلترا قد خسرت مؤقتا، إلا أنه كان لها ذكريات حربية قديمة ، فذكريات القواد العظام أمثال الدوق مولبره Molborough الذى يعتبر أعظم جندى عرفته انجلترا لاتزال ماثلة . هذه الأشياء جعلت لانجلترا مركزاً لازال قويا فى أوربا . فانجلترا بتفوقها البحرى وقوتهـا المالية استطاعت أن تحتفظ بمركزها رغم خسارتها. فمن الناحية الاقتصادية كانت أعظم من الدول الأخرى ، لأنها عرفت الانقلاب الصناعى قبل غيرها ، فكان لهذا أثره فى الحالة الاقتصادية فى القرن التاسع عشر .

ومن الناحية الاجتماعية نرى أن انجلترا كانت منقسمة إلى طبقات ، فهناك طبقة اللوردات مازالت قائمة على ملكية الأرض ولو أنها كانت فقيرة ، وهنـاك طبقة متوسطة غنية نجحت فى الاشتغـــال بالتجارة ، وهناك طبقة المزارعين وطبقة العمال .

ولم يكن الحكم فى ذلك الوقت حكما ديمقراطيا ، بل كان حكما ارستقراطيا فى الواقع ، فكان فى يد الطبقة الارستقراطية فى مجلس اللوردات ، وتسيطر على مجلس العموم ، وبجانبهم طبقة الأغنيـاء من التجار ، ولم يكن للطبقة الدنيـا أى

مركز اجتماعى معترف به . فمجلس العموم كان لا ينتخب بل يعين من قبل الحكومة أو من قبل الارستقراطية، ولا يذهب كل الاعضاء الى البرلمان بل كان بعضهم يذهب وكثيرا ما كانوا ينامون أثناء المناقشة .

أما عن الكنيسة فى إنجلترا فهى الكنيسة الانجليكانية وهى كبيرة الاتصال بالطبقة الارستقراطية ، فعدد كبير من رجال الدين كان فى مجلس اللوردات ومن أولاد اللوردات . وهى تشابه الحالة بفرنسا ، فهناك كبار رجال الدين ولهم إتصال بالملكية الفرنسية ، وطبقة صغار رجال الدين وهؤلاء ليس لهم إمتيازات. ويمتاز كبار رجال الدين بانجلترا بأن أكثرهم متزنون لا يميلون للترف بعكس الحال فى فرنسا ، وكذلك نجد صغار رجال الدين بفرنسا ليسوا متمتعين بحب الشعب،نظرا لعدم السماح لهم بالتزوج بخلاف انجلترا .

ولم تعرف انجلترا فى ذلك الوقت الحرية الدينية بل كان المذهب الانجليكانى هو المذهب الوحيد المعترف به ، وليس لغير معتنقيه حق دخول البرلمان أو شغل المناصب الحكومية .

أما عن نظام الحكم فكان النظام الاوليجاركى ، أى نظام حكم الاقلية ، وكان إلى جانب هؤلاء الملك الذى يملك وكثيرا مايحكم ،فقامت الثورة المجيدة سنة ١٦٨٨، تلك الثورة التى حددت سلطة الملك فأصبح يملك ولا يحكم. وكان الانجليز يتمتعون بحـــرية لا يتمتع بها أغلب شعوب أوربا ، ولو أنها غير واسعة ، فالبرلمان الانجليزى يمثل الشعب تمثيلا اسميا . فهذا القليل من الحرية هو الذى لم يجعل انجلترا عرضة للانقلابات كما حدث فى فرنسا .

وبالرغم من أن الحكم فى انجلترا لم يكن نيابيا بالمعنى الصحيح، إلا أنه عمل على استقرار الأمور فيها ، وهذا خلاف ما ساد فى القارة من حدوث الثورة

الفرنسية وما تبعها من ثورات . وبالرغم مما فى النظم الانجليزية من عيوب إلا أن رجال الثورة كانوا معجبين بها . كما لم تكن أسرة هانوفر الالمانية الأصل تعرف اللغة الانجليزية أو العادات الانجليزية ، ولذا تركوا التدخل فى شئون البرلمان الانجليزى . وهذا لم يمنع بعض ملوك هذه الاسرة أن يعتقدوا بحق الملوك الالهى ، ولكنهم لم يصطدموا بالبرلمان الانجليزى ، فأحتفظ البرلمان بنفوذه ، فبعد حادثتى شارل الاول سنة ١٦٢٥ - ١٦٤٩ ، وجيمس الثانى ١٦٨٥ - ١٦٨٨ عرفت الملكية أن البرلمان متمسك بحقوقه فحاولت التعاون معه وعدم الاستبداد برأيها . ولذا نجد أن إنجلترا تمتاز بميزات عدة عن غيرها من الدول وهى السيطرة البحرية، والحالة الاقتصادية المنظمة، واستقرار نظام الحكم بها . كذلك كانت انجلترا دون غيرها من الدول التى لها برلمان يسيطر على شئونها بالرغم مما به من عيوب .

فرنسا

أما عن الدولة الأوربية الثانية فرنسا ، فكانت قبيل الثورة الفرنسية ملكية إستبدادية فى أسرة البربون ، التى تحكم بحق الملوك الالهى ، وكانت فى عهد لوى الرابع عشر نموذج الملكية التى يحتذى بها ، فكان بلاط فرنسا بما يحويه من الأمراء والشعراء والأدباء مضرب الأمثال . ولكن لوى الخامس عشر لم يترك الملكية الفرنسية كما تركها لوى الرابع عشر ، فقد تركها ضعيفة منحلة لم يقدرها الشعب الفرنسى . لقد أحب الفرنسيون الملكية لأنها خلصتهم من الحكم الأجنبى ، ولأنها كسبت للشعب الفرنسى الانتصارات الحربية العظيمة ، فجعلت له مركزا ممتازا فى أوربا . وطالما كانت الملكية تستطيع كسب المجد للشعب طالما كان الشعب متعلقا بها . وكلما خدمت أغراض الشعب كلما أحبها الشعب وتفانى فى تأييدها . ولكن

حينما أثقلت الملكية كاهل الشعب بالمصروفات الباهظة فقدت محبتها من الشعب، فكان عليها إما أن تغير سياستها أو أن تذهب الى غير رجعة .

لم يستطع لوى الخامس عشر أن يكسب لفرنسا من المجد الحربى ما استطاعه لوى الرابع عشر ، ففى عهده خسرت فرنسا مستعمراتها فى الهند وأمريكا . وبعد أن كانت الاستعراضات الحربية تقام لإظهار ما لفرنسا من القوة الحربية أصبحت تقام لتسلية الملك أو لتسلية محظياته أمثال مدام دى بمبادور Mme. de Pompadour فانهزام الملكية الفرنسية أمام بروسيا فى حرب السنوات السبع أفقدها حب الشعب الفرنسى، حتى قال نابليون أن موقعة Rassback سنة ١٧٥٧ (حدثت بالمانيا فى حرب السبع سنوات) هى من أهم أسباب قيام الثورة الفرنسية . أى أن الملكية خسرت حب الشعب لها حينما لم تستطع الانتصار فى هذه الموقعة . فأنهزامات فرنسا تعددت فى الهند وأمريكا وكذلك فى بروسيا.

ولم تكن السياسة الداخلية أكثر نجاحا من السياسة الخارجية ، فقامت على المصروفات الباهظة والاسراف فى فرض الضرائب الكثيرة . فلم تكن السياسة الخارجية اذن مرضيا عنها من الشعب ، ولم يكن السير فيها لمصلحة فرنسا ، بل سارت طبقا لرغبات محظيات الملك . فنرى أن فرنسا فى عهد لوى الخامس عشر غيرت سياستها التقليدية ،وهى عداوة أسرة هبسبرج الحاكمة بالنمسا ومصادقة أعدائهم . فتخلت فرنسا عن هذه السياسة لغير صالحها طبقا لرغبات مدام دى بمبادور .

ماذا كانت نتيجة هذا التحول ؟

كانت نتيجته خسارة فرنسا وضياع مستعمراتها فيما وراء البحار . كان

الشعب الفرنسي يتغاضى عن مساوىء الملكية وحكمها الاستبدادى لأنها قضت على سلطة الأشراف وكانت قوية فى الداخل والخارج ، وعندما أصبحت الملكية ضعيفة رأى الشعب الفرنسى أن من مصلحته عودة النظم التى ألغتها من قبل. وكانت الملكية الفرنسية قبيل الثورة مستبدة غير مستنيرة ، وهذا يخالف الحالة فى بروسيا التى كانت ملكيتها مستبدة ومستنيرة ، وكذلك لم تكن برلمانية كما هو الحال فى انجلترا . ولذلك نجد الملكية الفرنسية تنهار أمام ضربات الثورة بينما تبقى الملكيتان الأخريتان .

أما من الناحية الاجتماعية ، فالنظام الذى كان سائدا فى فرنسا قريب الشبه الى النظم الموجودة فى انجلترا وبعض المناطق الأوربية، فسادها النظام الاجتماعى الذى ساد أوربا فى ذلك الوقت فنجد طبقة أرستقراطية ، سواء كانت ارستقراطية الأرض أو ارستقراطية الروب (طائفة المحامين) . فأرستقراطية الأرض هم أصحاب الضياع ، وأرستقراطية الروب هم المحامون الذين يتمتعون بنفوذ كبير ، فالفريق الأول يحتقر الفريق الآخر ، وهؤلاء يحسدون ما لهـؤلاء من نفوذ . وبينهما طبقة وسطى اكتسبت مركزها عن طريق التجارة . وهناك طبقة رابعة وهى من الزراع والصناع ويقع عليها عبء الضرائب وتعانى كثيرا من أصحاب الاقطاع . ثم هناك رجال الدين ولهم من مقادير كبيرة من الزكاة ، وكان هذا ملكا لكبار رجال الدين ، أما صغارهم فكانوا يشاركون الطبقة الدنيا فى فقرها ، فلا عجب إذا ما رأينا بعضهم ينضم الى الطبقة الدنيا فى مطالبها.

من حيث النظم الدستورية نجد أن الملكية الفرنسية قد قضت على كثير من النظم البرلمانية الموجودة، فقد كان هناك برلمان يسمى Etats Généraux مجلس طبقات الأمة ، وكان يتكون من الطبقة الارستقراطية ، والطبقة الوسطى

والطبقة الدنيا ، وكان رأيه استشاريا ، بمعنى أن الملك يعقده ويعرض عليه مايراه من الامور ، ثم ينصرف الاعضاء بعد ذلك بعد أن يكونوا قد عرفوا رغبات الملك فقط . ولم يكن لذلك المجلس أن يبدى آراءه المختلفة فى مسائل التشريع . وقد منعت الملكية هذه الطبقات من الاجتماع منذ سنة ١٦١٤ . ولم يجتمع مرة أخرى إلا فى سنة ١٧٨٨ عندما أستفحلت الأزمة المالية ورغبت الملكية فى الحصول على موافقته لفرض ضرائب جديدة :

وبجانبه يوجد برلمان باريس ، وكان الملك يعرض عليه آراءه ، وعلى المجلس تسجيل تلك الآراء التى يبديها الملك ، وله الحق فى معارضة بعض الآراء ، ولكى ينفذ الملك رغباته كان يعقد مجلسا آخر أسمه Lit de Justice ويطلب اليه تنفيذ آرائه فتنفذ . فلم يكن إذن لبرلمان باريس مركز أو قيمة من ناحية التشريع .

وفى بقية أجزاء فرنسا نجد مجالس متعددة وتسمى مجالس الطبقات ، وهى تشبه مجلس الطبقات الذى يعقد فى باريس ، وتستشار هذه المجالس فى المسائل المالية ، إلا أنه لم يكن لها تأثير يستحق الذكر . ففرنسا إذن كانت تعتمد على الملكية أعتمادا تاما ، فلما أنهارت الملكية ساء الحكم وحاول الشعب الفرنسى إيجاد نظام جديد .

أما عن الحالة المالية فكانت سيئة للغاية وذلك لكثرة الحروب ، ففى عهد لوى الرابع عشر خاضت غمار حروب كثيرة لم تستفد منها فرنسا شيئا . ويقول بعض المؤرخين بأن أسباب الثورة الفرنسية نشأت فى عهد لوى الرابع عشر ، وذلك لسوء الحالة المالية ، ولعدم أستطاعة الحكومات المتعاقبة أصلاحها ، ثم أستمرار الحروب فى عهد لوى الخامس عشر ، تلك الحروب التى لم تستفد منها فرنسا ، مثل حروب السنوات السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣) وحروب الهند . ولو أن الحكومة الفرنسية اتبعت سياسة الاقتصاد والاصلاح لربما أستطاعت اصلاح الحالة المالية ،

انما نجد الحكومة تتبع سياسة التبذير ، فزادت الحالة سوءا . حتى فى عهد لوى السادس عشر نجد فرنسا تشترك فى حرب الاستقلال الامريكية سنة ١٧٧٨ . وبذلك أصبحت الخزانة الفرنسية على وشك الافلاس .

أما عن سياسة فرنسا الخارجية فقد كانت قائمة على أسس ثلاثة :

الاول : هو العمل على تقوية مركز فرنسا فى القارة الاوربية . إذ كانت تعمل على تفوق الملكية الفرنسية فى القارة الأوربية . وكانت الملكية ترمى من وراء ذلك إلى هدفين أثنين أولا . تفوق الملكية الفرنسية ، ثم تفوق فرنسا .

والأساس الثانى : هو محاولة الوصول بفرنسا إلى حدودها الطبيعية (الراين وبحر الشمال شمالا وجبال البرنيز جنوبا) .

والأساس الثالث . عدم ظهور دولة قوية تهدد فرنسا فى القارة الأوربية ،

هذه هى البواعث الأساسية التى دعت فرنسا إلى خوض حروب كثيرة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

إلى أى حد نجحت الملكية الفرنسية فى ذلك ؟

إذا نظرنا إلى سياستها إزاء حدودها الجنوبية أى تجاه أسبانيا نجد أن فرنسا تمكنت من الوصول إلى جبال البرنيز وأن تضع على العرش الاسبانى أسرة بربونية ، فأصبح لها نفوذ فى أسبانيا . ولكن وصولها إلى بحر الشمال كان محفوفا بالمكارة والأخطار ، فكان على فرنسا أن تسوى علاقاتها مع أنجلترا ، والوصول إلى نهر الراين يستدعى القيام بحروب كثيرة مع الدولة المشرفة عليه وهى الامبراطورية النمساوية التى سيطرت على الراين والأراضى المنخفضة . ولقد دخلت الجيوش الفرنسية مرارا الأراضى المنخفضة وحازت فيها الانتصارات الكبيرة ، ولكن فى معاهدات الصلح كثيرا ما كانت ترغم على التنازل عنها . فأستطاعت أن تضم

بعض الولايات على نهر الرين نفسه ، ولكنها لم تستطيع تثبيت أقدامها على ذلك النهر .

أما من حيث قيام أية دولة تهدد كيانها السياسى ، فلقد منعت فرنسا ظهور وحدة ألمانية فى ألمانيا ، ونجحت فى توجيه نظر الدولة النمساوية إلى شرق أوربا ، ونجحت فى وقف النفوذ النمسوى فى إيطاليا إلى حد كبير . وتحقق للملكية الفرنسية فى عهد لوى الرابع عشر فى جعل فرنسا سيدة أوربا ، ولو أنها فشلت فى المحافظة عليه فى عهد لوى الخامس عشر . فإن تكن الملكية قد فشلت فى شيء ، فذلك لمعارضة انجلترا ومقاومة الدولة النمساوية وظهور بروسيا بعد ذلك كدولة عظيمة على نهر الرين : على أن الملكية الفرنسية لم تقم بحروبها من أجل أية مبادىء ، فلم تقم بها من أجل نشر المبادىء الملكية ، فأوربا كلها كانت تحكمها ملكيات . ولم تقم بحروب لنشر الاستبداد ضد الحكم البرلمانى فى انجلترا ، وإن كانت قد ساعدت المطالبين بالعرش الانجليزى ؛ ولم تقم بحروب لنشر الكثلكة فى العالم ، فقد كان رائدها مصلحة الملكية ثم مصلحة فرنسا . فكثيرا ما كانت تنضم الى الكاثوليك ضد البروتستنت إذا رأت ذلك ، وكثيرا ما خالفت هذا الاتجاه فقد عقدت حلفا مع تركيا المسلمة ضد أسرة هبسبرج المسيحية .

وسنرى أن الثورة الفرنسية تسير على نفس السياسة ، وهى سياسة الفتح والوصول بفرنسا إلى حدودها الطبيعية . وقد حدث هذا عندما أشتعلت الثورة فى فرنسا وخشيت كل من النمسا وبروسيا على مصير الملكية ، وهاجمتا فرنسا من الشمال (برنسويك ـ ديموريه) فصمدت جيوش فرنسا أمام قواتها فى موقعة Valmy أغسطس سنة ١٧٩٢ . وتلى هـــذا النصر اندفاع القوات الفرنسية شمالا وشرقا ، فأستولت على بلجيكا بعد أن هزمت قوات النمسا فى موقعة جيماب (نوفمبر سنة ١٧٩٢) . كما أحتلت مقاطعتى نيس وسافوا . وكان أستيلاء فرنسا على تلك الأراضى

استمرارا لسياسة الملكية القديمة التى كانت ترمى إلى الوصول بفرنسا الى حدودها الطبيعية ، وتنكرا لمبادىء الثورة الفرنسية التى تنادى بالحرية والاخاء والمساواة . وترتب على استيلاء فرنسا على بلجيكا أن أصبحت انجلترا مهددة تهديدا مباشرا من قبل فرنسا ، فسعت لتكوين الحلف الاوربى الاول منها ومن بروسيا والنمسا والروسيا . وكذلك من هولندا وأسبانيا والبرتغال ونابولى وسردينيا فى يناير سنه ١٧٩٣ لايقاف فرنسا عن حدها، سيرا على سياسة انجلترا فى عدم الإخـــلال بالتوازن الأوربى .

النمسا

اذا انتقلنا الى النمسا نجد أن أسرة هبسبرج كانت تحكمها على أساس الاستبداد وايجاد التوازن بين العناصر والجنسيات المختلفه التى تتكون منها الدولة، وتشمل الدولة حوض نهر الطونة تقريبا، وأهم هذه الجنسيات الألمان وهم يقطنون فى الأماكن الواقعة من فينا إلى الغرب . ثم نجد العناصر الصقلبية ، صقالبة وسط أوربا مثل التشك والسلوفاك وبعض البولونيين . كذلك ضمت الامبراطورية عناصر صقلبية جنوبية أهمها عناصر الكروت شرق بحر الأرخبيل ، ثم العنصر المجرى ويشغل منطقة وسط الطونة حول مدينة بودابست ، وهو يلى فى الأهمية العنصر الألمانى . ثم نجد العنصر الرومانى ويقطن فى الأماكن الواقعة شرق المجر ، ثم بعد ذلك عناصر ايطالية فى اقليم لمبارديا ثم فى شمال فرنسا نجد الأراضى المنخفضة أو مايسمى فى القرن التاسع عشر باسم بلجيكا .

أهم هذه العناصر كما ذكرنا العنصر الألمانى ، وهم لايختلفون عن بقية الألمان الذين يسكنون المانيا نفسها إلا فى اللهجات أو النطق ، وكان لهم نوع من الإمتياز فى الدولة لأن الاسرة الحاكمة كانت المانية . ثم هناك المجريون وهم يقطنون سهول المجر الغنية من الناحية الزراعية. وهؤلاء كانوا يحسون بنوع من القومية الاستقلالية

وكان الشعور القومىناميا عندهم . ثم نجد عناصر صقلبية فى بوهيميا وسلوفاكيا، ثم نجد عناصر صقلبية فى الجنوب ، فى شمال شرق الأدرياتى . ثم نجد عناصر صقلبية بولونية فى غاليسيا ، وعناصر بلجيكية فى الأراضى المنخفضة شمال فرنسا .

فوجود هذه العناصر لايجعل الدولة النمساوية دولة قومية موحدة . ولقد حاولت الملكية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر توحيد الدولة بأيجاد قومية واحدة تتكلم لغة واحدة وهى اللغة الجرمانية . ولكن العنصرية تغلبت وفشل الامبراطور الذى قام بهذه الحركة وهو فرنسيس يوسف . كانت الدولة النمساوية قد فقدت نوعا من نفوذها السياسى أمام أنتصارات فردريك الأكبر . ولكن خسارتها لم تكن كبيرة، بل محدودة وقاصرة على اقليم سيليزيا الذى أصر فردريك الاكبر على ضمه لبروسيا . ولقد ظلت الدولة النمساوية منذ القرن السادس عشر ضد فرنسا حتى عهد نابليون الأول وعملت أنهيار امبراطوريته .

وإذا نظرنا إلى النظام الاجتماعى فى النمسا نجده قائما على العنصرية الجنسية. وليس معنى هذا أن الألمانى يمتاز عن البوهيمى ، إذ لم تكن العناصر غير الالمانية محرومة من الوصول الى المراكز الحكومية ، بل يتوقف هذا على مقدار ولائها لآل هيبسبرج . كما نجد أن نظام الطبقات الثلاث الذى عم أوربا عم النمسا كذلك . إلا أن الطبقة الوسطى كانت فيها أقل من الدول الأخرى مثل انجلترا والروسيا .

الروسيا

إذا انتقلنا إلى **الروسيا** نجدها قيصرية إمبراطورية ، تدين بالطاعة لآل رومانوف ، وكانت تحكم البلاد حكما أستبداديا على طريقة شرق أوربا ، أى أن الملكية كانت استبدادية أكثر من أية دولة أوربية، وكانت الكنيسة بها كبيرة الصلة بالملكية كما هو الحال بالنسبة للنمسا وفرنسا . وقد تمكنت الملكية الروسية فى عهد

بطرس الأكبر (١٦٧٢ - ١٧٢٥) وكاترين الثانية (١٧٢٩ - ١٧٩٦) من سلب الأشراف كثيراً من نفوذهم السياسى . وتعتبر الدولة الروسية دولة شرقية إلى حد ما ، فقد طردت الترك من السواحل الشمالية للبحر الأسود ، وأصبحت لهـا صفة غربية بعد أن تمكنت من ضم بعض أجزاء من بولندا ، وكذلك لاصطدامها بالسويد . وستزداد قيمة الروسيا فى هذه الناحية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر إذ تصبح دولة أوربية بالمعنى الصحيح .

وتختلف نظرة الدول الاوربية اليها من حين لآخر، فاذا كانت العلاقة موطدة بينها وبين دول غرب أوربا أعتبروها دولة غربية ، أما إذا كانت العلاقة غير وطيدة اعتبرت دولة شرقيـة وزعماؤهـا شرقيون . وإذا نظر إلى الأدب الروسى اعتبر أدبا غربيا . أما إذا نظر إلى حالة الفلاح قبل النظام الشيوعى ، وحالة الكنيسة بها اعتبرت دولة شرقية متأخرة .

أما عن اتصال الروسيا بدول أوربا فنجد أن هذا الاتصـال قد بدأ فى عهد بطرس الأكبر (١٦٧٢ - ١٧٢٥) ولازال قائمـاً حتى اليوم ، أما عن حالتهـا الإجتماعية فكان بها طبقتان : طبقة أصحاب الضياع والأخرى طبقة المزارعين ، وهى الأكبر عـدداً والأسوأ حالا من أى حالة مزارع آخر بأوربا ولم تشعر هذه الطبقة بحاجتها إلى الاصلاح إلا متأخراً ، وذلك لحـالة الجهل الشاملة، وقلة الإتصال بالغرب، حتى إذا ارتقت وسائل المواصلات وزاد عدد المتعلمين، حدث ذلك الإنقلاب الهائل الذى جعل روسيا موطنا للشيوعية .

بروسيا

إذا انتقلنا إلى بروسيا نجدها دولة صغيرة من حيث المساحة وعدد السكان بالنسبة لبقية الدول الأوربية الكبرى ، ولكن فردريك الأكبر ١٧١٢ - ١٧٨٤

بحروبه الناجحة واصلاحاته الشاملة تمكن من رفعها إلى مستوى الدول العظمى ، وجعل منها قوة حربية وبما كانت أقوى قوة حربية فى القارة الاوربية ، وأصبحت ملكيتها وإن كانت مستبدة وعملت على تركيز السلطة فى يديها ، إلا أنها كانت مثالا للملكيات الأوربية التى يجب على الدول أن تحتذيه. فأصبحت بذلك موضع اعجاب الدول الأخرى . فكانت بروسيا ملكية مستنيرة تعمل لصالح الشعب ، وأصبحت شخصية فردريك الأكبر شخصية حربية مصلحة فى أوربا بأجمعها ، واصبح بلاطها فى برلين محط أنظار أوربا . ولقد تمكنت هذه الدولة الصغيرة من الانتصار على جيوش الدول الأوربية الأخرى منفردة ومجتمعة ، ونشأت فيها تقاليد حربية ستكون أساسا لعظمة المانيا السياسية والحربية فى المستقبل .

وقد وجد فى بروسيا نظام الطبقات الثلاث ، ولكن حركة الاصلاح الهائلة التى حدثت فى عهد فردريك الأكبر (١٧١٢ - ١٧٨٤) والتى تلت موقعة يينا (١٨٠٦) حافظت عليها من الانهيار . وتلك الاصلاحات تناولت جميع مرافقها من اصلاح نظام المجتمع ، والأداة الحكومية والحالة المالية والاقتصادية وتولى اصلاح الشئون المدنية أثنان من خيرة البروسيين وهما البارون ستين والمستشار هاردنبرج . أما الناحية العسكرية فقد تولاها قائد بحرى يدعى شارنهرست. وأهم ماقام به البارون ستين فى ميدان الاصلاح الإجتماعى هو إباحة امتلاك الأراضى الزراعية للطبقة الوسطى ولطبقة المزارعين ، إذ أصدر قرارا فى ٩ أكتوبر سنة ١٨٠٧ يجيز للأشراف بيع أراضيهم لأفراد الطبقة الوسطى وطبقة المزارعين . أما شارنهرست فقد عنى باصلاح القوانين العسكرية وأهتم بالتدريب العسكرى أهتماما كبيرا ، وبفضل تلك التنظيمات استطاعت بروسيا أن تقدم لميدان القتال ما لايقل عن ٣٥٠,٠٠٠ جندى مدربين أحسن تدريب ومزودين بأحدث الاسلحة . وقدساعدت جغرافية بروسيا على تكوين عظمتها الحربية . فعدم وجود

حدود طبيعية تحميها أرغمها على الاعتماد على نفسها وعلى قوتها ، كذلك عاون على تقويتها سياسة الأسرة الحاكمة بها وهى أسرة هوهنزلرن . كما أنها كانت أكثر الدول الألمانية المانية ، هذا سيجعل لها مركزا ممتازا بين العناصر الألمانية ، وسيساعدها على أن تكون زعيمة الاتحاد الألمانى مستقبلا .

الدولة العثمانية

أما عن الدول الأوربية الأخرى تبدأ بالدولة العثمانية ، ففى أواخر القرن الثامن عشر انتابتها عوامل الاضمحلال ، وفقدت ما كان لها من مركز حربى ممتاز فى أوربا . وكان سبب هذا الاضمحلال أن النظم التى قامت عليها الدولة لم تعد صالحة للبقاء ، فتلك النظم التى بلغت أوج عظمتها فى أيام السلطان سليمان القانونى (سنة ١٥٢٠ - ١٥٦٦) فى النصف الأول من القرن السادس عشر لم تعد تتلائم مع القوانين الأوربية التى سادت فى أواخر القرن الثامن عشر . فكان لابد لها من أن تتطور وأن تتلائم مع الظروف المحيطة بها . كما أن تركيز السلطة فى يد السلطان معناه أن الحكومة كلها أصبحت فى يد فرد واحد، فاذا كان السلطان ضعيفا ضعفت الأداة الحكومية ، وضعفت بالتالى كل مرافق الدولة التى تشرف عليها تلك الأداة . ولقد شجعت حالة الدولة العثمانية الدول الأوربية على مهاجمتها وانتزاع بعض الاراضى الاوربية منها . فآل رومانوف انتزعوا شمال البحر الاسود ، ولكن بالرغم من ذلك كانت الدولة تسيطر على البلقان وعلى امبراطورية واسعة شرق البحر المتوسط . وقد زاد ضعف الدولة العثمانية زيادة شجعت الدول الاسلامية الخاضعة لحكمها على أن يكون لها قسط وافر من الاستقلال الذاتى . وبعد جهود شاقة قامت حركة الاصلاح فى الجيش، ولو أنها كلفت بعض السلاطين حياتهم مثل السلطان سليم الثالث .

اسبانيا

بقي لدينا بعض الدول الاوربية الصغرى ، نبدأ باسبانيا فنرى أن تلك الدولة قد تطرق إليها الضعف بعد أن كانت أقوى دولة أوربية من الناحية الحربية ، وذلك فى القرن السادس عشر ، ويرجع ذلك إلى كثرة الحروب التى خاضتها لا لمصالح قومية حقيقية ، وإنما لمصالح عائلية تتعلق بأسرتى هبسبرج والبربون ، وكذلك لأسباب دينية . وسنجد أن السياسة الدينية القائمة على التعصب للمذهب الكاثوليكى حرمت البلاد من عناصر نشيطة كالعرب واليهود . ثم إن الملكية الاسبانية قد أستبدت بكل شيء ، فلما ضاعت هيبة الملكية ضاعت معها هيبة سائر النظم الحكومية . وقد أنقرضت الاسرة المالكة الاسبانية وهى أسرة الهبسبرج، فسبب هذا حرب الوراثة الاسبانية فى عهد لوى الرابع عشر (١٦٤٣ - ١٧١٥). ولكن أسرة البربون التى ورثتها فى عهد لوى الرابع عشر لم تكن بأحسن حال من سابقتها ، فجلس على عرشها ملوك ضعاف أفقدوها ما كان لها من مركز فى السياسة الأوربية .

ثم هناك دول البلطيق الاسكندنافية ؛ وقد لعبت دورا هاما عندما كانت الدولة السويدية لها قوة حربية ، ولكن منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر لم يبق لها أهمية ، وكذلك الدانمرك .

بولندا

وإذا أنتقلنا إلى بولندا ، نجد أنها كانت دولة كبيرة لعبت دورا هاما فى سياسة البلطيق وفى صد العثمانيين عند فينا ، وكانت تحكم شعبا صقليبيا كبيرا ، ولكنها أنحلت سريعا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر لأن نظمها الدستورية كانت عاملا على هدمها ، وساعدت الدول الأوربية على هذا الهدم. فالملكية فيها انتخابية وكان لها برلمان ، ولكن كان لكل عضو فى هذا البرلمان الحق فى رفض القوانين

أو مشاريع القوانين ، فلا يصبح المشروع قانونا إلا إذا وافق كل أعضاء البرلمان عليه ، فكان من السهل جدا رفض أى مشروع للاصلاح .

ومن ناحية ثانية فبولونيا دولة ليست لها حدود طبيعية ، نشأت حولها ثلاث دول كبرى ، كل منها يريد الاستفادة من ضعفها ويعمل على نزع أطرافها . ومن هنا كانت كارثة هذه الدولة بسقوطها ثم إحيائها عدة مرات إلى أن استطاعت الحياة أخيراً فى ظل النظام الشيوعى .

أما من ناحية النظام الاجتماعى فهناك طبقة الارستقراطية وهى طبقة منحلة من الناحية الأخلاقية ، وطبقة المزارعين وهى الطبقة البائسة التى يقع عليها عبء الارستقراطية .

ولقد قامت محاولات لتغيير نظم الحكم فى بولونيا ولكنها فشلت ، وذلك لتدخل الروسيا وبروسيا وغيرها ، لأنه كان يهم تلك الدول أن تكون الملكية انتخابية كى يمكنهم التدخل فى شئونها . وكانت بولونيا معتبرة من الدول الكبرى لاشرافها على بحر البلطيق وحكمها أجزاء من أراضى روسيا والمانيا . ثم لعبت دورا هاما أمام القوات العثمانية ومنعتهم من الاستيلاء على فينا ، ولكن انتابها الضعف بعد ذلك ، فتدخلت الدولة البروسية الحديثة فى شئونها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . ثم قام نزاع بين الدولتين النمساوية والروسية ، وخشيت بروسيا من قيام حرب بينها ، فاقترحت بأن يسويا خلافاتها على حساب بولندا ، وأن تأخذ هى جزءا منها ، فتتفق الثلاث دول على تقسيمها . ثم قسمت بولندا مرة أخرى بعد ذلك ، ولم تقسم أراضيها كلها ، بل اكتفت كل دولة بأخذ ما يهمها . ثم يقضى عليها نهائيا فى العهد النابليونى وتعاد من جديد باسم ولاية وارسو . ولم يكن إرجاعها على يد نابليون متأثرا بالناحيـــة العاطفية ، بل كان من الناحية

الشخصية ، وذلك نتيجة اتصاله بمدام فالبسكى، وستنجب منه أولادا غير شرعيين، وسيكون لنابليون الثالث وزراء من أولادها .

ولكن المجتمعين فى مؤتمر الصلح فى فينا يرون إعادة الحالة إلى ماكانت عليه وإعادة الحقوق الشرعية لأهلها، ولكن بولندا أستثنيت من ذلك، فقضوا على حياتها وأعترفوا بالتقسيمات المختلفة، والاعتراف بأكبر قسم منها للروسيا، وتعهدت بادخال الاصلاحات المختلفة عليه . ولو أن بولندا قد قسمت إلا أن الروح القومية بقيت كامنة فى أفرادها ، فستقوم بثورة على الحكم الروسى ، وستخمدها الروسيا بكل قسوة ووحشية. وهذه الثورات ستجد عطفا من ناحية دول أوربا وخاصة انجلترا وفرنسا ، وبذلك يفكر نابليون الثالث ويقنع أنجلترا بالتدخل فى شئون بولندا ، ولكن تدخلها لم يأت بنتيجة ما لأن بروسيا كانت تعضد السياسة الروسية تجاه بولندا . وبذلك تتمكن الروسيا من أخماد أكبر ثورة قامت بها بولندا فى سنة ١٨٦٢ .

ثم تخلق بولندا من جديد بعد الحرب العالمية الأولى، وكانت تعتبر الروس أشد أعدائها . ثم تنهار أخيرا على يد المانيا ويعاد بناؤها من جديد تحت الحكم الروسى.

هناك أقسام لا يمكن أعتبارها دولا بالمعنى الصحيح ، فهى ليس لها كيان سياسى موحد أو حكومة موحدة ، مثال ذلك ايطاليا والمانيا ، فكل منها كان مجرد تعبير جغرافى .

ايطاليا

ايطاليا كانت تشمل عدة دويلات بعضها دينى والآخر زمنى ، وبعضها جمهورى، والبعض الآخر ملكى . فلم تكن هناك رابطة سياسية تربط بعضها ببعض . كما كانوا يختلفون من الناحية الجنسية ، فسكان لومبارديا يكثر فيهم العنصر الألمانى. وفى نابولى يسود عنصر البحر المتوسط . فلا يربط إذن بينها سوى الرابطة

التاريخية القديمة واللغة حيث كانت تضم كل هذه الولايات الامبراطورية الرومانية. كما كانوا يحسنون اللغات الاخرى . ولم تكن كل هذه الأقسام مستقلة ، بل كان بعضها تابع لدولة أجنبية ، مثل لومبارديا التى كانت تابعة للنمسا .

ومن أهم هذه الدويلات نجد مملكة سردينيا أو ما نسميه بمملكة بيدمونت ، وربما كانت أكثر الامارات الايطالية سكانا ونشاطاً وأعظمها قوة حربيـــة ، فكانت تحكمها عائلة مشهورة بنشاطها تشبه العائلة البروسية ، وهى أسرة سافوى ، فكما ستكون بروسيا زعيمة الاتحاد الالمانى ، ستكون بيدمونت زعيمة الاتحاد الايطالى .

نجد كذلك جمهورية البندقية ، وهى من أعظم الجمهوريات فى إيطاليا ، بل من أعظم جمهوريات أوربا فى العصور الوسطى لأن حياتها قامت على التجارة ، ولما فقد البحر المتوسط مركزه نتيجة للكشوف الجغرافية (كشف طريق رأس الرجاء الصالح) فقدت البندقية أهميتها ، وذلك الأزمة الاقتصادية التى ألمت بها ، إلا أنها ظلت محتفظة بنظامها الجمهورى ، ولكنها لم تستطع البقاء كدولة .

وكذلك الامارات البابوية ويحكمها البابا من مدينة روما ، وكان البابا محتقرا من رعاياه ، فكثيرا ما يثورون عليه ، لأن الحكم البابوى كان من أسوأ أنواع الحكم الذى عرفته أوربا .

وكذلك نجد مملكة نابولى ، وهى كبيرة من حيث عدد السكان والمساحة ، ولكن كانت تحكمها أسرة بربونية حكما سيئا ، نشرت فيها الجهل وظلت البلاد متأخرة إلى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أما من الناحية الاقتصادية فالحالة سيئة ، فهى لا تستطيع بمواردها القليلة الدفاع عن نفسها ، ولهذا تطلعت الدولة النمساوية لحمايتها والدفاع عنها .

وفى وسط ايطاليا نجد أمارات تسكانا ومدينا وبارما ، وهى أمارات ضعيفة ترجع إلى النمسا فى جميع أمورها . كذلك نجد جمهورية جنوه وهى جمهورية عظيمة فقدت مركزها عندما ضاعت مواردها الاقتصادية. وهى جمهورية منحلة وكانت تتولى حكم جزيرة كورسيكا، وفى الوقت الذى ولد فيه نابليون كانت الجزيرة تحت حكم النمسا . ولما ضعف مركز جنوة المالى وأفتقرت إلى المال رأت بيع الجزيرة وسكانها إلى فرنسا .

هذه هى حالة الامارات الايطالية بايجاز كبير ، ومنه نرى أن تفكك تلك الامارات وأنفصالها عن بعضها سهل على النمسا مهمة الاشـــراف عليها وكذلك فرنسا .

ألمانيـــا

وإذا تناولنا المانيا بالبحث نجد أن حالتها لا تختلف عن حالة إيطاليا من الناحية السياسية ، فهى منقسمة إلى أقسام سياسية متعـــددة ، ففيها ملكيات كالملكية النمساوية والبروسية وفيها المنتخبات ، وهى أقل فى المساحة وعدد السكان والقوة الحربية من الملكيات . ثم نجد دوليات ومدن حرة تشتغل بالتجارة ، ثم نجد الحكم الدينى بجانب الحكم الزمنى ، كما أن هناك ولايات دينية يحكمها رجال الدين. فالمانيا اذن لم تكن سوى تعبير جغرافى ، وهى تمتاز عن إيطاليا بأن معظم سكانها ينتسبون للقبائل الجرمانية ، ثم رابطة اللغة والثقافة والآدب والفلسفة الالمانية . ومن أهم أجزاء المانيا النمسا ، فهى جزء من ألمانيا ، يسودها العنصر الالمانى، وهو المسيطر فى ألمانيا بحكم أن الهبسبرج هم الأباطرة الرومانيون المقدسون ، أو هم أباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ولم تكن الدولة فى الواقع رومانية ولا أمبراطورية ولا مقدسة . فهى لم تكن أمبراطورية لأن

الامبراطور ليس له سلطة مطلقة على المملكيات والمنتخبات والدوقيات ، ولكنه كان يتمتع بنفوذ أدبي . وليست رومانية لان الامبراطور ألماني وأسرة الهبسبرج أسرة ألمانية ، وليست مقدسة لأنها ليست لها الصفة الدينية .

فالنمسا كانت زعيمة ألمانيا وليس لها من الامر شيء . وتختلف ألمانيـــا عن إيطاليا فى أنه كان فيها نظم تربط كل الولايات بعضها ببعض . ويعتبر اطلاق اسم الامبراطورية على تلك الدويلات المتفرقة بسبب خضوعها تحت إشراف واحد. وفى معاهدة فينا ١٨١٥ توافق الدول على إنشاء اتحاد ألمانى بعد أن قضى عليه نابليون فى موقعة أوسترلتز ، وبقيت القيصرية النمساوية لاصلة لها بالمانيا .

ومن هذا العرض الموجز لحالة أوروبا فى القرن الثامن عشر نجد أن بأوروبا دولا كبرى سيطرت على الشعوب الاخرى الضعيفة . كما رأينا دولا أخرى منحلة ، بل هى تعبير جغرافى ليس إلا مثل إيطاليا وألمانيا . كما شاهدنا دولا أخرى ضعيفة مثل الدول الاسكندنافية ، والدانمرك .

فإذا قلنا أوروبا فى القرن الثامن عشر فنحن نعنى الدول الكبرى التى توجه السياسة العالمية . أما الدول الصغرى فلم يكن لها أى حق فى الاشتراك فى السياسة الاوربية ، وأستمر ذلك خلال القرن العشرين .

كلمة عامة عن تطور الحضارة الأوربية فى القرن الثامن عشر

خطت أوروبا خطوات واسعة نحو بناء المجتمع الجديد خلال القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر ، وأخذت تستكمل مقومات حياتها السياسية والاقتصادية فى غضون القرن الثامن عشر . بحيث يمكننا القـــول بأن حضارة أوروبا قد بلغت مرتبة من النضج - وخصوصاً فى دول غرب أوروبـا مثل إنجلترا وفرنسا - فى منتصف هذا القرن .

فالحياة فى غرب أوربا قد استكملت عناصرها السياسية والاقتصادية الحديثة قبل أن تستكمل دول وسط وشرق أوربا هذه العناصر أو تلك المقومات ويرجع ذلك لأسباب متعددة أهمها أن دول غرب أوربا ـ وخصوصا انجلترا وفرنسا ـ كانت أسبق الدول الأوربية إلى الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة ، وفهم روح التطور الجديد . وفى ظل هذا الفهم الصحيح لمقتضيات الحياة الجديدة وتطور النظم الاقتصادية والسياسية، بدأت مقومات المجتمع الوسيط تنهار شيئا فشيئا، بينما ظلت تلك المقومات الوسيطة راسخة القدم فى وسط أوربا وشرقها. وهذا يدلنا على مدى تمسك دول شرق أوربا بالنظم الرجعية القديمة رغم قيام الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشرة . واستمرار مقاومة حكومات هذه الدول للنظم الثورية الحديثة حتى قيام الثورة البلشفية فى مستهل القرن العشرين (عام ١٩١٧) .

كذلك نجد أن من أهم الأسباب التى عجلت بتطور النظم فى دول غرب أوربا، نمو الطبقة البرجوازية وأزدياد نفوذها لاشتغالها بالتجارة وجمعها الثروات الطائلة التى مكنتها من الاشتراك فى الحياة السياسية ومن توجيهها الوجهة التى ترضاها ، مما ترتب عليه ضعف طبقة رجال الاقطاع من النبلاء ، وفقدان هذه الطبقة لنفوذها القديم . بحيث أصبحت تلك الطبقة لاتتمتع سوى بامتيازات ضئيلة إذا ما قورنت بما تمتلكه الطبقة البرجوازية المشتغلة بالتجارة من ثروة وجاه .

وإذا نظرنا إلى الحياة الدينية فى أوربا فى القرن الثامن عشر، نجد أن الوحدة الدينية التى عرفتها أوربا فى العصور الوسطى قد أنتهت بظهور حركة الاصلاح الدينى ونشأة المذهب البروتستنتى والمذاهب الأخرى المشابهة له ، ثم قيام الحروب الدينية التى عرفتها أوربا والتى أطلق عليها اسم حرب الثلاثين عاما . وأهمية هذه الحرب فى نظر المؤرخين أنها وضعت حدا للخلافات الدينية التى شملت أوربا سنين طويلة منذ قيام حركة الاصلاح الدينى ، وذلك بمقتضى معاهدة وستفاليا فى ١٦٤٨ .

ومنذ ذلك الوقت بدأت شعوب أوربا تدخل مرحلة جديدة من الكفاح فى ظل الحرية الدينية، فالقرن الثامن عشر قد خلا من سيطرة الكنيسة ومن التعصب الدينى الذى عرفته العصور الوسطى ، وكان لهذا أثره القومى فى تطور الثورة التجارية، وفى نمو رأس المال وفى تطلع أوربا إلى استخدام رؤوس الأموال هـــذه على أوسع نطاق .

وإذا كانت البقية الباقية من طبقة النبلاء فى دول غرب أوربا ، وكذلك طبقة البرجوازية من المشتغلين بالتجارة والصناعة والعلماء والمحامين ، على درجة من الثراء ، فان الطبقة العاملة سواء المشتغلين منهم بالزراعة أو الصناعة كانوا يعانون من سوء الحالة وقلة الأجور، وطول فترة العمل. فرغم وجود النظام البرلمانى فى انجلترا وفرنسا ، فان هذا النظام لم يكن يعمل لصالح الطبقات الكادحة ، لأن البرلمان سواء كان فى انجلترا أم فى فرنسا كان يمثل أصحاب المصالح فى البلاد ولا يمثل مصالح الأجراء فيها .

فنمو النظم السياسية والاقتصادية فى أوربا خلال القرن الثامن عشر لا يعنى بأى حال من الاحوال وجود حياة ديمقراطية تتكافأ فيها الفرص للجميع ،ولهذا قامت الثورة الفرنسية فى أواخر هذا القرن فى فرنسا لتصحيح الأوضاع بها ومحاولة إيجاد توازن بين طبقات الشعب المختلفة وتقريب شقة الخلاف بينها .

كذلك كان من أهم التطورات السياسية والاقتصادية التى تميز بها القرن الثامن عشر احتفاظ أسبانيـــا والبرتغال بامبراطوريتها ، وظهور امبراطورية الأراضى المنخفضة والامبراطوريتين الانجليزية والفرنسية بعد حروب وتناحر من قبل الدولتين الأخيرتين . فحركة التوسع والفتح والتكالب على تكوين الامبراطوريات دفع الدول الأوربية إلى أتخاذ سياسة خارجية نشيطة ، وإلى الدخول فى منافسات دولية أدت فى بعض الأحيان إلى نشوب حروب بينها، مثل الحروب التى قامت بين انجلترا

وفرنسا فى عهد لوى الرابع عشر ولوى الخامس عشر والتى أنتهت بعقد صلح باريس فى فبراير من عام ١٧٦٣، ذلك الصلح الذى وطد دعائم الامبراطورية البريطانية، وأرغم فرنسا على التنازل عن كندا ومعظم ممتلكاتها فى الهند .

وإذا كانت انجلترا قد خرجت من جولتها مع فرنسا منتصرة مرهوبة الجانب، إلا أنها قد لقيت عقبات كبيرة فى إدارة شئون مستعمراتها الامريكية الثلاث عشرة ، وتركزت هذه العقبات حول مبدأ فرض الضريبة ، وتمسك كل من الطرفين المتنازعين : سكان المستعمرات الأمريكية وحكومة انجلترا بوجهة نظره، مما أدى إلى استفحال النزاع واشتعال نار الحرب وإعلان الاستقلال فى ٤ يولية ١٧٧٦ وأضطرار انجلترا فى نهاية الأمر بعد أن فلت زمام الموقف من يدها إلى النزول على رغبة سكان المستعمرات، وقبول الأمر الواقع، والاعتراف باستقلال الولايات المتحدة الامريكية فى معاهدة فرساى ١٧٨٣ .

وكان لنجاح ثورة الاستقلال الامريكية أثره العميق فى تثبيت دعائم الحرية فى العالم الجديد، وإلى تطلع الشعوب فى العالم القديم إلى محاكاة تلك الثورة، وخصوصا بعد أن نجحت أفكار وآراء روسو وغيره من المفكرين الفرنسيين فى فرض نفسها على الدستور الامريكى الجديد . فالثورة الامريكية اذن فى نجحت فى تطبيق آراء المفكرين الفرنسيين التى كانت مجرد أحلام تراود أذهان الشعب الفرنسى والشعوب الاوروبية المغلوبة على أمرها . فهذا النجاح قد ساعد على قيام الثورة الفرنسية التى تعتبر أهم حدث تاريخى فى القرن الثامن عشر .

وإذا نظرنا إلى حالة الطبقة الوسطى أو الطبقة البرجوازية ، نجد أن نشاط هذه الطبقة فى مختلف ميادين العمل وخصوصا التجارة ، قد عمل على زيادة الثروة الاوروبية زيادة كبيرة ، وكذلك عملت على رفع مستوى المعيشة . وفى نفس الوقت

تمتعت هذه الطبقة باحترام كبير من قبل الحكام ، نظرا لنشاطها وخبرتها وسعة أفقها ، بحيث كادت الفروق الطبقية بينها و بين طبقة النبلاء تنعدم .

وسنجد أن هذه الطبقة الجديدة كانت فى بدء نشأتها فى حاجة ماسة إلى معاونة الحاكم لها حماية لمصالحها أن تهدر ، ولمركزها أن يزول ، فعضدت الحكام وأيدتهم فى سلطتهم الاستبدادية طالما كان هذا الاستبداد فى صالحها . ولكن بمضى الوقت أخذ نفوذ هذه الطبقة يتدعم وسلطتها تقوى، بحيث أصبحت تشعر أنها فى غير حاجة لحماية هؤلاء الحكام ، فهاجموا الاستبداد الفردى، وطالبوا بنظام للحكم يكون لهم فيه نصيب كبير ، وخصوصا بعد أن وجدوا أن الثورة الأمريكية التى قامت بها البرجوازية قد نجحت واستطاعت البرجوازية، فى العالم الجديد أن تقيم نظاما للحكم عجزت البرجوازية فى أوروبا عن تحقيقه . كانت الأمور إذن تسير فى صالح تلك الطبقة التى ستلعب دوراً خطيراً خلال القرن التاسع عشر فى أوروبا .

وإذا انتقلنا إلى الحالة السياسية فى أوروبا خلال القرن التاسع عشر نجد أن إنجلترا كانت من أقوى الدول الأوربية على الاطلاق . فمن ناحيـــة نظم الحكم تمتعت البلاد بنظام حكم مستقر، اتخذ فى الظاهر مظهر الحكم الديمقراطى، بينما هو فى واقع الأمر ، لا يعد أن يكون نظام حكم أرستقراطى يمثل مصلحة الطبقة الغنية التى لها مصالح واضحة فى البلاد فالبرلمان الانجليزى بمجلسيه اللوردات والعموم كانت تسيطر عليه الطبقة الغنية ممثلة فى ارستقراطية الأرض وكبار رجال المال والتجارة. وكان أعضاء البرلمان يتولون وظائفهم بالتعيين من قبل الحكومة وليس بطريق الانتخاب. ولذا لم يكن هؤلاء الأعضاء يحرصون على كسب ثقة الطبقة العامة أو مراعاة مصلحتها . بينما نجد أن الطبقة الدنيا، أى طبقة العامة، لاتتمتع بأى سلطان أو نفوذ سياسى داخل البرلمان أو خارجه. ولكن رغم هذا لم تكن حالتها سيئة بالنسبة لمثيلاتها فى الدول الأوربية الأخرى مثل فرنسا والنمسا وروسيا .

فنظام الحكم السائد فى انجلترا كان النظام الاوليجاركى Oligarchy أى نظام حكم الأقلية وإلى جانب هذه الاقلية توجد الملكية الانجليزية التى كانت تملك وتحكم قبل قيام الثورة المجيدة فى عام ١٦٨٨ . ثم أصبحت تملك ولا تحكم بعد نجاح تلك الثورة . وفى ظل هذا الحكم تمتعت انجلترا باستقرار لم تعهده غيرها من الدول الأوربية الأخرى . وكذلك تمتعت بحرية نسبية كانت موضع اعجاب الشعوب الاوربية جميعها ، وكانت صمام الامان ضد الحركات الثورية التى تعرضت لها الدول الأوربية الأخرى مثل فرنسا والنمسا .

أما من الناحية الدينية فقد ساد المذهب الانجيلكانى الجزر البريطانية ، وكانت الكنيسة الانجليزية وثيقة الصلة بالطبقة الاستقراطية فى انجلترا شأنها فى ذلك شأن طبقة رجال الدين فى فرنسا . ولكن طبقة رجال الدين فى انجلترا لم تتردى فيما تردت مثيلتها فى فرنسا ، بل كانت أكثر اتزانا وأقل ميلا للترف منها . ولم تقتصر سلطة رجال الكنيسة الانجليكانية على الناحية الدينية فحسب ، بل تعداها إلى الناحية السياسية أيضاً ، فمعظم كبار رجال الدين أعضاء فى البرلمان الانجليزى ولم تكن انجلترا تعترف بالحرية الدينية ، فالمذهب الانجليكانى هو المذهب الوحيد المعترف به فى انجلترا ، وليس لغير معتنقيه حق دخول البرلمان أو شغل الوظائف العامة فى الدولة .

أما من الناحية السياسية فقد اتبعت انجلترا سياسة توسعية ظاهرة ودخلت فى صراع عنيف مع فرنسا حول المستعمرات ، وقد كتب لها الغلبة فى النهاية ، فتمكنت من طرد فرنسا من كندا ، ومن إخراجها من معظم مستعمراتها فى الهند ، فتوطدت بذلك أركان الامبراطورية البريطانية ، ويرجع الفضل الأكبر فى هذا النجاح إلى قوتها البحرية ، وإلى اتباع سياسة توسعية حكيمة .

ورغم ذلك فقد تعرضت لأزمة شديدة بقيام ثورة الاستقلال الأمريكية، وتعضيد فرنسا للثوار الأمريكيين ضد أنجلترا انتقاما منها لطردها من الممتلكات الامريكية. وأنتهت تلك الثورة باستقلال الولايات المتحدة الامريكية وانفصالها عن أنجلترا، فخسرت بذلك بريطانيا مستعمرة واسعة تعتبر من أغنى المستعمرات التى كانت تملكها. ولكن هذه الخسارة قد أفادتها فائدة كبرى، مكنتها من الاحتفاظ بمستعمراتها الأخرى بفضل أتباعها سياسة أكثر مرونة من ذى قبل.

إذا تركنا انجلترا جانبا وأنتقلنا إلى القارة الأوربية نجد الامبراطورية النمساوية المجرية وعلى رأسها اسرة الهسبرج التى كانت تحكم ارجاء الامبراطورية الواسعة بحق الملوك الالهى فى الحكم. أى أنها كانت تحكم عناصر مختلفة وجنسيات متعددة من مجرية وصقلبية وجرمانية وتشيكية وسلوفاكية حكما استبداديا. وكانت تشغل تلك الامبراطورية وسط أوربا وشمال إيطاليا والاراضى المنخفضة.

ويعتمد الامبراطور فى حكم هذه الامبراطورية الواسعة على العنصرين النمساوى والمجرى، ولكن العنصر الالمانى له الغلبة، فمنه تنحدر الاسرة الحاكمة. ثم يليه فى الاهمية العنصر الالمانى ويسكن سهول المجر الخصبة الغنية بمنتجاتها الزراعية الوفيرة. ولكنهم كانوا يشعرون بقوميتهم وينزعون إلى الاستقلال عن الامبراطورية. ويلى العنصر المجرى عناصر صقلبية أخرى فى بوهيميا وسلوفاكيا وفى شمال شرق البحر الادرياتى، وفى بولونيا وغاليسيا، وعناصر بلجيكية فى الاراضى المنخفضة.

فهذه الامبراطورية الواسعة التى عمرت سنين طويلة كانت تفتقر إلى الوحدة وإلى التجانس بين شعوبها المختلفة المشارب والمتباينة الأهواء. فهى بهذا لم تصبح دولة قومية فى يوم من الايام. وقد حاول أباطرتها جاهدين تحقيق هذا الحلم

وخصوصا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ولكنهم فشلوا فى تحقيق هذا الهدف ، نتيجة لتغلب العنصرية .

أما عن نظامها الاجتماعى فقد تركز حول نظام الطبقات الذى عرفته دول أوربا . وأعتمد على العنصرية إلى حد بعيد ، فرغم الامتيازات التى تمتع به العنصر الألمانى فى الدولة ، الا أن العناصر الاخرى كانت تتمتع بامتيازات مماثلة طالما كانت موالية للاسرة النمساوية الحاكمة .

أما عن سياستها الخارجية فكانت تتلخص فى معاداتها لفرنسا منذ القرن السادس عشر حتى القضاء على نابليون . وكان وجود هذه الامبراطورية هاما فى ايجاد التوازن الاوربى بين فرنسا فى الغرب وروسيا فى الشرق .

إذا أتجهنا نحو الشرق نجد القيصرية الروسية وتحكم امبراطورية واسعة تحت حكم أسرة رومانوف . وكانت تسير فى حكمها على نفس النظام الاستبدادى الذى عرفته دول أوربا فى ذلك الوقت ، تؤيدها فى ذلك الكنيسة الروسية كما هو الحال بالنسبة النمسا وفرنسا .

وقد تمكنت القيصرية الروسية فى عهد القيصر بطرس الأكبر (١٦٧٢-١٧٢٥) وكاترين الثانية (١٧٢٦ - ١٧٩٦) من أن تخطو خطوات واسعة نحو الاقتباس من الغرب ونقل النظم الأوربية الحديثة إلى روسيا. كما استطاعت روسيا أيضا فى ظل حكم هذين القيصرين من القضاء على سلطة الإشراف وتوطيد نفوذها الاستبدادى المطلق على البلاد .

وإذا نظرنا إلى خريطة روسيا نجد أنها تمتلك أجزاء واسعة من آسيا ،وكذلك أجزاء من أوربا ، فهى بحكم موقعها هذا دولة شرقية وغربية فى نفس الوقت . ومن هنا أختلفت نظرة الدول الأوربية اليها من حين لآخر تبعا لعلاقتها بها. فاذا

كانت هذه الدول الأوروبية ترتبط برباط الصداقة معها اعتبرت روسيا دولة غربية، وأعتبر الأدب الروسى أدبا غربيا راقيا . وإذا ماساءت العلاقة معها عدوا روسيا دولة شرقية متأخرة سياسيا واقتصاديا ودينيا .

أما عن الحالة الاجتماعية ، فلم تعرف روسيا سوى طبقتين : طبقة أصحاب الضياع والاقطاعات وطبقة المزارعين أى عبيد الأرض . وتعتبر الطبقة الأخيرة من الطبقات الأكثر بؤسا والأتعس حالا من سائر الطبقات الأخرى المماثلة لها فى دول أوربا . ورغم هذا فلم تقم بثورة نظرا لجهلها ولصعوبة الاتصال سواء بداخل البلاد أو بخارجها .

تلك نظرة سريعة لحالة ثلاث من الدول الأوروبية الكبرى التى ستتصل بها فرنسا أتصالا سياسيا وحربيا ، لمقارنتها بحالة فرنسا فى ذلك الوقت ، لنكون على علم بالظروف السياسية والاجتماعية التى سادت أوربا فى القرن الثامن عشر، ومدى تأثرها بقيام الثورة الفرنسية .

الفصل الثاني

وصول نابليون إلى السلطة والحكم

نشأة نابليون

نشأ نابليون فى وقت قريب العهد بالثورة ، ولكنه لم يشترك فى أحداثها الكبرى ، بل كان متفرجا أكثر منه مشتركا . ولقد قام بدور إيجابى فى القضاء على الثورات التى كانت تقوم ضد الثورة، فاشترك فى القضاء على ثورة الجنوب وحصار طولون ، والقضاء على ثورة فندمبير Vendemiaire (أكتوبر ١٧٩٥) . ومنذ ذلك الوقت توثقت الصلة بينه وبين رجال حكومة الإدارة ، وزادت تلك الصلة بزواجه من جوزفين بوهارنيه التى كانت على صلة وثيقة برجال حكومة الإدارة .

ولقد ساعدت الظروف أيضاً نابليون على الظهور، فلا زال الخطر الخارجى باقيا ومازال أمام فرنسا دولتان من أكبر الدول الكبرى . وكان على حكومة الإدارة توجيه ضرباتها إلى الدول القارية ، فجهزت قوة كبيرة لغزو النمسا عن طريق الراين والغابة السوداء . ولكى تزيد فى متاعب الجيش النمساوى ، قررت ارسال حملة إلى ايطاليا لحجز بعض القوات النمساوية هناك ، وسلم أمر هذه الحملة الثانوية إلى بونابرت .

ويهمنا أن نلقى نظرة عامة على حالة إيطاليا فى ذلك الوقت . فايطاليا إلى الآن لم تلعب دوراً مهما فى الناحية السياسية ، وكذلك فى الناحية الأدبية أو العلمية

وذلك لضعفها وتفككها ولتدخل النفوذ الاجنبي في شئونها . فميلان خاضعة للنفوذ النمساوي ، ومملكة بيدمونت المجاورة لفرنسا مستقلة وتعتبر من أقوى الدويلات الايطالية . ثم جمهورية البندقية وكانت مضمحلة في ذلك الوقت ، ثم هناك أيضا امارات وسط ايطاليا وهي توسكانا ومودينا وبارما وهي خاضعة للنفوذ النمساوي غير المباشر . ثم هناك نابولي وهي معادية لفرنسا لانه يقوم على حكمها فرع من أسرة البربون .

تسلم نابليون قيادة الجيش الفرنسي في سافوي ، وحاول أن يفصل سكان بيدمونت عن حلفائهم النمساويين ، واستطاع أن يخرجهم من الحرب تاركين نيس وسافوي لفرنسا بعد أن هزم النمساويين في موقعة مونته نوت Monte Notte (ابريل ١٧٩٦) وأجبرهم على التقهقر إلى تحصيناتهم نحو الشرق ، وتعقبهم نابليون في سهل لومبارديا ، ودخل مدينة ميلان حيث قوبل كبطل منتصر ومحرر للايطاليين لا كفاتح وقاهر . وكان عمل نابليون هذا فاتحة لحركة الوحدة الايطالية فيما بعد . وكان على نابليون مهاجمة النمساويين في حصونهم الكبيرة، ونجح في الاستيلاء على منتوا Mantua وكانت من أمنع المعاقل النمساوية في شمال إيطاليا . وبذلك يقع شمال إيطاليا في أيدي الفرنسيين . ثم اتجه نابليون شطر الحدود النمساوية حتى وصل إلى ليباخ .

وفي هذا الوقت الذي كان فيه نابليون منتصرا لم تلق جيوش الرين أي نجاح ، فأصبح موقف نابليون دقيقا . وكان عليه أن يعقد الصلح مع النمسا ، وتم ذلك في معاهـــدة ليوبن Leoben (١٨ ابريل ١٧٩٧) . ولكن النمساويين كانوا مترددين في قبول الصلح لانتظارهم وقوع ثورة في باريس بسبب فشل الجيوش الفرنسية في الميادين الأخرى . ولكن خاب ظنهم بعد

انقلاب [1] فركتيدور Coup d' état de Fructidor ١٧٩٧ ، فعقدوا مع نابليون معاهدة كامبو فورميو Campo Formio (أول أكتوبر ١٧٩٧) و بمقتضاها ضمت بلجيكا إلى فرنسا ، وأنشأ نابليون فى لمبارديا جمهورية الألب الشمالية Cisalpine وجعلها خاضعة للحكومة الفرنسية . وأراد نابليون أن يرضى النمسا فعرض عليها البندقية . ولكن لكى لا يصبح النفوذ النمساوى سائدا فى الادرياتى ، استولت فرنسا على جزائر ايونيان . تلك هى النصوص العلنية للمعاهدة .

أما النصوص السرية ففيها اعترف الامبراطور النمساوى بحق فرنسا فى التدخل فى مسائل غرب المانيا ، بل وضم بعض أجزائها اليها . وأظهر نابليون فى هذه الحملة عظمة سياسية وحربية كبيرة ، وفتحت أمامه طريق المجد . ومما يلاحظ على هذه الاتفاقية أن النمسا وفرنسا اتفقتا على اقتسام بعض الدويلات الصغيرة لتسوية النزاع ، كما أظهرت المعاهدة استعداد الامبراطور النمساوى على التضحية بالمسائل الالمانية . وأصبحت جمهورية الألب الشمالية التى أنشأها نابليون فى شمال فرنسا تنشر مبادىء الثورة إلى كل أجزاء ايطاليا . ولم يقتصر الفرنسيون على ذلك ، بل أخذوا يتدخلون فى شئون الدويلات الايطاليــة منتحلين لذلك أتفه الاسباب

---

(١) نص دستور ١٧٩٥ على سقوط أعضاء المجلسين التشريعيين كل سنة وسقوط عضو واحد من خمسة أعضاء يكونون حكومة الادارة ، فكان المجلس التشريعى أكثر تأثراً من حكومة الادارة ، فدخل كثير من انصار الملكية البرلمان فخشيت الحكومة أن يؤدى هذا إلى رجوع الملكية مما يفت فى عضد الجيوش الفرنسية المحاربة ، فاستطاعت حكومة الادارة بمساعدة نابليون التخلص من أنصار الملكية فى المجلسين .

وقضوا على النظم الاستبدادية فيها وسلموا جمهورية البندقية للنمسا وقضوا عليها قضاءاً تاما . ولم يتعرض الفرنسيون للولايات البابوية لأن نابليون كان يفكر فى تحسين صلات فرنسا مع البابوية ، بينما كانت حكومة الادارة تبغى القضاء عليها .

كانت الحالة الداخلية فى فرنسا تزداد سوءا ، والناحية المالية بصفة خاصة . أما من الناحية الدينية فلم يكن هناك استقرار ، فظل أغلب الفرنسيين متمسكين بالديانة الكاثوليكية ، ولم ترق فى أعين الشعب عبادة العقل أو عبادة الكائن الاعظم أو عبادة « عمل الخير للناس Theo Philanthropy . وهذه العبادة الاخيرة كان يعتنقها بعض رجال حكومة الادارة .

ثم نجد أن الجيش أصبح قويا بحيث أصبح له شيء من الدكتاتورية . هذا بالاضافة إلى أنه لم يكن هناك توافق بين السلطتين التشريعية والتنفيذية نتيجة للدستور الجديد (دستور ١٧٩٥) . كذلك لم يكن هناك انسجام أو توافق بين أعضاء الهيئة التنفيذية (حكومة الادارة) فنهم من كان شديد التطرف ويعارض زملاءه فنجد أن السلطة التنفيذية بقيت فى أيـــدى اليعاقبة المتطرفين ، بينما الانتخابات الجديدة للمجلسين النيابيين اسفرت عن فوز المعتدلين وبعض أنصار الملكية ، فأصبح اذن التعاون بين الهيئتين التنفيذية والتشريعية عسيرا . فاستعانت حكومة الادارة بنابليون على القيام بانقلاب فركتيدور (١٧٩٧) ، فتخلص نابليون بقواته الحربية من المعتدلين وأنصار الملكية فى الهيئة التشريعية وذلك للمحافظة على التوازن بين الهيئتين ، ولتساعده الحكومة على عقد الصلح مع النمسا التى كانت تنتظر نتائج الحالة فى فرنسا ، وهو صلح كمبيوفورميو السابق ذكره . وبذلك خرجت النمسا من الحرب وبقيت انجلترا بمفردها .

ماذا كانت حالة فرنسا فى أثناء غياب نابليون بمصر ؟

لم يكن صلح كمبيوفورميو موضعا للثقة ، فالحالة السيئة بين فرنسا والنمسا مازالت قائمة، وفرنسا تعلم أن دول أوربا لن ترضى بصلح مهين لكرامتها، ولابد أن تعمل على القيام بحرب اخرى ضد فرنسا ، «عملت فرنسا على تقوية نفوذها فى البلاد المفتوحة ، وعلى انشاء جمهوريات موالية لها فى البلاد المجاورة ، وأخذت تحاول نشر مبادىء الثورة فى هذه الأماكن حتى تتمكن من تقويض العروش التى طالما هددت سلامة فرنسا ، هذا من جانب فرنسا ، ومن الجانب الآخر نظرت الدول بعين الفزع إلى نمو فرنسا وزيادة سلطانها . كما خشيت هذه الدول على نظمها من انتشار مبادىء الثورة فيها ، وكان الوزن فى صف مبادىء الثورة لافى صف المبادىء الاستبدادية العتيقة .

رأت الدول أن فرنسا قد تعدت على حقوق الدول المجاوره لها وتدخلت فى شئونها الداخلية ، وقضت على بقية الدول المستقلة والملكيات ، وأنشأت فى مكانها جمهوريات ، هى فى الواقع تابعة لفرنسا : حدث ذلك فى هولندا وسويسرا وبيدمونت ونابولى والولايات البابوية . اذن لابد من وضع حد لاطماع فرنسا، فكان لابد للنمسا التى ساءها تدخل فرنسا فى ايطاليـــا ، ولاسيما نابولى التى انضمت إلى انجلترا . وكذلك انضم القيصر الروسى « بول » إلى انجلترا لأخذ فرنسا جزيرة مالطة من يد فرسان القديس يوحنا (٩ يونية ١٧٩٨) لذين كانوا خاضعين لحماية الروسيا ، كما انضمت تركيا إلى الحلفاء للانتقام من فرنسا لاستيلائها على مصر . وبذلك يتكون التحالف الدولى الثانى من انجلترا والنمسا والروسيا وتركيا، فتمكنت جيوش الحلفاء تحت قيادة القائد الروسى الكبير سوفوروف من الانتصار انتصارا حاسما على القوات الفرنسية فى موقعة « نوفى »

بايطاليا ، وأرغمت القوات الفرنسية على الارتداد الى سواحل جنوة والتخلي عن كل ماأستولت عليه من أراضي شمال إيطاليا إلا أن إختلاف قواد الحلفاء وكذلك اختلاف الدول المتحالفة أنقذ فرنسا مؤقتا من خطر الغزو الاوربي الثاني بخروج الروسيا (أغسطس - أكتوبر ١٧٩٩)، وأدى ذلك إلى سقوط حكومة الادارة (نوفمبر ١٧٩٩) . وكان العامل الأول لسقوطها نابليون ، والعامل الثاني سييس ، والثالث طبيعة دستور ١٧٩٥ وفساد حكومة الادارة وسوء تصرفها . ولكل هذه العوامل كان الشعب الفرنسي مستعدا لقبول حكم شخص يمكنه اصلاح حالة البلاد الداخلية واكتساب النصر الخارجي. ولهذا تستطيع أن تتصور تحمس الشعب الفرنسي لاستقبال نابليون عند عودته سرا الى فرنسا في أكتوبر ١٧٩٩. وكان نابليون قد درس جيدا الموقف السياسي في فرنسا وكيفية معالجته والوصول الى مآربه الخاصة هو أن يكون رئيسا للدولة الجديدة .

كان نابليون يظن أن انتصاراته الخارجية ستكون عونا له على تحقيق مآربه، ولكن هذه الانتصارات لم تكن عونا له على المجلسين . فحينما حاول نابليون التأثير على هذين المجلسين تؤدي فيهما بسقوط كروموريل. ولكن نابليون إستطاع الاستفادة من مركز أخيه وكان رئيسا لمجلس الخمسمائة، ومن مركز سييس أحد أعضاء حكومة الادارة . فاتفق نابليون مع سييس على وضع خطة معينة للتخلص من الهيئتين التشريعية والتنفيذية واقامة نظام جديد يكون لهما فيه السلطة العليا .

وقد تم لهما التخلص من معارضة الهيئة التشريعية ، فيما سمى بانقلاب فركتيدور Coup d' elat de Fructidor ١٧٩٧ . وكان هذا الانقلاب هو الجزء الأول من الخطة الموضوعة . أما الجزء الثاني فسيتم له بواسطة أخيه لوسيان والجنود وسمى انقلاب برومير Brumaire ١٨ نوفمبر ١٧٩٩ ويتلخص هذا الانقلاب في أن سييس وكانت له أغلبية برلمانية

فى مجلس الشيوخ يقرر انتقال الهيئة التشريعة الى سان كلو St.Cloud لبحث مؤامرة مزعومة تدبر لفرنسا حيث كان هناك نابليون فى انتظارهم بقواته، فأرغم حكومة الادارة على الاستقالة كما ظهر أعضاء المجلسين وقرر الباقون تأليف حكومة مؤقتة حتى يتم وضع الدستور الجديد الذى يسمى الدستور القنصلى ١٧٩٩ وهو يرجع الى حد كبير الى تفكير سييس، وأن كان نابليون أدخل عليه تعديلات تمس الناحية السياسية .فسييس يضع سلطة رئيس الحكومة مشابهة لسلطة الملك وسلطة رئيس الجيش تكون فى المرتبة الثانية . ولكن كان نابليون يرمى الى أن يكون رئيس الجيش هو رئيس الحكومة . وسييس نتيجة لدراسته الدستورية كان يرمى الى ايجاد حكومة بيروقراطية .

نص دستور ١٧٩٩ على وضع السلطة التنفيذية فى يد قناصل ثلاثة كان نابليون هو القنصل الاول وله سلطات واسعة كاختيار الوزراء وكبار رجال الجيش، وحق اعلان الحرب وتوقيع المعاهدات، وسن القوانين، ويعاونه قنصلان آخران كمساعدين له (وهما Cambacérés و Lebrun) . أما السلطة التشريعية فوضعت صوريا فى يد مجالس ثلاثة . الاول هو مجلس الشيوخ، وعلى رأسه سييس، ويختاره القناصل مدى الحياة وله حق انتخاب أعضاء المجلسين، ومراعاة تطبيق مواد الدستور .

أما المجلس الثانى فهو مجلس التربيون Tribunat ،ويتكون من مائة عضو يسقط خمسهم كل عام ؛ وهو أشبه بمحكمة لمناقشة المشاكل التشريعية مع إبداء رأيها فيها دون أن يكون لها حق القبول أو الرفض .

أما المجلس الثالث فهو المجلس التشريعى ويتكون من ثلثمائة عضو وله حق الموافقة أو الرفض على مشروعات القوانين دون أى مناقشة .

وكل هذه المجالس لم تكن بذى سلطان تشريعى ، ولم يكن لها فى حقيقة الآمر

سلطان بجانب سلطان نابليون ، فيستغنى نابليون عنها جميعا دون أن يقوم الشعب الفرنسى ضده . وسيكون الحكم فى يده سواء أكان قنصـــلا أم امبراطورا (مايو ١٨٠٤) .

أوصل النصر الخارجى نابليون الى القنصليـــة ،وعرف نابليون أن الانتصار الحربى هو الكفيل بالمحافظة على هذا المركز،فالموقف الخارجى قريب الشبه الى جد كبير بالموقف حينما تقلد نابليون قيادة الحملة الايطالية. فأعد نابليون جيشين للتخلص من الخطر النمساوى أولا . الأول يتجه إلى الراين والآخر الى ايطاليا . إجتازت القوات الفرنسية جبال الألب السويسرية ونزلت فى سهل لمبارديا وتقابلت مع جيوش النمسا فى سهل مارنجو Marengo (١٤ يونيه ١٨٠٠) وإنتهت بهزيمة ساحقة فسارعت بطلب الهدنة ، ولكن نابليون لم يجب النمساويين الى طلبهم إلا بعدأن هزمهم فى موقعة هو هنلند Hohenlinden (على يد القائد Moreau)فى ٣ ديسمبر ١٨٠٠ . فعقد صلح لونيفيل Luneville (٩ فبراير ١٨٠١) وهو يشبه صلح كمبوفورميو فيما يختص بايطاليا ، وفيه سلم النمساويون بكل البلاد الواقعة غرب الراين ، وفتحوا باب المناقشة فى مسائل المانيا . واعترفت النمسا بالجمهوريات التى أقامها نابليون فى ايطاليا وسويسرا وهولندا .

على أى حال كان نابليون بعد ذلك الصلح يسعى الى تقسيم المانيـا الى ثلاث مناطق يسيطر عليها الفرنسيون جميعا .

أما بخصوص انجلترا فقد حاول نابليون تكوين حلف بحرى ضـــدها لان الاسطول الفرنسى لايستطيع الوقوف وحده أمام الاسطول الانجليزى وتكون هذا الحلف من الدول التى تذمرت من تفتيش الاسطول الانجليزى لها، وهى الروسيا وبروسيا والسويد والدنمارك فأسرعت انجلترا بالقضاء على الاسطول

الدنمركى أمام كوبنهاجن . كما قتل بول قيصر الروسيا فى ذلك الحين. وبذلك ينحل التحالف البحرى ويفقد نابليون الأمل فى القضاء على انجلترا . ولما كانت وزارة ولنجتون الانجليزية غير راغبة فى استخدام السلاح كما كانت فرنسا أيضاء عقد صلح أميان (٢٥ مارس ١٨٠٢) وبه تخلت انجلترا عن كل ماأخذته من فرنسا الاسيلان وترنداد ورأس الرجاء الصالح . كما تعهدت أيضا برد جزيرة مالطة إلى فرسان التدريس يوحنا . كما سلمت انجلترا مصر للسلطان العثمانى وسيتيح هذا الصلح لنابليون فرصة عظيمة للقيام باصلاحاته الواسعة فى فرنسا .

وبهذا الصلح استردت فرنسا كل مافقدته من ممتلكاتها . وستكون جزيرة مالطة السبب فى وقوع حرب مستقبلة، لأن انجلترا رفضت الجلاء عنها بحجة توقع حرب جديدة. كماساعد على نشوب تلك الحرب أيضا استيلاء فرنسا على الاراضى المنخفضة والعمل على تقييد ومقاومة التجارة الانجليزية فى فرنسا ، وفى نفس الوقت عملت على زيادة قوتها البحرية لتتعادل مع قوة انجلترا البحرية .

كيف إستطاع نابليون تركيز السلطه فى يديه ؟

لم يعر نابليون دستور ١٧٩٩ اهتماما كبيرا ،فلم يشرك الشعب معه فى الحكم وأصبح يعتمد على تأييد الكنيسة والفلاحين ، وحاول إبعاد اليعاقبة عن حكم فرنسا،واتخذ سببا لذلك إلقاء قنبلة عليه إتهم فيه اليعاقبة والملكيين(١٨٠٠)وذلك كى يخلو له الجو وتنعدم المقاومة فى فرنسا .

وإذا نظرنا إلى فرنسا بعد صلح إميان نجد أنها بمقتضى تلك المعاهدة أصبحت سيدة القارة الاوربية . ولكن الحكم فيها أصبح شخصيا برضاء الشعب الفرنسى لا رغما عنه . ثم أخذ نابليون يوسع سلطاته الدستورية شيئا فشيئا، فبعد أن أصبحت مدة القنصلية مدى الحياة منح السلطة فى إختيار من يخلفه من بعده . ثم

أخذ يقيد السلطة التشريعية بحجة قيام الخطر الخارجى وحماية لنابليون نفسه من مؤامرات أعدائه من الموالين للملكية ، والمحبين لليعاقبة . ولما نقض نابليون صلح اميان كان ذلك فى مصلحته ، إذ وقفت فرنسا كلها بجانبه .

وفى ١٨٠٣ حدثت مؤامرة كدودال لاغتيال نابليون وتتلخص تلك المؤامرة فى أن أحد الملكيين ويدعى جورج كدودال Georges Cadoudal قام باغراء بعض القواد الفرنسيين أمثال مورو وبيشجرو وبإيعاز من الحكومة الانجليزية على تدبير مؤامرة تبدأ بقيام ثورة فى مقاطعتى نورمانديا وبريتانيا . يغتال فى أثنائها نابليون وتسند رياسة الدولة الى أحد أفراد أسرة البربون .

ولكن هذه المؤامرة باءت بالفشل، ولو أنها أكسبت نابليون عطف الشعب الفرنسى، وأتاحت له الفرصة بأن يتمتع بمزيد من الحرية، فاقترح أحد أعوانه فى مجلس التربيون ويدعى Curée فى ٢٣ ابريل ١٨٠٤ بان يصبح مركز نابليون وراثيا فى ذريته ، ثم منحه مجلس الشيوخ فى مايو ١٨٠٤ لقب « إمبراطور الفرنسيين » وحضر البابا إلى فرنسا وقام بتتويج نابليون وزوجته جوزفين على مثال أباطرة الرومان القدماء .

التغييرات التى أجراها نابليون فى الناحية الدينية

فهم نابليون أن أغلبية الشعب الفرنسى مازالت متعلقة بالكاثوليكية، وأن الديانات التى جاءت بها الثورة لم يكن لها نصير ، ولا بد من الاستفادة من ذلك الشعور، ولابد أن يستغل ذلك الشعور لتأييد سلطانه فى فرنسا، فيعمل على توثيق علاقته بالبابوية . ثم يعقد صلح الكونكوردات فى ١٥ يوليه ١٨٠١ يعترف فيه البابا بمصادرة أملاك الكنيسة على أن يعطى رجال الدين مرتبات مناسبة فى مقابل اعتراف الحكومة الفرنسية بالديانة الكاثوليكية وسيادتها ال[illegible] ـ حة. ولكن

نابليون حرص على أن يكون له هو الاشراف على الكنيسة وأمورها ، فهو الذى يولى الموظفين الكبار ، وبذا يتمكن من تعيين أنصارة هو . فنابليون لم يجعل للبابوية أدنى سلطة كبيرة فى فرنسا . بل عمل على اشراف الدولة على الكنيسة سواء أكانت كاثوليكية أو بروتستنتية أو كلفنية وبذلك ترجع الى الحالة الدينية فى فرنسا ما كان لها من استقرار لم تعرفه أثناء عهد الثورة .

أما الناحية القانونية فلم تكن اصلاحاته فيها بأقل من الناحية الدينية ، ويعتبر نابليون نفسة أن اصلاحاته القانونية ليست بأقل أهمية من انتصاراته الحربية . فقد كانت حكومة الادارة تتوق الى القيام بمثل تلك الاصلاحات. ولكن تنفيذها يحتاج الى حكومة قوية وعبقرية فذة . ووجدت هذه الصفات فى حكومة نابليون وفى شخصية نابليون . وفى هذه القوانين ركزت مبادىء الثورة وانتشرت فى أرجاء الأرض . فقد كان الاساس الذى بنيت عليه هذه القوانين هى فكرة المساواة والتسامح الدينى والملكية . فاعترف ذلك القانون بحق الوراثة والطلاق وجعلت الحكومة هى المسيطرة على المسائل الشخصية لا الكنيسة .كما ألغى نظام انتخاب القضاة (قانون ١٨ مارس ١٨٠٠) فأصبح القضاة يعينون بواسطة نابليون أو مجلس الشيوخ مع عدم قابليتهم للعزل . وكان تأثير نابليون على وضع القانون عظيما يشمل الأمور الجنائية والتجارية والقضائية . ولقد ظهر فى تلك القوانين سواء أكانت دينية أو قانونية أو إدارية روح الثورة الفرنسية الى جانب روح لوى السادس عشر .

وفى الناحية الادارية تظهر روح التركيز واحترام الشعب للحكومة فقام نابليون باصلاح التعليم وجعله خاضعا لاشراف جامعة الدولة . كما حدد العلوم التى تدرس فيها، ولم يشجع الدراسات الاخلاقية والفلسفية، وقيد حرية الصحافة . وأنشأ بلاطا

له ، وكذلك أنشأ الرتب والنياشين المختلفة ، وعمـــل على تقوية موارد فرنسا من انشاء الطرق وشق الترع .. الخ . كما عرفت فرنسا فى عهده الثورة الصناعيـــة .

وإلى جانب تنظيم النواحى الدينية والقضائية والادارية . وضع « القانون المدنى » ليكمل الناحية الاجتماعية،ولينظم علاقات الأفراد بالمجتمع الفرنسى الجديد. وهذا القانون عبارة عن مجموعة من المواد جمعت من بعض القوانين المختلفة التى سادت فى فترات معينة من تاريخ فرنسا ، مثل القانون الرومانى وقوانين الملكية وقوانين الثورة . وسمى هذا القانون الجديد بقانون نابليون (٢١ مارس ١٨٠٤) وهو مازال سائداً فى فرنسا حتى اليوم ، بالإضافة إلى الدول التى اقتبست نظمها من النظام الفرنسى .

ولقد شمل تنظيم نابليون كل نواحى النشاط فى فرنسا ، وتم هذا الانقلاب الكبير فى النظم الفرنسية فى الفترة مابين ١٨٠٠ ، ١٨٠٤ . وبهذه الأعمال الجيدة استطاع نابليون أن يكون أمبراطوراً .

تكوين التحالف الدولى الثالث وعودة الحرب

لم يكن صلح اميان (٢٥ مارس ١٨٠٢) نهاية الحرب بين انجلترا وفرنسا، فهو صلح قصير المدى، وشروطه ما كانت تدعوا إلى استمرار السلام مدة كبيرة . فلم يكن بين الدولتين ثقة متبادلة . ولقد عملت فرنسا عـــلى بسط نفوذها ، بل لقد وضعت جيوش احتلال فى الجمهوريات التى بجانبها فنجد نابليون يعين نفسه رئيساً للجمهورية الإيطالية ، كذلك بعض الحملات التى قامت بها فرنسا فى عرض البحار أثارت مخاوف انجلترا ، مثل حملة سان دومنجو ، التى كان الغرض منها القضاء على الحركة الاستقلالية التى بها أحد السود ويدعى Toussin L'ouverture ،

وكان يسكن هذه الجزيرة عدد كبير من السود ، فقام هذا الأسود وقضى على حكم البيض ، وأنشأ حكومة للسود، واتبع سياسة نابليون وأعلن نفسه قنصلا. وكانت هذه الجزيرة تابعة لفرنسا ،فقيام هذه الحركة إذن قد أضاع النفوذ الفرنسى منها ، ولو سارت هذه العدوى فى الممتلكات الفرنسية لانفصلت كل جزر الهند الغربية عن النفوذ الأجنبى .ولهذا رأى نابليون أن يستعيد هذه الجزر بعد فشل حملته على مصر التى كان يراد بها تعويض فرنسا عما فقدته .

وقد فهمت انجلترا من ارسال حملة فرنسية كبيرة فى عرض البحار لاخضاع تلك الثورة ، أن فرنسا مازالت تنظر إلى الناحية الاستعمارية ، وأن ظنها بأن صلح اميان سيضطر فرنسا إلى الخضوع والانصراف إلى النواحى الداخلية قد تبدد . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فاستيلاء الفرنسيين على هذه الجزيرة معناه الاستيلاء على كل جزر الهند الغربية .

ولم يكتف نابليون بذلك ، بل أرسل بعثتين فرنسيتين إلى منطقة الشرق الأدنى والهند ، وهما بعثة ديكان ، وهدفها الهند. وبعثة سبستيانى ووجهتها الشرق الأدنى . وقد أخافت هاتان البعثتان انجلترا خوفا شديدا ، وخشيت أن يؤدى بقاؤهما إلى إثارة القلاقل ضدها فى هذه المنطقة من العالم . وقد نشرت بعثة سبستيانى تقريرا أوضحت فيه أن الحامية الموجودة بمصر ضعيفة لاتستطيع الدفاع عنها ، وأن فرنسا يمكنها بقوة فرنسية صغيرة استعادة تلك البلاد مرة أخرى .

ثم هناك عوامل أخرى كانت تبعث القلق فى نفوس كل من الدولتين ، منها أن التجارة الانجليزية لم تلق ترحيبا فى الأجزاء التى كانت تحكمها فرنسا نتيجة لسياسة نابليون التى سار عليها فى تقييده لتبادل تلك التجارة . كما أن الصحافة

الانجليزية أخذت تحمل على نابليون وتندد بأعماله ، وتثير الرأى العام الانجليزى ضده . كذلك لم تقم انجلترا بتنفيذ شروط صلح اميان فقيام الحرب بين الدولتين كان يرجع إلى عوامل متعددة بعضها نفسى والبعض الآخر يرجع إلى سلوك كل منهما تجاه الاخرى ، وعدم ثقة كل منهما ببعض . هذا بالاضافة إلى أن نابليون لم ينس سياسة الانتصار والحرب ، فلابد له من أن يعمل على إشعار فرنسا بأنها فى خطر دائم ، وأنه الشخص الوحيد الذى يستطيع حمايتها والذود عن كيانها .

أخذ نابليون يتحرش بانجلترا إلى أن أعلنت الحرب عليه فى ١٦ مايو ١٨٠٥ ، وحاولت كل من فرنسا وانجلترا أن تضم إليها أكبر عدد ممكن من الحلفاء . وكان نابليون قد استعد لهذه الحرب ، فقوى جيوش الاحتلال الفرنسية فى نابولى وهولندا . كما استولى على هانوفر وكانت تابعة للتاج الانجليزى ، فكان ملك انجلترا حاكما للملك المقاطعة . وحاول نابليون ضم الروسيا وبروسيا اليه فلم يفلح ، وحاول ضم اسبانيا اليه فنجح فى أول الأمر . وكان بت Pitt وزير خارجية انجلترا قد استطاع تكوين حلف أوربى ثالث (١٨٠٥) ضد فرنسا من الروسيا والنمسا والسويد . وتمكن نابليون من اقناع بروسيا بالوقوف على الحياد فى هذه الحرب فى نظير منحها مقاطعة هانوفر .

وكان الغرض من هذا الحلف الأوربى الثالث هو ارجاع فرنسا إلى حدودها القديمة ، وعقد مؤتمر دولى لفض المشاكل الدولية ، وايجاد نوع من النظام التعاهدى فى أوربا .

وجدنا نابليون أن من الضرورى القضاء على انجلترا ، فيعد المعدات الحربية على ساحل فرنسا الشمالى للنزول فى الاراضى الانجليزية . ثم يحاول الاسطولان

الفرنسي والأسباني الخروج إلى عرض البحر في اتجاه انجلترا ، فيقابلها الأسطول الانجليزي بقيادة نلسون عند الطرف الأغر في ٢١ أكتوبر ١٨٠٥ ويقضى عليهما في معركة حاسمة ، وبذلك تنجو بريطانيا من خطر عظيم كان يتهددها في عقر دارها .

ولما فشل نابليون في محاولة غزو الجزر البريطانية يتجه إلى الولايات الالمانية، وكان عليه أن يقضى على قوتى النمسا وروسيا . أما بروسيا فقد أضاعت بوقوفها على الحياد فرصة ذهبية ، وذلك لخوفها من فرنسا من جهة ومن جارتيها المحاربتين النمسا وروسيا من جهة أخرى . هذا بالاضافة إلى الصداقة التى سادت العلاقات بينها وبين فرنسا منذ معاهدة بال . كما أن نابليون كان يغريها بهانوفر إذا وقفت على الحياد. ولقد هاجم نابليون قوات النمسا وحدها وقضى عليها في **موقعة اولم** Ulm (٢٠ أكتوبر ١٨٠٥) ، ثم واجه قوات الروسيا والنمسا في موقعة « **اوسترلتز** » (٢ ديسمبر ١٨٠٥) **أو موقعة الاباطرة** ، فكانت هذه نصرا حاسما لنابليون ، ولم تستطع النمسا الثبات بعد ذلك، وتقهقرت الجيوش الروسية إلى الشمال الشرقي. وكان على نابليون إقرار العلاقات النمساوية الفرنسية وأراد أيضا أن يظهر بصفة محرر للولايات الالمانية من أسرة الهبسبرج ، أى أنه صمم على إبعاد النفوذ النمسوى عن هذه الولايات ولهذا يرغم النمسا في **صلح برسبورج** (٢٦ ديسمبر ١٨٠٥) على التنازل عن سيادتها عليها. وبذلك تتلاشى الامبراطورية الرومانية المقدسة .

وعلى أى حال زال ذلك النظام الذى فرضته النمسا على هذه الولايات فارتقت مقاطعات بافاريا وبادن وبرسبرج إلى ملكيات . واقتطع نابليون من أطراف النمسا ماشاء ، وضم البندقية إلى مملكة ايطاليا ، ثم كون نابليون مايسمى

باتحاد الراين Confederation of the Rhine ، وأعلن نابليون نفسه حاميا لهذا الاتحاد ، وقرر أن يكون حليفا دائما لنابليون . وكان على الدولة الالمانية الثانية (بروسيا) أن تقبل هذه التغييرات الجديدة فى المانيا . ولكن بروسيا كانت مترددة بين انصار السلام وانصار الحرب . فقررت أخيرا الحرب وأرسلت مندوبا عنها إلى نابليون يعلنه هذا القرار ، ووصل المندوب بعد موقعة « استرلتز » . وفى خريف ١٨٠٦ تحطمت قوة بروسيا الحربية فى موقعتى بينا Yena (اكتوبر ١٨٠٦) وأورستدت Auerstadt ١٨٠٦. وبين هاتين الموقعتين دخل نابليون مدينة برلين فى ١٨٠٦ وأصبح سيد أوربا بلا منازع بعد قهر بروسيا والنمسا وروسيا . ومن برلين أعلن نابليون « مراسيم برلين » التى تنص على محاصرة الجزر البريطانية اقتصاديا ، وتحريم التبادل التجارى بينها وبين سائر المواني الاوربية . ثم تحطمت مقاومة الدولتين الروسية والنمساوية معا فى موقعتى « ايلاو » Eylau وفريدلاند Friedland (فبراير ١٧٠٨) . وفى معاهدة تلست « Tilsit » (٨ يوليو ١٨٠٧) يقرر نابليون مصير بروسيا ونوع العلاقات الروسية الفرنسية ، وخسرت بروسيا عددا من سكانها ونصف أراضيها ، وحدد عدد جيشها ، وانشئت دويلات جديدة من ممتلكاتها مثل دوقية وارسو، وإمارات وستفاليا التى كونها من المناطق الواقعة غرب نهر الالب ، وعين أخاه « جيروم » حاكما عليها . وعقدت أواصر الصداقة بين الروسيا وفرنسا على أساس اعتراف الروسيا بكل التغييرات التى أحدثها نابليون فى المانيا ، وتطبيق الحصار على الجزر البريطانية ، فى نظير مساعدة نابليون للروسيا فى تحقيق أطماعها فى تركيا وفنلنده ونهر الطونة . وبذلك يصل نابليون فى ١٨٠٧ إلى أوج عظمته بعد أن هزم قوات القارة الاوربية وقلد اخوته عروش أوربا . ثم تبدأ بعد ذلك الامبراطورية النابليونية فى الانهيار والتداعى .

اسباب انهيار امبراطورية نابليون

يرجع أنهيار تلك الامبراطورية الشامخة إلى عدة عوامل :

اولا: أن أوربا أفاقت من غشيتها وحاولت القضاء على السيطرة الفرنسية واستخدمت نفس الوسائل التى تغلبت بها جيوش فرنسا على أوربا . ويبدو أن الثورة الفرنسية حملت منها جراثيم هدمها فلقد دخلت الجيوش الفرنسية البلاد المفتوحة بمبادىء الثورة وهى الحرية والاخاء والمساواه وحكم الشعوب نفسها بنفسها . ولذا سنجد أن هذه الشعوب ستعمل على تطبيق تلك المبادىء والاحتفاظ بحقوقها . فالشعب الفرنسى كان يحارب حكومات لا قوميات . وبينما كان الشعب الفرنسى ممثلا فى الجيش كانت الجيوش الأوربية جيوش مرتزقة لاتمثل الشعوب . لقد وجدت شعوب أوربا أن الحكم الفرنسى ليس فى صالحها دائماً ، وأن نابليون يعمل على أن يقوم كل شعب بدفع نفقات النصر الذى أحرزه وأعباء جيش والاحتلال . وجد كل شعب من الشعوب الأوربية أن نابليون وفرنسا من ورائه لا يعمل الا لمصلحة فرنسا وحدها . ولم يكن حكم نابليون لها حكما ديمقراطيا ؛ بل كان حكما قائما على الاستبداد . فكأن هذه الشعوب قد استبدلت حكما استبداديا بآخر من نوعه . وسنجد أن هذه الشعوب التى أيقظتها صيحات الحرية ستعمل على إدخال النظم والأساليب الحربية الفرنسية حتى تحارب فرنسا بنفس سلاحها . هذا بالإضافة إلى سوء الحالة الاقتصادية من جراء حصار انجلترا لأوربا وحصار نابليون للجزر البريطانية . فأصبحت أوربا مغطاة بالجنود لا تحترم إلا مصلحة فرنسا ومصلحة نابليون .

ثانيا : كانت أوربا تشعر شعوراً واحداً إزاء فرنسا، وهو الشعور بالعداوة بعد أوسترلتز وينا وفريدلند . فالعلاقات تحسنت نوعا مابعد «تلست» بين فرنسا

وبروسيا، ولكنها كانت ثقة مؤقتة . والتمسا ولو أنها سلمت لنابليون فى صلح برسبرج إلا أنها سلمت مرغمة ، وستنتهز الفرصة للقضاء على نابليون . وسنجد الدول الاخرى مثل أسبانيا تتألب على فرنسا ، وهذه الدول فى مجموعها أقوى من فرنسا من الناحية الحربية ومن ناحية الثروة وكانت هذه الشعوب تدفع ثمن هذه الحروب عن طريق الضرائب المنتظمة وتقديم زهرة شبابها لخدمة نابليون، فاذا كانت هذه الدول تستطيع تقديم محاربين لنابليون لتثبيت دعائم حكمه الاستبدادى فى أنحاء أوربا، كان فى وسعها أن تستخدم هؤلاء الشبان فى القضاء على النفوذ الفرنسى وحكم نابليون.

ثالثا : كانت عداوة الدول الاوربية لنابليون، وخصوصا عداوة انجلترا من الاسباب الهامة فى انهيار امبراطورية نابليون . فمقاومة انجلترا لنابليون بالحصار البحرى الذى فرضته على الدول الأوربية عجل فى نهاية نابليون ، ولم يكون فى استطاعة نابليون القضاء عليها ، وحاول ذلك مراراً أيام حكومة الادارة، وكان أحد رجالها غير الاقوياء . وحاول بعد ذلك أن يضيق عليها فى مستعمراتها فلم يفلح ، ثم حاول أن يضم الدول البحرية إلى جانبه، ولكنه فشل، فحطم الأسطول الانجليزى الأسطول الدنمركى فى ميـاه كوبنهاجن . اكما كان لنلسون أثر كبير فى هزيمة نابليون ولكن نابليون لم ييأس بعد أن هزم القارة الاوربية، فحاول أن يكون حلفا أوربيا، كما حاول أيضا ضم الاسطول الاسبانى إلى الأسطول الفرنسى، فدمرهما نلسون فى موقعة الطرف الأغر (٢١ أكتوبر ١٨٠٥) وسمى أحد ميادين لندن الكبيرة باسم ميدان الطرف الأغر وبه تمثال لنلسون . وكان هذا الانتصار حاسما فى العلاقات الانجليزية الفرنسية ، فلم يفكر نابليون فى غزو انجلترا مرة أخرى. وسيكون لموقعها الجغرافى، وتفوقها البحرى أكبر الأثر فى سقوط نابليون آخر الأمر .

رابعاً : سيحاول نابليون من جهة أخرى حصار انجلترا اقتصاديا وإصدار مراسيم برلين ثم مراسم ميلان ، وكان على الدول الحليفة لنابليون أن تنفذ ذلك ، وقد أضر هذا بمصالح تلك الدول، وكان رد انجلترا على ذلك حصار أوربا . ولم يكن لهذا الحصار تأثير كبير على فرنسا، فكل ما كان له من أثر هو منع فرنسا من الاتجار فيما وراء البحار. ولم تكن لهذه التجارة قيمة كبيرة بالنسبة لها ، إلا أنها أضرت بالدول الأخرى الحليفة لفرنسا .

خامساً : كانت انجلترا شوكة فى جانب فرنسا ، ولكننا نجد أن فرنسا لا تقاسى من انجلترا بقدر ما تقاسى من سياسة انجلترا فى إثارة دول أوربا عليها . ثم هناك عوامل تختص بفرنسا نفسها ، فقيامها بحروب كثيرة أضعفها من الناحية الحربية فكثيرون من شبان فرنسا قتلوا فى هذه المعارك . ثم أن جيوش نابليون لم تعد هذه الجيوش القومية التى عرفتها أوربا بل أصبحت بانضمام عناصر أجنبية كثيرة اليها ، جيوش مرتزقة . ثم نجد قواد نابليون انفسهم أخذوا يحقدون على نابليون أو على بعضهم البعض ، وترتب على هذا انضمام البعض إلى صفوف الاعداء .

سادساً : من هذه الأسباب نهضة الدول الأوربية للتخلص من نابليون . وخير مثل لذلك دولة بروسيا . فبروسيا لم تعد هذه الدولة المنهارة ، فقامت فيها نهضة كبيرة، وحاولت التخلص من كثير من مساوىء الحكم القديمة فبروسيا عندما قابلت نابليون قابلته بجيوش مأجورة من بقايا فردريك الأكبر ، ولم تكن تصلح للقرن الثامن عشر والجيش البروسى من طبقة الفلاحين الأرقاء، لا تدفعة للدفاع عن أرض بروسيا مصلحة قومية ، فالحكومة هى أداة فى يد الملك يديرها كيفما شاء . سنجد أن هذه الاحوال تتغير ، فمن حسن حظ بروسيا أنها وجدت رجالا

أكفاء فى مختلف نواحى الحياة فيعرفون كيف يستعيدون مركزها القديم كدولة كبرى .

فمن الناحية الحربية وجدنا رجالا كبارا على رأسهم قائد يدعى شارنهرست Scharnhorst ونايزناو Gneisenau . ومن رجال الحرب أيضاً الضابط البروسى الكبير كلوزفيتس Clausewitz وهو الذى نظم القواعد الحربية لنابليون وجعلها تتلائم مع دولة بروسيا . فهؤلاء الثلاثة قاموا بتنظيم الجيش البروسى على أسس وطيدة وحاولوا اشعال حماس الجند. والأخير هو مؤسس المدرسة الحربية الحديثة . تقضى على الطبقات فى الجيش،فأصبح الجيش البروسى منذ ذلك الوقت أداة قومية مهمة فى خلق دولة بروسيا الحديثة .

كذلك ستقوم نهضة سياسية واجتماعية على يد مصلحين كبيرين هما البارون شتين Stein والمستشار هاردنبرج Hardenberg فيقضيان على نظام استرقاق الفلاح أو ما يسمى Serfdom . فأصبحت الأرض ملكا للزراع وأزيلت الحواجز الجمركية التى تفصل بين أجزاء بروسيا . ولم تكن الحركة الفكرية بأقل نموا من الحركتين الحربية والاجتماعية، فالعصر كان عصر كانت Kant وفخته Fichte وجوتيه Goethe وشلر Schiller ، فسادت هذا العصر نهضة عقلية وأدبية بجانب النهضة الحربية ، وتكونت جمعيات رياضية مثل رابطة الفضيلة Tugenbund . ولم يكن الاصلاح التعليمى بأقل شأناً من مختلف النواحى الأخرى ، فتأسست جامعة برلين، وكان لها أثر كبير فى النهضة العلمية .

سابعا: هذا من جهة بروسيا، وإذا اتجهنا نحو اسبانيا نجد أن الثورة التى قامت بها ضد الحكم النابليونى كانت عظيمة الأثر، فرأى نابليون بعد «تلست» أن أسبانيا غنيمة له ، نظراً لضعفها من الناحية الملكية والاخلاقية والاقتصادية ، فنجد أن الملك

وبجانبه الملكة وعشيقها والوزير الأكبر ، كل منهم يريد الاستئثار بالسلطة . فالحالة الداخلية كانت أسوأ حالة أخلاقية عرفتها اوربا فظن نابليون أن من السهل الاستيلاء على أسبانيا واغلاق أبواب أوربا كلها أمام البضائع الانجليزية. فتدخل بين الملك وابنه، وأرسل في استدعائهما، وحجزهما طرفه، وأرسل جيشاً لاحتلال اسبانيا وتنصيب أخاه عليها. ولكن الاسبانيين قاموا بحرب عصابات ناجحة وساعدهم الانجليز ،وكان في إمكان نابليون القضاء عليها . ولكن ذلك يحتاج إلى وجوده هو وبقاء قوة قوية فيها، في الوقت الذى كان فيه نابليون يوجه اهتمامه إلى أوربا، لأنها كانت على وشك الثورة ، فيحاول الاجتماع بقيصر الروسيا لتوطيد دعائم الحكم الفرنسى فى أوربا فى نظير مساعدة نابليون له فى تقسيم أملاك الدولة العثمانية. ولكنه رأى أنه لا يستطيع الانتفاع بروسيا. ثم وجد كذلك انقلاب النمسا عليه، فأعداؤه يحاولون الانقضاض عليه، فينتصر عليهم فى «واجرام» (٦ يولية ١٨٠٩) فأضطر النمسا إلى قبول صلح فينا فى ٤ أكتوبر ١٨٠٩ تخلت فيه عن سلزبرج لبافاريا، كما تنازلت عن غاليسيا الشرقية لروسيا وغاليسيا الغربية لدوق وارسو . وكان من نصيب فرنسا تريستا وماحولها من الأراض النمساوية شمال بحر الادرياتى .

ثامنا : ساءت علاقة الروسيا بنابليون نتيجة لاختلاف وجهات النظر، لاسيما على المسألة البولندية . وهذه الحرب كلفت نابليون كثيرا، وظن نابليون أنه يستطيع أن يحتفظ بالنمسا وبروسيا على الحياد ولكنه فشل . فعقدت بروسيا مع الروسيا معاهدة كليش (٢٨ فبراير ١٨١٣) للثأر لنفسها من هزيمة يينا ، فانتصر نابليون عليها فى أول الأمر فى لوتزن Lützen (١٤ مايو ١٨١٣) وبوتزن Bautzen (٢١ مايو ١٨١٣) ، ولكنه طلب الصلح وطلب توسط النمسا فيه ، فاشترطت النمسا أن يتنازل نابليون عن أراضيها أولا، فلما رفض انضمت إلى أعدائه فى ٢٧ يونية ١٨١٣ وانضمت اليهم السويد، فاضطر نابليون إلى التقهقر إلى ماوراء الالب

لأن قواده لم يصبحوا له مخلصين ، ولم ينقادوا له الانقياد التام ، وحدثت موقعة الامم أو موقعة Volkerschlact فى ١٦ أكتوبر ١٨١٣ ، واضطر نابليون إلى التقهقر غربى الراين ، وانهارت قوة فرنسا فى شرقية ، وأنسحبت جيوش فرنسا من أسبانيا تتبعها جيوش ولنجتون . فكان على نابليون الدفاع عن أراضى فرنسا المهددة من ناحية الراين ، ومن ناحية جبال البرنيز ، واضطر نابليون إلى التسليم. ثم يعقب ذلك حرب المئة يوم وتنتهى بتسليم نابليون فى النهاية ، فتتداعى الامبراطورية النابليونية تداعياً تاما . فإنهيار امبراطورية نابليون يرجع لمسائل داخلية وأخرى خارجية .

الفصل الثالث

مؤتمر فينا سنة ١٨١٥

سبقت مفاوضات الصلح نهاية الحرب ، فـفى الوقت الذى بلغت فيه الأعمال العسكرية ذروتها فى الشدة والعنف ، وتسابق الطرفان فى إحراز النصر ، بدأت الدبلوماسية عملها فى قوة لاتقل عن قوة الحرب فى شدتها وضراوتها ، فكانت فى ذلك تستبق الحوادث وتريد أن تحقق بالطرق الدبلوماسية ما عجزت عن تحقيقه القوات العسكرية . ففى نوفمبر ١٨١٣ بدأت النمسا تدخل فى مفاوضات مع فرنسا بشأن الوصول إلى اتفاق بينهما يضع حدا للحروب القائمة ، خصوصا وأن النمسا قد حاولت استغلال هزيمة نابليون فى الروسيا لـكسب أفضـل الشروط لإنهاء الحرب. وكانت شروطها تدورحول انسحاب القوات الفرنسية من جميع الأراضى التى احتلتها فى أوربا فيما عدا بلجيكا والمنطقة المحصورة بين نهرى الراين والألب. ونظرا لأزمة الثقـة المتبادلة بين الطرفين فشلت المفاوضات واستمرت الحرب فى طريقها الطبيعى إلى أن يكتب النصر لأحد الجانبين .

كان نابليون يشعر رغم قوته بأنـه فى حاجة إلى صلح مشرف يختتم به حياته عن طريق المفاوضة ، خصوصا وأن كثرة الحروب التى خاضها قد أفقدته الصفوة المدربة من خيرة جنوده ، وأن مابقى لديه من قوات قد أنهـكتها الحروب المتصلة، وأن فرنسا لم تعد قادرة على تزويد نابليون بكل مايحتاج اليه من رجال وعتاد وأموال . فى نفس الوقت الذى كان فيه خصومه على استعداد لبذل المزيد من التضحيات للقضاء عليه .

وتـكررت محاولة الصلح مرة ثانية أثناء عقد مؤتمر شاتيون ، وكانت قوات نابليون لاتزال قوة لها خطرها ، فاقترح فى ذلك الوقت بأن تتخلى فرنسا عن كل

الاراضى التى ضمتها اليها شرقا وجنوبا وشمالا بما فى ذلك بلجيكا ، وأن تقتصر حدود فرنسا على ما كانت عليه قبل الثورة . وقد فشلت هذه المحاولة أيضا كما فشلت سابقتها من قبل .

شدد الحلفاء هجماتهم على باريس واستطاعوا بعد معارك مريرة - من دخول باريس واسقاط الحكومة الفرنسية ، ولم يجد نابليون بدا من التسليم ، فرغبته فى مواصلة القتال قوبلت بفتور شديد من قواده العسكريين ، واتضح له بأنه لم يصبح الآمر الناهى فى شئون فرنسا ، وأن قواته قد ملت الحرب وآثرت الاخلاد إلى الهدوء والسكينة . أمام تلك الظروف القاسية التى أحاطت به تنازل للحلفاء فى ٦ ابريل ١٨١٤ عن العرش ، طالما كان هذا التنازل ضروريا لسلامة فرنسا وأمنها . ثم رحل منفيا إلى جزيرة البا ليمضى بقية أيام حياته محتفظا بلقب الامبراطور .

بعد سقوط نابليون برزت فى الافق مشاكل متعددة كنتيجة لتلك الحرب الضروس التى اجتاحت أوربا سنوات طوال ، ولكن أبرز تلك المشاكل وأعقدها مشكلة الفراغ الذى تخلف عن انهيار الحكم النابليونى فى فرنسا ، وحار الحلفاء فيمن يخلف نابليون فى الحكم ، فالملكية القديمة قد قضى عليها ، وذهبت مشيعة باللعنات والازدراء . كما أن نابليون قد سيطر أثناء حكمه لفرنسا على أجهزة الحكم والادارة سيطرة تامة ، ولم يكن لاية شخصية فرنسية مهما علا مركزها وجود إلى جانب شخصية نابليون . ولهذا لم يكن من السهل على الحلفاء العثور على شخصية فرنسية تحل محل نابليون وتملأ هذا الفراغ الكبير الذى خلفه بنزوله عن عرش فرنسا .

واجتمع ممثلو الدول المتحالفة للنظر فى أمر العرش الفرنسى ، وكان أكثر

المندوبين نشاطا وقوة اسكندر قيصر الروسيا، وكان يمثـــل بلاده فى الاجتماع ومثل تاليران فرنسا . وكان رأى أعضاء المؤتمر منحصرا فى حل تلك المشكلة عن طريقين : أماتثبيت ابن نابليون الطفل على عرش فرنسا ووضعه تحت الوصاية . أو المناداة بأحد قواد نابليون ملـكا على فرنسا . وظلت المناقشات تدور حـول هذين الحلين فترة من الزمن إلى أن استطاع تاليران من أن يوجـــه مناقشات الاعضاء نحو إعادة أسرة البربون إلى حكم فرنسا تمشيا مع الروح التى سيطرت على المؤتمر والتى كانت تنادى بمبـدأ إرجاع الحقوق الشرعية لأصحابها كأساس لحل المشكلات التى تمخضت عن حروب نابليون . وقد صادف هـذا الرأى هوى فى نفوس الدول الملـكية الاستبدادية مثل الروسيا والنمسا وبروسيا ، إذ أن عودة الملكية إلى حكم فرنسا من جديد إنما يمثل انتصار الملـكيات الاستبدادية على النظم الثورية التى جاءت بها الثورة .

عادت الملـكية إلى حكم فرنسا من جديد على أسنة رماح الحلفـــاء ، ورغم إرادة الشعب الفرنسى ، وجلس لوى الثامن عشر (شقيق لوى السادس عشر) على عرش فرنسا ، كملك دستورى . ولـكن هذا الدستور لم يمنح الشعب الفرنسى كل ما كان يصبو اليه من حقوق ، وظلت الروح الملـكية الاستبدادية المستمدة من حق الملوك الالهى فى حكم تسيطر على الدستور الجديد .

وصل إلى سمع نابليون وهو بمنفاه أنبـاء الخلاف بين خصومه المجتمعين فى فينا حول المسألة السكسونية البولندية ، كما علم أيضا أن الشعب الفرنسى لم يقابل الملـكية الفرنسية العائدة بشىء من الارتياح ، وأنه إذا ما حاول الهرب والعودة إلى فرنسا ، فسيجد الشعب الفرنسى فى استقباله استقبال الغزاة الفاتحين . كل هذه الأمور دفعت نابليون إلى التفكير الجـــدى فى الهرب ، وتم له ذلك ونزل على

شاطىء فرنسا الجنوبى . وما أن علم الشعب الفرنسى بهذا النبأ حتى هب لاستقباله وهرع اليه جنوده القدامى وقواده الذين تخلوا عنه من قبل ، ووجدت الملكية الفرنسية ومن ورائها الاشراف نفسها مضطرة إلى مغادرة فرنسا من جديد ، لأنها لم تكن تعتمد على شيء داخل البلاد ، فلا الشعب يكن لها شيئا من الحب أو التقدير ، ولا الجيش الفرنسى موضع ولائها وأخلاصها .

وما أن علم أعضاء المؤتمر بنبأ قرار نابليون ودخوله أرض فرنسا إلا واضطربوا لذلك اضطرابا شديدا لا لأنهم كانوا يخشون لقاء نابليون أويتوقعون هزيمتهم أمام قواته ، ولكن لأن هذه المغامرة سترغمهم على سفك المزيد من الدماء دون ما حاجة إلى هذا العمل . فمصير نابليون محتوم لأن قواته المترنحة أصبحت لاتقو على مواجهة جيوش أوربا الوطنية ، وأن انتصارات مارنجو وأوسترلتز ويينا لن تعود مرة ثانية ، لجيوش أوربا المرتزقة التى عرفها نابليون فى فتوحاته لم يعد لها وجود ، وأن قوات أوربا قد أصبحت على قدم المساواة مع قواته إن لم تفقها فى العدد والعدة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فنابليون قد عاد إلى فرنسا محاولا استعادة ما كان له من مجد حربى وسلطة مطلقة فى فرنسا ، ولم يكن الشعب الفرنسى مستعدا فى ذلك الوقت لأن يقدم مزيد من التضحيات تفوق ما قدمه من قبل . وهذا بالاضافة إلى أن كره معظم الشعب الفرنسى لطريقة حكم نابليون الاستبدادية جعلته يفكر جليا فى اتخاذ خطوات عملية لاسترضائه والحصول على تأييده . ولهذا - فبالرغم من التبعات العسكرية الجسيمة التى كانت ملقاة على كاهل نابليون فى ذلك الوقت - لم يتوان فى دعوة الأمة الفرنسية للاستفتاء على الدستور الجديد الذى قرر منحه لها ، والذى كان ينص على تشكيل مجلسين تشريعيين ينتخب الشعب أحدهما ، على أن تكون الوزارة مسئولة أمام

مجلسى البرلمان . ولو أن الشعب الفرنسى لم يتحمس لهذا الدستور الجديد إلا أن الأغلبية التى حصل عليها نابليون قد أضفت عليه الصفة الشرعية الدستورية .

بدأ نابليون كعادته بمهاجمة أعدائه قبل أن يكملوا استعدادهم أو قبل أن يحكموا تكتلهم على أقل تقدير ، فهاجم الجيش البروسى والانجليزى وانتصر عليهما انتصارا غير حاسم . وعندما أعيدت الكرة ثانية دارت الدائرة على قوات نابليون فهزم هزيمة ساحقة فى معركة ووترلو فى ١٨ يونيو سنة ١٨١٥ وسقطت بعد ذلك مدينة باريس . وبهذه النهاية تنقضى فترة حكم المائة يوم .

ما من شك فى أن عودة نابليون مرة ثانية إلى حكم فرنسا ودخوله فى حرب مع اعدائها ستؤثر فى التسوية التى ستتم بين الحلفاء وفرنسا . وإذا كان أعداء فرنسا قد عاملوها فى أول الأمر بشىء من التسامح تسهيلا لمهمة الملكية الفرنسية الجديدة وتدعيما لمركزها فى البلاد ، وتمشيا مع ما نادى به الحلفاء فى ذلك الوقت بأنهم كانوا يحاربون نابليون لا فرنسا ، ولهذا يجب ألا يؤخذ الشعب الفرنسى بجريرة نابليون ، وأن تقتصر العقوبات على نابليون وحده دون اشراك الشعب الفرنسى معه . ولكن عودة نابليون وتأييد الشعب الفرنسى له قد هدم هذه النظرية ، ووجد الحلفاء انفسهم مدفوعين بدافع الانتقام إلى اشراك الشعب الفرنسى فى العقوبة ، لأنه ربط مصيره بمصير نابليون . ولهذا فقد فرض على فرنسا دفع تعويض حربى قدره ٧٠٠ مليون فرنك فرنسى ، والزامها بقبول ١٥٠ الف جندى تحت قيادة ولنجتون كقوات احتلال . وكذلك حرمت فرنسا من كل التحف والنفائس التى جمعها نابليون فى حروبه المختلفة مع دول أوروبا .

وفى ذلك الوقت بدأ الحلفاء يفكرون من جديد فى إعادة النظر فيمن يلى حكم فرنسا ، وعاودت فكرة إسناد عرش فرنسا الى نابليون الطفل مع فرض

وصاية عليه ، أذهان سياسة الغرب ، وكذلك فكروا فى وضع أحد أفراد أسرة أورليان (فرع من فروع أسرة البوربون) على العرش أيضا . ولكن الحلفاء وجدوا أن تغيير نظام الحكم فى فرنسا بهذه السرعة ، واسقاط حكم أسرة البوربون الذى لم يمض عليه سوى أسابيع معدودات ، يعرض فرنسا للاضطرابات ، ورأوا من الحكمة الابقاء عليه مرة ثانية .

وقفت الدول المتحالفة من فرنسا موقفا غير موحد ، فبينما كانت انجلترا والروسيا تؤيدان مبدأ احتفاظ فرنسا بحدودها الطبيعية قبل الثورة ، كانت بروسيا ترغب فى حرمانها من مقاطعتى الالزاس ، واللورين وضمها اليها . ولكن نجحت كل من الروسيا وانجلترا فى المحافظة على حدود فرنسا كما هى ، فيما عدا بعض التعديلات البسيطة التى تناولت بعض الأجزاء .

وإذا كان الحلفاء قد اختلفوا بشأن الحدود الفرنسية ، فقد اتفقوا على ضرورة مقاطعة مبادىء الثورة وارجاع النظام الرجعى القديم الى أوربا كما كان قبل قيام الثورة .

كان لابد من وضع تنظيم جديد لأوربا بعد هذه الحرب الطاحنة التى اجتاحت أوربا مدة ربع قرن من الزمان ، فاجتمعوا من قبل فى مؤتمر وستفاليا لنفس الغرض . ولهذا يمكننا أعتبار مؤتمر وستفاليا ومؤتمر فينا خطوات فى تطور القانون الدولى ومبدأ التحكيم الدولى . وإن كان كلا المؤتمرين قد أشار إلى فكرة التحكيم الدولى لفض المنازعات بين الدول بالطرق السلمية ، إلا أنها لم تجد طريقها الى التنفيذ بشكل منظم إلا عند تكوين عصبة الامم عقب الحرب العالمية الأولى .

واجتمع ممثلو الحلفاء فى مؤتمر فينا لإعادة تنظيم أوربا من جديد وقد سيطرت

عليهم نزعات واتجاهات متباينة حاولوا صياغتها فى نصوص تضفى عليها صفة الشرعية، فكان عليهم أولا تحقيق مصالحهم ومطامعهم الخاصـــة ولو على حساب الشعوب الضعيفة ، ومعنى هذا أن الدول الكبرى صاحبـــة المصالح يجب أن تتجاهل الحركات القومية التى ارتفعت لتنادى بحقها فى الحياة الحرة الكريمة كى تحتفظ بما كان تحت يدها من أراض وممتلكات . فادعوا بأن لهم حقوقا يجب الحفاظ عليها وأن مهمتهم من وراء عقد المؤتمر هى إرجاع الحقوق الشرعية لأصحابها .

وإلى جانب هذا المبدأ العام الذى نادى به أعضاء المؤتمر برز مبدأ آخر هو مبدأ التعويض، وهو يقوم على أساس تعويض الدول التى قدمت الكثير من التضحيات فى حروبها مع نابليون على حساب الدول الصغرى . فالدول المتحالفة لم تدخل الحرب ضد نابليون دون قيد أو شرط ، وإنما دخلت بناء على اتفاقات فيما بينها ، وأن هذه الاتفاقات تناولت تحقيق بعض المطامع الاقليمية على حساب الدول الصغرى والشعوب الضعيفة .

هذا بالاضافة إلى تعارض المصالح بين الدول المجتمعة ، ومحاولة كل منها أن تخرج من المؤتمر بنصيب الأسد ، وأن تجعل من اجتماعات ميدانا للمحاورة والمداورة للوصول إلى أهدافها .

على هدى هذه المبادىء والأهداف حاول المؤتمر أن يتلمس طريقه لايجاد نوع من الاستقرار الأوربى الذى افتقرت إليه أوربا ردحاً غير قصير من الزمن فى ضوء معاهدة شومون (٩ مارس ١٨١٤) التى وقعتها الدول الأربع الكبرى وهى انجلترا والروسيا وبروسيا والنمسا، والتى تعهدت فيها بقيام تحالف فيما بينها مدته عشرون عاما ، ويكون الهدف منه أولا توحيد جهودها للقضاء على حكم نابليون ومنعه هو وأسرته من العودة لحكم فرنسا مرة أخرى . وثانياً ضمان

ما تضعه الدول من حـــلول وتسويات للمشكلات الاقليمية لمدة عشرين عاماً .

أما بخصوص الهدف الأول فقد نجح الحلفاء فى إسقاط نابليون وإرغامه على التنازل عن العرش هو وأسرته ، وفى إعادة أسرة البربون مرة ثانية لحكم فرنسا. وترتب على ذلك عودة نفوذ الملكية وأعوانها من جديد ، والقضاء على مكاسب الثورة الفرنسية والرجوع بالحكم إلى حالة تشبه ما كان سائدا بفرنسا قبل قيام الثورة. ولكن بالرغم من ذلك فقد عوملت فرنسا ـ كدولة مهزومة ـ فى معاهدة باريس الأولى (٣٠ مايو ١٨١٥) بشىء من التسامح المشوب بالعطف ، فقد كان فى مقدور الحلفاء أن يحرموها من كل شىء، من ممتلكاتها ومن تجارتها ، ومن أسلحتها ، ولكنهم لم يذهبوا فى معاملتها إلى هذا الحد، بل إعترفوا بحدودها كما كانت عليه فى ١٧٩٢ وليس كما كانت فى ١٧٨٩ .

أما عن ممتلكاتها فيما وراء البحار فقد أخذت انجلترا منها جزيرة مالطة، وكذلك جزيرة موريشيوس (وهى قاعدة بحرية هامة فى الطريق المؤدية إلى الهند) . وتوباجو وسانتا لوتشيا . وكان لأسبانيا نصيب من جزيرة سان دومنجو . ومع ذلك فقد احتفظت فرنسا بـكل مراكزها التجارية فى الهند .

كذلك أوضحت المعاهدة عن عزم الدول الموقعة عليها فى خلق إتحاد ألمانى وإعادة هولندة إلى الوجود، والاعتراف باستقلال سويسرا ، والاعتراف باستقلال الولايات الايطالية الخارجة عن نطاق الممتلكات النمساوية .

وعندما اجتمع الحلفاء فى مؤتمر فينا للاتفاق على تسوية المشكلات الأوربية بعد أن تمت تسوية الأوضاع الخاصة بفرنسا ، بدأت الخلافات تبدوا واضحة جلية ، وأخذت المطامع الاقليميه تأخـــذ شكلا خطيرا هددت المؤتمر بالفشل

وقسمت أعضاءة كتلتين متنازعتين : بالروسيا وبروسيا فى جانب إنجلترا والنمسا فى الجانب الاخر . وفى ذلك الوقت طلبت فرنسا الانضمام الى المؤتمر بعد أن صفت حسابها مع الحلفاء . وكان على هذه الدول أن تفسح لها المجال تثبيتا للحكم الملكى فى فرنسا . وقد وجد ممثل فرنسا فى المؤتمر « تاليران » الفرصة سانحة لاستغلال هـذا الانقسام لمصلحة فرنسا . وكان الخلاف يدور بين الفريقين حول رغبة بروسيا فى ضم كل مقاطعة سكونيا اليها وتؤيدها فى ذلك الروسيا فى مقابل تأييد بروسيا لها فى ضم جزء كبير من بولندا اليها . وقد عارضت النمسا معارضة قوية فى ذلك ورأت فى حصول بروسيا على سكسونيا تهديد خطير لحدودها . كما أن توسع الروسيا على حساب بولندا يشكل خطرا عليها من ناحية ثانية . وقد أيدتها إنجلترا وفرنسا ، وتطور الخلاف بشكل أدى إلى عقد تحالف سرى بين كل من النمسا وانجلترا وفرنسا للوقوف ضد أطماع الدولتين « الروسيا وبروسيا » ولو أدى ذلك إلى استخدام القوة .

وما أن وصل الى علم الدولتين نبأ هذه المحالفة الا وأخذت كل منها تقلل من غلوائها وتتنازل عن بعض مطالبها للالتقاء مع وجهة نظر الآخرين ، خصوصا عندما علمتا بعزم الدول الثلاث انجلترا والنمسا وفرنسا على استخـدام القوة إذا لزم الأمر .

وبينما الدول المتحالفة مشغولة فى ايجاد تسوية لاوربا وإذا بها تفجأ بهرب نابليون وبفرار الملكية وبترحيب الشعب الفرنسى المنقطع النظيرله ، وبوصوله إلى قصر التويلرى فى باريس دون إراقة دماء . ومن باريس أعلن نابليون عن عزمه فى حكم فرنسا حكما دستوريا ، وفى اقامة علاقة سلام ومحبه مع جميع الدول . ولكن هذه المغامرة الفريدة من نوعها لم تعمر أكثر من مائة يوم ، رمى فيها

نابليون بآخر سهم فى جعبته وطاش هذا السهم وهزم فى موقعة وترلو التى وضعت حدا لتاريخ نابليون، بل لتاريخ أوربا لمدة تقرب من ربع قرن من الزمان .

وإذا كان لهذه المغامرة من نتيجة . فلا تعد أن تكون تلك الشروط القاسية التى فرضت على فرنسا بمقتضى معاهدة باريس الثانية التى أضاعت مابذله تاليران من جهود لكسب أفضل الشروط لبلاده . وقد أرغمت هذه المحاولة الحلفاء على إعادة النظر فى كل ما منح لفرنسا من قبل . ففرض عليها اعادة حدودها الى ما كانت عليه فى ١٧٩٠ وحرمانها من بعض المواقع الاستراتيجية الهامة. بل أنها كادت تفقد مقاطعتى الألزاس والورين لولا معارضة انجلترا . لذلك فرض عليها غرامة حربية كبيرة وأرغمت على رد ماسبق أن سلبته من متاحف أوربا من كنوز أثريه ذات قيمة علمية وأثرية كبيرة .

وفى ٩ يونيه ١٨١٥ وقبل حدوث موقعة وترلو بأيام وقعت معاهدة فينا (وهذا يدلنا على مدى وثوق الحلفاء بأنفسهم وتأكدهم أن نابليون انما يحارب محاربة اليائس . وانه لو قدر له الانتصار فى هذه المعركة فلن يغير هذا من النتيجة النهائية للحرب) وهى تتكون من عدة أقسام رئيسية : أولى تلك الأقسام مايتعلق بمبدأ ارجاع الحقوق الشرعية لأصحابها، أى ارجاع حالة الدول الاوربية الى ماكانت عليه قبل قيام الثورة الفرنسية وحروب نابليون . أى بمعنى آخر تحقيق مبدأ التوازن الدولى الذى كان موجودا فى ذلك الوقت . وقد تطلب تحقيق هذا المبدأ أن عوضت بعض الدول عن بعض المناطق التى فقدتها بمناطق أخرى ليظل التوازن الدولى معمولا به . كانت هذه هى القاعدة المرعية اذا ما استثنينا الروسيا التى خرجت بنصيب الأسد نتيجة تشددها، ولما كانت تحتفظ به من جيش كبير العدد بلغ المليون جندى. ولذا إضطرت كل من إنجلترا والنمسا

مرغمتين على منح ولاية وارسو ـ بعد تنازل بروسيا عنها ـ الى الروسيا رغم كبر مساحة هذه الولاية . مما سيتيح للروسيا التفوق فى أوربا، وما يستتبع ذلك من إخلال بالتوازن الدولى فى نظر كل من انجلترا والنمسا .

أما فيما يتعلق بمطالب بروسيا فى ضم اقليم سكسونيا بأكمله اليها فى مقابل تنازلها للروسيا عن بولنده (ولاية وارسو) ، فقـــد عارضت النمسا وانجلترا فى منحها اياها كاملة حتى لا يتضخم حجم بروسيا فيخل ذلك بالتوازن الدولى . فاضطرت بروسيا فى نهـاية الأمر الى قبول ضم نصف سكسونيا ومقاطعة الراين الالمانية وبذلك أصبحت مساحتها أكثر مما كانت عليه فى ١٨٠٥ وهو التاريخ الذى حدد لارجاع حدود كل دولة الى ما كانت عليه وقتئذ .

أما بخصوص الولايات الالمانية التى اجتاحتها قوات نابليون وأقامت فيهـــا نوعا من الوحدة ، فقـــد تمت تسوية أوضاعها السياسية طبقـا لمشيئة الدولتين الالمانيتين الكبيرتين النمسا وبروسيا اللتين كانتا تتنافسان حول زعـــامة هذه الولايات . وقد نجحت النمسا فى الجولة الاولى واستطاعت أن تشكل الولايات الالمانية تبعا لأهوائها، وذلك للحد من سلطة بروسيا،فأقامت النمسا ولاية بافاريا كدولة قوية تعتمد على ولائها فى مقاومة النفوذ البروسى فى الولايات الالمانية .

كذلك تمكنت النمسا من اقامة اتحاد للولايات الالمانيـــا التسعة والثلاثين تحت زعامتها بصفتها الدولة الألمانية الكبرى. ورغم أن تسوية المسألة الالمـانية قد تمت بما لا يتفق ورغبات الولايات الالمـانية ، إلا أنها لم تكن مجحفة بحقوق الألمان ، مثلما حدث فى المسألة الايطالية .

واذا انتقلنا الى الولايات الايطالية التى كانت تشبه فى وضعها السياسى الولايات الالمانية الى حد بعيد، نجد أن نظرة الدول الأوربية اليها وعلى رأسها النمسا قد اختلفت عن

نظرتهم للولايات الالمانية . فقد أهملت المطالب القومية للولايات الايطالية، اهمالا شديدا فيه مساس بكرامة الايطاليين . وتم هذا بفضل سياسة مترنيخ الرجعية الاستبدادية ومؤازرة الدول الأوروبية له. فايطاليا لم تكن في نظر مترنيخ سوى تعبير جغرافي ومنطقة نفوذ لها. ولذا فقد شكل ايطاليا طبقا لاهوائه ووفق ميوله الاستبدادية الرجعية . فقد أعاد مملكة نابولي الى ماكانت عليه من قبل مع وضع أحد أفراد أسرة البربون الفرنسية ملكا عليها . وفي نفس الوقت عقد معه معاهدة سرية تمنعه (ملك نابولي) من منح بلاده حكما دستوريا إلا بعد موافقة النمسا . ولم تكن الاخيرة ترضى بأى حال من الاحوال أن يجد النظام الدستورى طريقه الى ايطاليا حتى لاتنتقل عدواه الى الولايات الايطالية التابعة لحكمها

كذلك استطاعت النمسا استرجاع لومبارديا واحتلال ولاية البندقية، وبذلك تمكنت من استعادة نفوذها في ايطاليا والضغط على الولايات الايطالية الأخرى لاتباع سياسة تتفق مع رغباتها ومصالحها . كذلك استرد البابا ممتلكاته (الولايات البابوية) . كما ضمت بيد مونت اليها مدينة جنوا .

أما القسم الثاني من تسوية فينا فهو الخاص باحاطة فرنسا بدول قوية تمنعها من الاعتداء على غيرها . ولما كانت كل من هولندة وبلجيكا تقع على حدود فرنسا الشمالية ، ولاتستطيع بمفردها أن تقاوم التوسع الفرنسي، فقد رؤى ادماج الدولتين في بعضها لتكون دولة واحدة قوية على حدود فرنسا، رغم كره البلجيكيين الشديد لجيرانهم الهولنديين . ولهذا ولدت هذه الدولة الجديدة ضعيفة ، ولم تحقق الهدف الذى وجدت من أجله ، وسرعان ما انفصم هذا الاتحاد بعد خمسة عشر عاما من قيامه .

كذلك اعترفت الدول الأوربية باستقلال سويسرا وضمان حدودها، واستعادت كل من أسبانيا والبرتغال ما كان لها من حدود قبل الغزو النابليوني . كما كوفئت السويد على انضمامها إلى جانب الحلفاء فى الحرب ضد نابليون بمنحها النرويج التى كانت تابعة للدنمرك .

ومن التسويات الهامة التى تمت بمقتضى هذه المعاهدة وضع تنظيم دولى لاستغلال الأنهار الدولية ، حتى لا يؤدى تضارب المصالح بين بعض الدول حول الاستفادة من هذه الأنهار إلى قيام نزاع دولى قد يؤدى إلى نشوب حرب .

كذلك أعلنت الدول الموقعة على المعاهدة استنكارها التجارة الرقيق بصفتها تجارة غيرة مشروعة ولا تتفق مع أبسط القواعد الانسانية . وكان لهذا الاستنكار صداه فى تحريم ممارسة هذه التجارة فى المستعمرات الخاضعة لحكم كل من أسبانيا وفرنسا والسويد وهولنده .

وإذا ألقينا نظرة على تلك المعاهدة نجد أنه رغم ما وجه اليها من نقد وتجريح فقد استطاعت تلك التسوية أن توجد السلام فى أوربا لفترة استمرت قرابة الاربعين عاما أى إلى نشوب حرب القرم . فلم يكن فى الامكان أحسن مما كان فى مثل الظروف الدولية التى أحاطت بتوقيع تلك المعاهدة ، فإقامة وحدات صناعية غير منبثقة من رغبة الشعوب ، مثل الوحدة بين هولنده وبلجيكا، والوحدة بين السويد والنرويج كان الدافع اليها إقامة دول قوية للاحاطة بفرنسا هو الشغل الشاغل للدول المجتمعة فى المؤتمر دون نظر لرغبات الشعوب، فمسألة الأمن والسلم الأوربى قد حجبت ما عداها من المسائل الأخرى .

وإذا كانت التسوية قد ضحت بمصالح الشعوب الصغيرة إرضاء للدول الكبيرة، فلم يكن هذا العمل يجافى روح العصر الذى سيطرت فيه النزعة الاستبدادية الرجعية

كرد فعل للمبادئ التحررية التي نادت بها الثورة الفرنسية. كما أن التضحية بمصالح الشعوب الصغيرة لا تخص به هذه التسوية دون غيرها من التسويات التي تمت طوال العصور التاريخية الحديثة.

وقد ضمنت معاهدة باريس التي وقعتها الدول الأربع الكبرى وهي انجلترا والروسيا والنمسا وبروسيا المحافظة على ماجاء بمعاهدات شومون وفيناوباريس لمدة عشرين عاما ولو بحد السيف. على أن تجتمع هذه الدول فترات محدودة لبحث الموضوعات ذات الأهمية المشتركة لإيجاد الحلول المرضية لها. وقد اختلفت وجهة نظر كل من انجلترا والنمسا في تفسيرها لهذه المعاهدة. فالنمسا رأت ضرورة اجتماع ممثلى الدول الأربع في مؤتمرات دورية لحماية الحدود الاقليمية التي أشارت اليها اتفاقية فينا لمدة عشرين عاماً، بما في ذلك التدخل المسلح لقمع أية ثورة تنشأ في إحدى الدول الأوربية. بينما ذهبت انجلترا في تفسيرها لهذا البند مذهباً آخر، فهي ترى ضرورة عقد المؤتمرات الدورية لحفظ الحدود الاقليمية دون تدخل من قبلها في الشئون الداخلية لأية دولة، فالثورات طالما كانت لا تهدد السلام الأوربي فهي مسألة داخلية لا يجب على انجلترا أن تزج بنفسها فيها هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فحياة انجلترا الدستورية قامت على ثورة، ومن حق كل شعب أن يثور وأن يطالب بنوع الحكم الذى يرتضيه دون تدخل من قبل دولة أخرى.

ونتيجة لهذا الاختلاف في الرأى وفي النظرة إلى الأمور ازدادت هوة الخلاف بين الدولتين مما أدى إلى فشل هذه المؤتمرات في نهاية الأمر.

وفي ٢٦ سبتمبر ١٨١٥ أعلن التحالف المقدس بين الملوك ووقعه جميع ملوك أوربا فيما عدا الوصى على عرش انجلترا. وهذا التحالف الذى نادى به اسكندر قيصر الروسيا والذى كان يهدف من ورائه إلى ايجاد اتحاد مسيحى من ملوك

أوربا يقوم على تعاليم المسيح فى أن يعامل كل ملك أخاه بالبر والمحبة والسلام .

وقد أثير حول هذا التحالف ضجة مفتعلة وبولغ فى أهميته وخطره . وذهب البعض إلى حد وصفه بأنه اتحاد الملوك المستبدين الطغاة ضد حركات التحرر ، وبأنه عائق فى طريق الحرية . ولم يكن لهذا التحالف فى حقيقة الأمر من أثر يذكر على سير الأمور فى أوربا . فالنمسا لم تكن مؤمنة به ودائمة السخرية منه ، وكذلك انجلترا لم تعترف بوجوده ، فلم يكن له نصير سوى الاسكندر وحده . هذا بالاضافة إلى أن هذا التحالف قام على أسس ومبادىء إنسانية عامة هى أقرب إلى الوعظ والارشاد منها إلى المبادىء السياسية .

وإن كانت الدول الأربع المتحالفة قد اختلفت فى تفسيرها لبعض النقاط إلا أنها قد اتفقت جميعاً فى نظرتها إلى فرنسا ، فقد اتحدت كلمتهم فى ضرورة وفاء فرنسا بما عليها من التزامات طبقاً للمعاهدات . وعندما اجتمعوا فى اكس لاشابل ١٨١٨ استقر رأيهم على ضرورة سحب قوات الاحتلال من فرنسا بعد أن أثبتت حسن نيتها ، وبعد أن أدت ما عليها من ديون ، وطالبوا بانضمامها اليهم فتكون الحلف الخماسى ، دون أن يتعارض وجوده مع وجود الحلف الرباعى الأصلى ، وظل كل منها يمارس نشاطه فى وقت واحد .

وفى عام ١٨٢٠ قامت ثورة عسكرية فى أسبانيا ضد ملكها المستبد مطالبة بعودة دستور ١٨١٢ ، ونجحت الثورة فى إرغام الملك على الاستجابة إلى مطالبها ، فكان نجاحها ضربة قوية وجهت إلى اتحاد الملوك المستبدين . وكان أكثر هؤلاء الملوك خوفاً من نتائج تلك الثورة الاسكندر قيصر الروسيا الذى خشى من انتقال عدوى الثورة إلى بلاده ، حيث تعيش فى ظروف مماثلة لأسبانيا . فهب للمطالبة بعقد

مؤتمر من سائر ملوك أوربا لاستنكار قيام دستور ١٨١٢ والمطالبة بإلغائه ولو بقوة السلاح إذا لزم الأمر .

كانت وجهة النظر هذه لا تتفق مع سياسة انجلترا التى أوضحناها من قبل ، ولذا فقد أعلن كاسلريه وزير خارجية انجلترا فى مايو ١٨٢٠ بأن الثورة الاسبانية ثورة داخلية تهم أسبانيا وحدها ، ولا تمثل خطرا عـــلى أمن أوربا وسلامتها . ومن هنا فلا مبرر مطلقاً لاستخدام القوة لإخمادها ، وأن انجلترا من جانبها لن تؤيد هذا الإجراء بأى حال من الأحوال. وأوضحت انجلترا بأن إستخدام القوة قد التزمت به الدول الأربع الكبرى بما فيها انجلترا فى حالة واحدة فقط وهى عودة نابليون أو أحد أفراد أسرته لحكم فرنسا من جديد .

ولم تلبث ثورة أسبانيا أن وجدت صـــداها فى إيطاليا فثار شعب نابولى وبيدمونت مطالباً بنفس الدستور . وكذلك وجدت الثورة الاسبانية استجابة لدى شعب البرتغال الذى طالب بنفس المطالب أيضاً ، وإذا كانت النمسا قد وقفت موقف التردد بعض الشىء بالنسبة لثورة أسبانيا ، فان هذا التردد قد زال بقيام الثورة فى إيطاليا ، وأصبحت مصالحها مهددة فى الولايات الايطالية تهديدا خطيرا . ولهذا وافقت على عقد مؤتمر لبحث الثورة ، وأصبح كاسلريه فى موقف حرج بعد اتفاق وجهتى نظر النمسا والروسيا فى عقد المؤتمر . وكان عليه أن يسلك أحد طريقين إما تجاهل المؤتمر وعدم حضوره والتمسك بما أعلنه من آراء ، أو حضور المؤتمر إبقاءاً على كيان التحالف الرباعى وخشية تصدعه وإلقاء تبعة هذا التصدع على عاتق انجلترا . ولذا فقد أرسل كاسلريه من قبله مندوبا لحضور مؤتمر تروباو الذى عقد فى أواخر عام ١٨٢٠ ، ونجح الاسكندر قيصر الروسيا فى اقناع مندوبى النمسا وبروسيا بضرورة التدخل العسكرى لقمع الثورات أينما

كانت ، وإعلان الدول الثلاث عدم اعترافهم بشرعية أو بحق أى شعب فى المطالبة بتحديد سلطة الملك . وبمقتضى تلك القرارات استطاعت النمسا أن ترسل بقواتها إلى ايطاليا، وأن تخمد الثورة فى كل من نابولى وبيدمونت، وأن تلغى الدستور وأن تعيد ملكيتها من جديد .

وأمام هذا الاجراء العنيف أعلنت الحكومة الانجليزية استنكارها لما حدث وعدم اعترافها به ، وتنصلها من تبعاته ، وتمسكها بما سبق أن أعلنته من قبل .

وفى سنة ١٨٢١ قام اليونانيون بالثورة ضد الحكم العثمانى ، وطالبوا باستقلالهم عن الدولة العثمانية ، وقد نظر مترنيخ إلى هذه الثورة على أنها تهديد للحكم الملكى أيا كان نوعه بصرف النظر عما إذا كان الملك فى هذه الحالة السلطان العثمانى المسلم . فليس هناك فارق بين الملك المسلم والملك المسيحى ، فالثورات تهدد كليهما على السواء . وكان من رأيه أن يقوم بعمل من شأنه تأييد موقف السلطان العثمانى ليحول بذلك دون تدخل الروسيا ضد الدولة العثمانية لنصرة اليونانيين ، فاتفق مع كاسلريه على دعوة مؤتمر للنظر فى هذه المشكلة فى خريف عام ١٨٢٢ .

وقبل موعد عقد المؤتمر ازداد خطر الثورة فى اسبانيا ، وفى نفس الوقت انتحر كاسلريه وخلفه فى منصبه كاننج الذى كان يختلف عن سلفه فى عدم ايمانه بالمؤتمرات وبجدوى حضور هذه المؤتمرات . فاذا كان كاسلريه يرى الاشتراك فى عقد المؤتمرات إبقاء على التضامن الرباعى بين الدول دون التورط فى قبول قرارات هذه المؤتمرات التى لا تتفق مع وجهة نظر انجلترا ، نجد كاننج لا يؤمن بالمؤتمرات ويعمل على مقاطعتها ، والقضاء عليها فى نهاية الأمر .

وعندما انعقد مؤتمر فيرونا لنظر المشكلة الاسبانية أعلنت انجلترا بأنها

لا تقبل مبدأ التدخل بالقوة بأى حال من الأحوال وتحت أى الظروف . وأمام هذا الاصرار فشل أعضاء المؤتمر فى أن يتدخلوا ككل لاخماد الثورة الأسبانية . ولكن فرنسا تدخلت بمفردها وعلى مسئوليتها الخاصة لقمع الثورة . وقد أخذت انجلترا حيدتها عن هذا التدخل المنفرد . ونجحت فرنسا فى القضاء على الثورة وفى إعادة ملك اسبانيا إلى عرشه مرة أخرى .

ولم يقاطع كاننج هذا المؤتمر فحسب ، بل قاطع كل المؤتمرات التى عقدت بعد ذلك مثل مؤتمر ديسمبر ١٨٢٣ الذى عقده ملك اسبانيا النظر فى أمر المستعمرات الأسبانية فى العالم الجديد . وكذلك المؤتمر الذى عقده فى ١٨٢٤ لنظر المسألة اليونانية التركية . وقد أدى عدم اشتراك انجلترا فيها إلى فشلها .

وإذا كانت المؤتمرات قد فشلت فى أداء مهمتها فى إقامة الحكومة الدولية ، فذلك يرجع إلى تمادى بعض الدول فى توسيع اختصاصات تلك المؤتمرات ، وعلى رأس تلك الدول الروسيا والنمسا وبروسيا . وقد برر كاننج عدم اشتراكه فى المؤتمرات بأسباب ثلاثة :

السبب الأول : هو أن الشعب الانجليزى الذى بنى حياته الدستورية على أساس الثورة لاينظر بعين الارتياح إلى جلوس المندوب الانجليزى إلى جانب مندوبى الدول الاستبدادية لعقد الاتفاقات السرية . وإذا كانت انجلترا ستتمسك برأيها وبوجهة نظرها فيما يعرض عليها من مشاكل ، فان بريطانيا لايمثلها إلا صوت واحد . فهى فى هذه الحالة لن تستطيع التغلب على أصوات الدول الاستبدادية العديدة .

ثانيا : أن نظام المؤتمرات على النحو الذى سارفيه ، قد فرض القوة كوسيلة

مشروعه للقضاء على الثورات الداخلية ، والتى تعتبر من الشئون الداخلية لكل دولة ولايجوز التدخل فيه . وأن مبدأ التدخل هذا لاتقره الحكومة الانجليزية ويأباه الشعب الانجليزى .

ثالثا : أن هذه المؤتمرات لاتمثل إلا الدول الكبرى فحسب ، ومن الضرورى أن تشمل المؤتمرات الدول الكبرى والصغرى على حد سواء . فاهمال تمثيل الدول الصغرى فيه يجعل مصالحها عرضة للضياع ولتسلط الدول الكبرى عليها .

موقف انجلترا ازاء فرنسا ودول أوربا بعد تسوية فينا

على أى حال إذا كانت انجلترا قد هدمت قوة نابليون ، فلم تحاول بعد ذلك الانتقام من فرنسا . بل عاملتها معاملة انسانية ، وأصبحت العداوة التقليدية بعد ذلك ليس لها وجود . فحروب نابليون تعتبر آخر حروب بين فرنسا وانجلترا نتيجة لروح التسامح التى أبدتها انجلترا فى مؤتمر فينا وبعد مؤتمر فينا ، فحمت فرنسا من انتقام الدول الأوربية مثل بروسيا والنمسا . ففرنسا بعد استتباب الأمن أصبحت عضوا فى التحالف السلمى الأوربى .

وكان يدير سياسة أوربا فى ذلك الوقت الوزير الانجليزى كاسلريه Castlereagh وزير الخارجية وهو شخصية قوية وله مركز قوى فى الوزارة الانجليزية وله اتصالات بملوك أوربا وساستها . واتبع فى سياسته الخطوات التى رسمها بت Pitt ، فأخذ يحقق ما ترمى اليه انجلترا من أغراض سياسية . ثم صلته بولنجتون أكبر شخصية فى أوربا بعد سقوط نابليون ، وكذلك صلته برئيس الوزارة . ولذلك لم يستطع أحد فى الوزارة معارضة هذه السياسة ، بل إن كاسلريه اعتمد على صلاته الشخصية بملوك أوربا ، لاسيما أن معاهدة التحالف

طالبت الدول المتحالفة بعقد اجتماعات دورية يمثل الدول فيها ملوكها أو وزراؤها للمناقشة فى المصالح المشتركة والسلام فى أوربا .

ولقد وجدنا أن مؤتمر فينا ميز بين الدول الكبرى والصغرى بدرجة كانت مؤلمة لكرامة الدول الصغرى . ولم تهتم الدول الكبرى بفكرة القومية ، وكانت تختلف عنهم انجلترا فى هذا الموضوع ، فإذا وجدت انجلترا أن المبادىء الثورية أصبح لها الصفة الدستورية ، ولم يكن لها صفة عقوبية (ارهابية) أو حربية ، فأنها لاتعارضها . كما كانت انجلترا ترى فى الدول الصغيرة ضعفا وفوضى بعرضانها للانقلابات الثورية ، ولذلك فهى لاتعطف عليها كثيرا . وكذلك انجلترا لم تكن ترمى إلى مساعدة الدول الكبرى والملوك المستبدين ضد هذه الحركات الثورية ، ولذا لم توافق على التدخل المطلق فى شئون الدول الصغيرة . فكاسلريه لم يتدخل فى صالح الدول الصغرى ، وكذلك لم يؤيد الملوك الأتوقراطيين كما حدث فى موقف انجلترا إزاء الاسكندر قيصر الروسيا فى التحالف المقدس ، فلم يكن موقفها هذا مشجعا للقيصر . ولكن رغم ذلك اشتركت فى التحالف مجاملة له ولو أنها لم توقعه لوجود وصى على العرش .

اشتركت انجلترا اذن فى المؤتمرات التى عقدت فى ذلك الوقت ، وأعطت ولنجتون حق الاشراف على جيوش الاحتلال بفرنسا . ورأى ولنجتون أن تسحب انجلترا الجيوش المحتلة من فرنسا لأن هذه الجيوش تسبب ذكرى أليمة للأسرة البربونية (١٨١٥ ، ١٨٣٠) وتوافق دول أوربا على النظر فى الموضوع المقترح .

وإذا نظرنا الى مدى تطبيق مبدأى السياسة الانجليزية بعد سقوط نابليون ، نجد

أن كاسلريه سار طبها ، فاشترك مع الدول الأوربية لاسقاط نابليون ، ثم تحالف مع الدول الأخرى لعدم الاخلال بالأمن ، والوقوف أمام فرنسا ، ولكن انجلترا فى نفس الوقت عاملت فرنسا معاملة حسنة وساعدت أسرة البربون فى الوصول إلى الحكم للعمل على إقرار الأوضاع فى فرنسا ، ثم أحاطت فرنسا بدول قوية ، فضمت هولندا إلى ممالك الأراضى المنخفضة . كما قوت بيدمونت ثم تحالفت مع الدول ضد فرنسا إلى حين ، ولما اطمأنت إلى حالة فرنسا الداخلية طلبت من الدول سحب قواتها من فرنسا ، وكذلك منعت الدول الأخرى من اقتطاع أجزاء منها ، فقد كانت بروسيا تريد ضم الألزاس واللورين فرفضت هذا الطلب ، لأن هذا الضم يجعل من بروسيا دولة قوية تهدد السلام الأوربى . كذلك وقفت انجلترا موقفا حاسما تجاه الروسيا ، إذ شجعت الروسيا دولة بروسيا فى مطالبها بخصوص الألزاس واللورين ، وذلك كى تتمكن الروسيا من التفرغ لبولندا . ولكن انجلترا استطاعت اقناع الدولتين بالعدول عن هذا الطلب . فشخصية كاسلريه اذن كانت شخصية قوية فرضت سلطانها على غيرها ، وذلك بالإضافة إلى صلته بولنجتون وبملوك ووزراء أوربا .

موقف انجلترا بالنسبة للثورات التى تنشأ فى أوربا

كان كاسلريه (١٨١٢ - ١٨٢٢) من المحافظين يكره الثورات ، ولكن انجلترا فى نفس الوقت لاتستطيع أن توافق مع الدول الأوربية على التدخل فى كل ثورة أوربية ، لأن انجلترا تقوم حياتها الحديثة على ثورة ١٦٨٨ فلا تريد حرمان الشعوب مما تتمتع به . هذا بالإضافة إلى مشاغل انجلترا العديدة ، وعدم تفرغها لهذه الثورات . ومن جهة ثالثة فاذا تمخضت هذه الثورات عن دساتير مختلفة فلابد من الاعتراف بها . وفى نفس الوقت لاتستطيع تأييد الملوك المستبدين . فبعد

مؤتمر فينا تشترك انجلترا مع الدول الثلاث الكبرى للعمل على صيانة السلام ، كما أنها كانت صاحبة الاقتراح الخاص بسحب جيوش الاحتلال من فرنسا . أى أن فرنسا لم تعد خطرا على السلام الاوربى ، بل يجب أن تشترك فى المؤتمرات التى تدعوا للسلام . وكذلك تقترح انجلترا اشتراك فرنسا فى المناقشات العامة . وكان الرأى العام الانجليزى يخشى من اشتراك انجلترا فى هذه المؤتمرات حتى لايؤدى هذا إلى أن تتعاون انجلترا مع الدول المستبدة ضد رعاياها ، لأن نجاح هذه الثورات أو فشلها لايمس مصالح انجلترا فى شيء .

ثم إن تدخل انجلترا فى شئون الدول الصغيرة ، قد لاتجنى منه انجلترا سوى كره هذه الدول التى ترفض أن تقوم الدول الكبيرة بحل مشاكلها ؛ فلذلك ترفض انجلترا اقتراح الاسكندر قيصر الروسيا الذى يرمى إلى تكوين عصبة عامة تضمن عروش الملوك وأراضيهم ، فيرفض كاسلريه هذه الفكرة لأنها فكرة غير عملية وذلك لأن الارستقراطية الانجليزية كانت لاترضى أن يسيطر الملوك المستبدون على محكوميهم .

ثم من ناحية ثانية أن انجلترا غير مستعدة فى كل وقت لقمع الثورات ، وكانت تعتبر أن الملوك المستبدين ملوك ضعاف لايجب مساعدتهم ضد الأهالى . فلايمكن لانجلترا أن تضمن ولايات البابا مثلا . كما نجدها لاتتدخل فى الثورة الاسبانية التى قامت ضد مليكها فرديناند السابع ، وذلك لأن انجلترا لا ترى فى هذه الثورة مايسبب حربا عالمية ، هذا بالاضافة إلى أن انجلترا لوقامت بمساعدتها فربما أدى انتصار الثوار إلى تغيير سياستهم مع انجلترا . هذا فضلا عن أن الشعب الانجليزى كان ضد فرديناند . فينسحب كاسلريه من التحالف الدولى وقد شجع هذا الانسحاب ثورة البرتغال ثم ثورة نابولى ضد النمسا . وكان كاسلريه نفسه

يرى أن تقوم النمسا باخضاع هذه الثورة بدون تأييد انجلترا لافعليا ولارسميا . فقيام هذه الثورة جعل الاسكندر قيصر الروسيا يرى فيها فرصة لاجتماع الملوك ، ووجد كاسلريه نفسه محتاجا أمام الرأى العام الانجليزى أن يصرح بأن الثورات فى اسبانيا ونابولى ماهى إلاثورات محلية . مع أنه فى قرارة نفسه كان يود القضاء عليها . وفى نفس الوقت لم يقف فى وجه المؤتمرات ، بل كان يرسل مندوبا عنه ليعلن أنه لايقبل مبدأ التدخل العام فى أحوال الدولة لأنه يحدمن النشاط القومى وضد التحالف الدولى العام ، فلا تريد انجلترا أن تكون كالبوليس فى أوربا . ورأت أن سياستها لاتتفق مع سياسة الدولة الأوربية ، إلا أن كاسلريه ظل محافظا على علاقاته بها . فعقد مؤتمر ليباخ (٢٠ - ١٨٢١) وكانت الدول تعرف أن كاسلريه يعطف على القضاء على الثورة .

ثم يعقد مؤتمر فيرونا ١٨٢٢ للبحث فى الثورة الاسبانية التى اندلعت فى عام ١٨٢٠ إلاأن كاسلريه ينتحرقبل انعقاد المؤتمر ، فيحل محله كاننج Ganning وكانت شخصيته قوية إلاأنه لم يكن له اتصالاتشخصية معساسة أوربا ، فيفضل سياسة الاعتزال ، فيشك فى المؤتمرات ، ويرى عـــدم تدخل الدول فى شئون الدولالأخرى ، ويهتم بمصالحانجلترا الاقتصادية،وبالأخصموضوعالمستعمرات الاسبانية فهو يخشى تدخل الجيوش الانجليزية فى اسبانيـا حتى لاتستغل فرنسا هذا العمل فى احتلال بعض الأراضى الاسبانية ، ولكنه يغض النظرعن فرنسا عندما قامت باحتلال جزء من اسبانيا لإخضاع الثورات بهـا ، إلا أنه لم يسمح لفرنسا أن تخمد الثورات فى مستعمرات اسبانيا . فرأى كاننج أن ينصح اسبانيا بتعديل دستورها على شرط ألا يكون ضد مصالح الانجليز ، ولم يجد كاننج تأييدا من الملكية ، إلا أنه يعلن أن انجلترا لاتوافق على تدخلالدول فى شئون

المستعمرات الاسبانية، وذلك لزيادة الصلة التجارية بينها وبين انجلترا أيام حروب نابليون . وكان كاننج يريد إحراج الأحزاب فى اسبانيا باعتراف انجلترا باستقلال المستعمرات ، ولكنه لم يترك مجالا للشك فى أنه لن يساعد ملك اسبانيا المستبد على استرجاع هذه المستعمرات .

وفى ١٨٢٣ يعلن منرو مبدأه الذى يسمى باسمه، وهو ينص على أن أى تدخل فى شئون الولايات الامريكية أو الاعتداء عليها يعتبر عملا عدائيا ضد الولايات الامريكية ، ولولا قوة الأسطول الانجليزى لما أعلنت أمريكا هذا المبدأ . فانجلترا كانت تحبذ هذه الخطوة من جانب الولايات المتحدة ، وكانت على استعداد لأن تحارب كل دولة تعمل على نقضه .

كان إعلان مبـــدأ منرو فاصلا فى أمر أمريكا الجنوبية ، وقد أعلن كاننج استقلالها كى تتفق مع اسبانيا وتعلن النظام الملكى إلا أن أحلامه ذهبت سدى ، فلم تتفق مع اسبانيا وتعلن النظام الملكى ، بل أعلنت النظام الجمهورى . وفى ١٨٢٥ اعترفت انجلترا باستقلال هذه الولايات .

وفى مسألة الثورة الاغريقية كانت انجلترا تهتم بعلاقاتها الودية مع الروسيا ، ولكن ازدياد مصالح انجلترا فى الهند وتقدم النفوذ الروسى فى الولايات البلقانية جعلت انجلترا تخشى الروسيـــا . وفى نفس الوقت فالثورة الاغريقية ثورة مسلحة ، وقد عمل الباب العـالى على إخمادها وساعده فى ذلك محمد على . وكانت بعض الدول الأوروبية تنادى بحماية الحق الشرعى لأصحابه . ومن هـــذه الدول النمسا ، فالنمسا لم تكن تفرق بين الملك المسلم والملك المسيحى ، فهى تقف إلى جانب السلطان العثمانى ضد رعاياه اليونانيين المسيحيين لأنه صاحب الحق الشرعى فى بلاد اليونان .

أما الروسيا فكانت تعطف على الشعب الاغريقى لما فى ذلك من إضعاف لتركيا، ولذلك تدخل إلى جانب الثوار فتقوم الثورات فى المناطق اليونانية القريبة من الحدود الروسية . أما انجلترا فكانت تخشى أن تدخل الروسيا وحدها فيكون لها النفوذ فى الدول الجديدة التى ستنفصل عن الدولة العثمانية ، ولذلك تتدخل ويعترف كاسلريه بالثوار الاغريق كمحاربين فى مارس ١٨٢٢ ، فيرى الآن التدخل إلى جانب الثوار اليونانيين لأن الرأى العام الانجليزى يعطف على الإغريق .

وجاء بعده كاننج Canning (١٨٢٢ - ١٨٢٧) وكان يؤثر سياسة العزلة وعدم التدخل فى مشاكل القارة الأوربية ، إلا أن الشعب الانجليزى يدفعه إلى التدخل لمساعدة اليونانيين . وترجع مساعدة الانجليز اليونانيين أولا إلى فكرة مساعدة مسيحيين ضد ملك مسلم . فالدولة العثمانية ليست دولة أوربية . وفى نفس الوقت تسيطر على أجزاء أوربية وأسيوية وأفريقية ، وتهيمن على إحدى الممالك الخطيرة فى العالم ، وهى فى الوقت ذاته دولة اسلامية ، ولهذا نجد أن الدول الأوربية كانت تنظر اليها نظرة خاصة . ومن الطبيعى أن انجلترا التى لم تكن تعطف على الدولة العثمانية تجد نفسها مضطرة إلى أن تقف إلى جانبها حماية لهـــا من أطماع الروسيا . فتتأثر انجلترا بسياسة الروسيا إزاء تركيا . فالروسيا تحاول جاهدة الاستيلاء على المضايق ، ولكن انجلترا لا توافق على ذلك مطلقا، لأن الدولة العثمانية فى وجودها فى هذه الجهات ليست خطرا على مصالحها ، بل يمكنها أن تستغل ضعف السلطان لزيادة نفوذها . أما إذا حل القيصر الروسى القوى محل السلطان العثمانى الضعيف فستتعرض المصالح الانجليزية فى الشرق لأعظم الأخطار . وإذا كانت انجلترا تعمـــل على المحافظة على أملاك الدولة العثمانية فكيف تساعد الثوار على النضال ؟

الجواب على هـذا السؤال هو أن تدخل الروسيا فى البلقان حتم على انجلترا التدخل حتى لا تنفرد الروسيا فى هذا الميدان فتعرض مصالحها فى الشرق للخطر .

وسياسة فرنسا لاتختلف عن سياسة انجلترا وهى المحافظة على بقاء الدولة العثمانية ، فهى لا تستطيع أن تطمئن الى سيطرة الروس على تلك المنطقة لوجود مصالح لها ثقافية واقتصادية ، فهى تريد أن يكون لها المركز السامى فى شرق البحر المتوسط . ثم هناك العامل الثانى المهم الذى دعا إلى التعاون بين انجلترا وفرنسا ألا وهو نابليون الثالث ، الذى وجد من مصلحته ومصلحة عائلته مصادقة بريطانيا ، لأن العداء بين انجلترا وفرنسا ذهب بالعرش النابليونى .

ومن الناحية الاقتصادية نجد أن فرنسا سوقا جيـدة للبضائع الانجليزية . وكذلك فرنسا كانت محتاجة لهذا التعاون الاقتصادى مع انجلترا . ثم بعـد ذلك مصالح العائلتين الحاكمتين فى كل من فرنسا وانجلترا كانت تقتضى التعـــاون ، بالرغم من أن الملكة فيكتوريا كانت تشك فى هذه الأسرة فى أول الأمر ، إلا أنه بعد مضى فترة قصيرة توطدت أسس الصداقة بينهما .

ثم أن هناك وجهة نظر مشتركة حيال الدولة العثمانية وهى المحافظة عليهـــا ومنع الروسيا من السيطرة على شرق البحر المتوسط .

ومن الناحيـــة الأخرى كانت كل من الدولتين الغربيتين تشكان فى الدولة الروسية ، فكان قيصر الروسيا نيقولا مكروها منهما لميوله الاستبدادية . هـــذا بالاضافة إلى أن الروسيا كانت من أكبر أعداء نابليون الاول ، فلابد أن ينظر اليها نابليون الثالث بكراهية . كذلك نجد أن نابليون الثالث كان يسعى إلى تغيير نصوص معاهدة فينا التى تضر بمصالح فرنسا ، ولكن قيصر الروسيا كان يصر على التمسك بها تمسكا حرفيا ، فإذا أرادت فرنسا تغيير تلك المعاهدة فكان عليهـا

أن تصطدم بالروسيا . هذا بالاضافة إلى العداء بين نيقولا قيصر الروسيا وبين نابليون الثالث نتيجة لأن القيصر الروسى لم يخاطب نابليون الثالث بعد توليه عرش فرنسا بلقب أخ. وكان ذلك شائعا بين ملوك فرنسا ، وكان هذا جارحا لكرامة نابليون الثالث . أى أن القيصر الروسى لايعترف بالعائلة النابليونية كعائلة حاكمة .

اذن كان يهم نابليون الثالث التعاون مع انجلترا وخصوصا ضد الدولة الروسية لكى تعود لفرنسا كرامتها ، ولكى يستطيع تغيير نصوص معاهدة فينا .

ثم بعد ذلك مصالح فرنسا التقليدية فى الشرق ، من مصالح سياسية وتاريخية وثقافية. فنجد أن فرنسا كانت أولى الدول التى حصلت من تركيا على امتيازات فى سنة ١٥٣٥ تخول لها حق حماية الرعايا الكاثوليك فى الدولة العثمانية أى أن فرنسا كانت من الناحية الدينية حامية الديانة الكاثوليكية فى الشرق الأدنى .

والروسيا عندما وجدت أنه ليس من السهل عليها القضاء على تركيا ، حاولت أن تأخذ امتيازات منها وأن تفرض حمايتها عليها . وعرفنا أن الدولة الروسية حاولت أن تفرض شبه حماية على الدولة العثمانية فى معاهدة « هنكيار اسكله سى » فى ١٨٣٣. ولكن تدخل الدول الأوربية لم يجعل لهذه المعاهدة أية قيمة ، فلجأ القيصر نيقولا إلى حل آخر ألا وهو تقسيم أملاك الدولة العثمانية ، وعرض هذه الفكرة على انجلترا ، فلم توافق عليها.

الفصل الرابع

الحركات القومية فى أوربا وثورات ١٨٤٨

١٨١٥ - ١٨٤٨

دخلت الثورة الفرنسية فى حروب مع الدول الكبرى لأن الثورة لم تختص بفرنسا وحدها ، وأقام نابليون سيطرة فرنسية فى أوربا ، وتكاتفت الدول على إسقاطه ، وحدثت موقعة الأمم ، ثم قررت عقد مؤتمر فى فينا وأرسلت كل الدول مندوبين يمثلونها فى المؤتمر ، وكانت المسائل العامة تناقش عند اجتماع الساسة . ونجـــد فى ذلك المؤتمر أن الدول الكبرى تفرض إرادتها على الدول الصغرى ، فترجع ايطاليا وبلجيكا وغربى الراين إلى ما كانت عليه ، وتحتفظ انجلترا بمستعمرتها وتأخذ النمسا ايطاليا ، وتضم بلجيكا الى هولندا ، ووضعت على رأس مملكة الأراضى المنخفضة عائلة أورانج، وعاد الى الولايات البابوية ونابولى، وبيدمونت استقلالها. وفى شمال ايطاليا تخضع البندقية وميلان للنمسا . وكانت روسيا تنوى الاحتفاظ بدوقية وارسو كلها ، ولكن بولونيا سيعاد تقسيمها ، فتأخذ بروسيا الاقاليم التى كانت تحكمها، وتأخذ الروسيا معظمها، والجزء الجنوبى تستولى عليه النمسا ، وتضم بروسيا جانبا من سكسونيا .

أما فيما يختص بفرنسا وخاصة بعد واترلو يعقد الحلفاء جلسات سرية لإيجاد الضمانات الكافية ضد فرنسا حتى لاتعود مرة ثانية الى التوسع على حساب جيرانها ، فتحتل أراضيها وتفرض عليها غرامة حربية . وخشيت النمسا وبروسيا من فرنسا

فطاليتا بضم الراين واللورين اليها. وتقترح الروسيا ضم سافوى الى ملك سردينيا. كما اتفق الحلفاء فيما بينهم على الاجراءات التى يقومون بها فى حالة قيــام فرنسا بثورة جديدة . اذن قام صلح فينا على أساس التوازن الدولى ومبدأ التعويض . فرجعت فرنسا الى ما كانت عليه ، الا أن انجلترا احتفظت بمالطة وغيرها ، وكذلك فعلت الروسيا ببسارابيا ، وأخذت النمسا تعويضا ماليا بدلا من الأراضى المنخفضة ، كما أخذ ملك هولندا بلجيكا ، وملك سردينيا سافوى . كل ذلك كان على حساب الدول الضعيفة . ولذا لم يكن عمل مؤتمر فينا إرجاع الحالة الى ما كانت عليه ، بل عمل على إرجاع الحقوق الى أصحابها ، ولم يهتم برغبات الشعوب. وكان المندوبون لا يمثلون الشعوب بل يمثلون الحكومات . واستمر هذا النظام الاستبدادى سائدا فى أوربا ما يقرب من الاربعين عاما ، فيما عدا انجلترا وسويسرا. ولكن الثورة وحروب نابليون لم تذهب سدى، فكانت هناك رغبة من قبل الشعوب فى إقامة نظم ديمقراطية حرة ، فتكونت أحزاب الأحرار فى دول أوربا، وأخذت تعارض النظم الاستبدادية فيها ، وكان على شعوب تلك الدول أن تقوم بثورات ضد الدول الحاكمة ، وكان على هذه الأخيرة مقاومة تلك الحركات بكل قوة ، وتمثلت قوة الاستبداد فى أوربا فى ذلك الوقت فى شخصية مترنيخ الذى سيطر على السياسة الاوربية . ولكن بالرغم من ذلك نجد أن الأحرار يقاومون، ونجد أن مبدأ الحرية ـ ولو أنه انهزم فى كثير من الظروف ـ إلا أن الدول أخــذت بمبادىء الأحرار .

كان نتيجة لمؤتمر فينا أن رجعت أسرة البربون الى فرنسا ، وكان هناك تفكير فى أن يكون أحد أفراد عائلة الاورليان ملكا على فرنسا ، ولكن الدول ـ رغبة منها فى ارجاع الحقوق الشرعية لأصحابها ـ أرجعت أسرة البربون ، ولكنها لم

ترجع ملكية استبدادية بل ملكية دستورية، فأرغمت أسرة البربون على اتباع سياسة دستورية تمشيا مع الظروف ولضغط أحــرار انجلترا والروسيا ، لأن الدول الأوربية خشيت من قيام ثورة جديدة إذا ما حاولت أسرة البربون السير على السياسة الاستبدادية القديمة مرة أخرى . ولهذا تشترط الدول أن يقوم الحكم فى فرنسا على أساس دستورى ، يشبه إلى حدما النظام الانجليزى . فهناك مجلس للنواب وآخر للشيوخ ويقومان بتقرير الضرائب ، وكذلك قرر الدستور مسئولية الوزراء وحرية الصحافة والأفراد وفتح باب الوظائف للجميع .

أما فيما يختص بالنظام الاجتماعى فى فرنسا فقد احتفظت فرنسا بالنظــام الاجتماعى والادارى الذى كان سائدا فى عهد الثورة ونابليون . وكان الدستور الانجليزى هو المثــال الذى يحتذى به . فأسرة البربون اذن لم ترجع إلى فرنسا برغبة الشعب ، بل رجعت على رماح الحلفاء . ولذلك يبدأ الشعب الفرنسى فى اظهار سخطه على سياسة تلك الأسرة عندما حاولت إرجاع بعض النظم القديمة مثل إعادة ماكان للاشراف من أراضى قبل قيام الثورة ، فقامت ثورة ١٨٣٠ على يد فئة جمهورية قليلة العدد ، وجدت تعضيدا من سكان باريس ، لأن الشعب الفرنسى لم يكن يحترم اسرة البربون ، كما أن أفراد الأسرة لم يحاولوا أن يخلصوا للعهد الجديد الذى قطعوه على أنفسهم فسقطت ، وقام فرع آخر من أسرة الاورليان .

فالملكية البربونية أسقطتها فئة قليلة قامت بثورة ١٨٣٠ واعتمدت على تأييد سكان باريس ، وكان من بينهم رجال الثورة القدماء من أمثال لافاييت وغيرهم من كانوا لايرضون بحكم أسرة الاورليان . وبالرغم من أن الملكية البربونية كانت تعلم بأنها غير محبوبة من الشعب الفرنسى وأنها جاءت بالقوة ، فلم تحاول استمالة

الشعب الفرنسى ، بل نجدها تعبث بالنظام الدستورى ، وتعمل على إسناد المناصب الكبيرة إلى مناصريها وإضطهاد رجال العهد النابليونى . هذا بالاضافة إلى أنها حاولت تغيير الكثير من المعالم التى أوجدتها الثورة والحكم النابليونى، وحاولت الضغط على الشعب بتقييد الصحافة ، ثم حاولت إرجاع الممتلكات القديمة التى كانت للإشراف ، فمعنى هذا تهديد لفريق الملاك الجدد الذين آلت اليهم هذه الاراضى .

ثم بعد ذلك نجد الحكومة البربونية أرادت تعويض المهاجرين من مالية الدولة . كما أقامت الحكومة نوعا من الارهاب مع أن أغلب الفرنسيين كانوا يظنون فى حكم أسرة البربون عهداً من عهود الاستقرار، ولكن هذه الآمال لم تتحقق، فقامت الثورة فى ١٨٣٠ قامت من جانب الفئة الجمهورية يؤيدها الملكيون الاحرار، ورأوا استدعاء أسرة أورليـــان لتولى الحكم لأن لهم ماض مجيد فى الثورة ، وإختيـار الملكية كان خوفا من تدخل الدول الاوربية فى شئون فرنسا إذاما أعلنت الجمهورية .

كذلك نجد أن لوى فيليب تقبل كثيراً من مظـــاهر الثورة القديمة والعهد النابليونى . فأسرة البربون قامت فى أول الامر على أساس الحق الالهى المقدس للملوك ، ولما سقطت ورجعت مرة ثانية كانت لا تزال تعتقد بذلك . أما أسرة أورليان فقد جاءت على أكتاف الشعب فهى أشبه بالملكية الانجليزية .

جاءت ملكية لوى فيليب وأقسمت على احترام العهد الدستورى ،فلم يصبح ذلك العهد منحه من الملكية كما كان الحال أيام البربون. بل إن الدستور أصبح من وضع الشعب نفسه ، ولم يعد فى وسع الملك وقف القوانين أو إلغائها ،كما أصبحت الديانة الرسمية هى الديانة الكاثوليكية .

وإذا قارنا هذه الملكية والملكية البربونية القديمة ، نجد أن الملكية البربونية كانت تعتمد على الطبقة الارستقراطية والمهاجرين القدماء الذين فروا من فرنسا ، بينما الملكية الجديدة تعتمد على الطبقة الوسطى ، فكانت السلطة ـ بناء على ذلك ـ في يد مجلس العموم . أما مجلس النبلاء فلم يعد له نفوذ . وأصبح الحرس الأعلى قوة حقيقية في الدولة ، وكان عليه القيام بحماية الحكومة ، كما كان له نفوذ كبير .

وكان يتنازع الملكية حزبان : الحزب الجمهوري ، والحزب الدستوري الملكي ، وكانت الملكية تميل إلى الحزب الثاني الذي يرأسه جيزو Guizot . أما الحزب الجمهوري فكان على رأسه لافاييت . وكان الملك يحاول الاستفادة من الطرفين .

والفريق الدستوري الملكي كان يرى أن الثورة قد انتهت ، وأن فرنسا ليست في حاجة إلى نظم جديدة ، بل في حاجة إلى استقرار داخلي وخارجي • ويرى ضرورة وضع السلطة في يد الطبقة الوسطى . أي أنه كان يحبذ سياسة الجمود في الداخل والخارج . أما الحزب الجمهوري فكان يريد العمل في الداخل بحرية تامة . أما في الخارج فكان يرى مناصرة الحريات ، وكان يعتمد على تأييد باريس .

وكان هناك حزبان آخران هما حزب Legitinist وهو حزب أسرة البربون ، والحزب الاشتراكي الجمهوري وعلى رأسه لوى بلان Louis Blanc .

ونجد أن الحزب الملكي الدستوري ينقسم على نفسه ، فريق على رأسه جيزو وكان يشايع الملكية ، وفريق آخر على رأسه تيير Thsiers ، وكان يرى بأن الملك يملك ولا يحكم وبطبيعة الحال نجد أن الملك لوى فيليب ينصرف عنه ويميل إلى جيزو المؤيد له والذي يتفق مع سياسته .

وسنجد أن الملكية تلجأ إلى سياسة الانقسام الدستورى من ناحية شراء النواب والناخبين، بحيث يكون للقصر الملكى الأغلبية الدائمة فى البرلمان . فالملكية تريد أن تحكم الشعب بغير الطريق المباشر ، أى عن طريق النواب .

كذلك نجد أن الحقوق السياسية فى فرنسا فى عهد الملكية كانت مقصورة على الذين يدفعون ضرائب قدرها ٢٠٠ فرنك . أما بقية الشعب الفرنسى فلم تكن مشتركة فى الحياة السياسية . ولكن ثورة ١٨٤٨ أعطت جميع أفراد الشعب الفرنسى الحقوق الدستورية . وكانت الثورة من صنع فئة قليلة العدد من الجمهوريين المطالبين بالإصلاح ومن أعداء جيزو . كما كان يؤيد الجمهوريين رجال الحرس الأهلى . فلما قامت الثورة لم يتولى الحرس الأهلى الدفاع عن الحكومة فسقطت . وتكونت حكومة مؤقتة من الجمهوريين وعلى رأسهم لامارتين Lamartine ، ومن الإشتراكيين وعلى رأسهم لويس بلان Louis Blanc ، ويتفق الطرفان على تكوين جمهورية الا أن الوسائل مختلفة، فكان غرض الجمهوريين تكوين جمهورية ديمقراطية ، وأما هدف الاشتراكيين فهو تكوين جمهورية اشتراكية .

وكان الإشتراكيون يلقون تأييداً كبيراً من جانب العمال ، فأخذوا يعملون على انشاء المصانع لتحقيق آمال العمال والقضاء على البطالة. ولكننا سنجد أن صراعا يقع بين العمال وأصحاب المصانع ، فيخشى الشعب الفرنسى أن تعود حياة الثورة القديمة إلى فرنسا. ولم يكن للحكومة المؤقتة أى سلطة ، فكثر عدد العمال العاطلين، وتحملت الحكومة دفع نصف أجورهم ، فناءت الميزانية بحمل ثقيل ، فاضطرت الحكومة إلى فرض ضرائب جديدة وقع عبؤها على الفلاحين فغضبوا ، وقررت الحكومة تكوين مجلس ينتخب بالتصويت العام لتقرير النظام الجمهورى .

الجمهورية الثانية

ونظراً لأن الشعب الفرنسى كان يخشى على فرنسا من الفوضى إذا فاز

الاشتراكيون ، فقد صوت معظمه فى جانب الجمهوريين الديمقراطيين. فأسفرت عملية الانتخاب عن وجود أغلبية بالمجلس الجديد من الجمهوريين الديمقراطيين. أى أن الرأى العام الفرنسى كان ميالا الى جمهورية ليست اشتراكية . ولهذا لم يكن للاشتراكيين أعضاء كثيرون فيقوم العمال بثورة على المجلس . ويتمكن المجلس من خمادها . وتضطهد الحكومة الجرائد الاشتراكية ، وتركزت السلطة التنفيذية فى يد كافنياك . ووضع دستور ١٨٤٨ وأعلن باسم الشعب الفرنسى أن فرنسا جمهورية ديمقراطية وأن مبادئها الحرية والاخاء والمساواة ، أساسها قائم على الأسرة ، وحقوق الملكية، والمساواة العامة ، والاصلاح الاجتماعى، وجعل التعليم الابتدائى مجانا وعاما . كما أعلن أن الشعب مصدر السلطات،وأن السلطات الثلاث منفصلة . والسلطة التشريعية فى يد مجلس واحد يتكون من ٧٥٠ عضوا بطريق الانتخاب ومدته ثلاث سنوات . أما السلطة التنفيـــذية فتوضع فى يد رئيس الجمهورية . .

فالسلطة العمليـــة كانت فى يد رئيس الجمهورية . وتناقشت السلطتان التشريعية والتنفيذية فى مسألة انتخاب رئيس الجمهورية ، فهل يقـــوم المجلس التشريعى بانتخـابه ؟ أم أن ينتخب الشعب رئيس الجمهورية ؟ فاستقر الرأى أخيرا على أن يقوم الشعب باختيار رئيس الجمهورية،لأن كافنياك Cavaignac كان يرى بأن المجلس لن ينتخبه إذا أعطى له هذا الحق. وأسفرت عملية الانتخاب عن فوز لوى نابليون (ابن اخى نابليون) . فأقسم يمين الاخـلاص والولاء للجمهورية والدفاع عن الدستور . فقامت حكومة الجمهورية الثانية ولم تكن طويلة الأجل فانقلبت الى امبراطورية (١٨٥٢) .

وإذا قارنا بين الجمهوريتين الأولى والثانية فى فرنسا نجد أن كلا منها يتشابه

فى أنهما قامتا بعد سقوط الملكية . كذلك نشأت كل منهما بعـــد سقوط الأسرة البربونية . وكذلك فقد سقطت كل منهما لعدم إحسانها سياسة الشعب. وإذا نظرنا إلى الناحية الداخلية نجد كلا الملكيتين لم تستطع أن ترتفع بفرنسا إلى مصاف الدول الكبرى ، فكانت مصلحة العرش ومصلحة القصر الملكى قبل كل شيء . ونجد مثلا لذلك فى مسألة مصر ، فالشعب الفرنسى ثار فى وجـه حكومته وطـالب بتعضيد محمد على فى صراعه مع السلطان ، وسار الملك شوطا طويلا فى تحقيق هذا الهدف، ولكنه لما وجد أن هذه السياسة ستجره إلى حرب مع إنجلترا عدل عنهـا بالرغم من عدم رضاء الشعب الفرنسى . كذلك فى مسألة أسبانيا نجد أن الملك كان يود أن يضع ابنه على عرشها ولو أدى ذلك إلى التصادم مع إنجلترا . فهذا التذبذب فى السياسة الخارجية أغضب الشعب منها .

كما أن شراءها لذمم النواب جعلها تظهر أمام الشعب الفرنسى بأنها حكومة غير دستورية تسعى إلى افساد الحياة البرلمانية بالرشوة . ولهـذا كله كان يرى الحزب الجمهورى الديمقراطى ضرورة السعى إلى الاستقرار الإجتماعى، وانضم اليه الحزب الاشتراكى فقامت ثورة ١٨٤٨ . ولذلك يقـال بأن الثورة الفرنسية كانت دائماً من قبل أقلية من الجمهوريين سواء فى الثورة الأولى أو الثانية . فلو درسنا تاريخ فرنسا من أواخر القرن الثامن عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر نجـــد عهد ثورات ، ولهذا نظرت اليها الدول الأوربية على أنها دولة غير مستقرة . ولازلنا نجد حتى أواخر القرن التـاسع عشر من يميل إلى الملكية ويود رجوعها ، فثلاثة أرباع القرن التاسع عشر كان أغلب الشعب الفرنسى يؤيد الملكية ،وبالرغم من ذلك قامت الجمهورية . فغوغاء باريس فى الثورة الفرنسية كانوا من الجمهوريين مع أن الشعب كان يرغب فى الملكية .

وفى حالة الثورة الثـانية قام بها الجمهوريون فى ١٨٣٠ ولـكن كانت بعد ذلك

ملكية أورليانية ثم تقـــوم فئة جمهورية اشتراكية فتحدث ثورة سنة ١٨٤٨ وبعدها تأتى الجمهورية النابليونية . وفى سنة ١٨٧٥ يحدث العكس يقوم الملكيون بالثورة ويستفيد منها الجمهوريون .

كذلك نجد أن بعد كل ثورة جمهورية تأتى الملكية، ولكنها لا تستطيع مواجهة الحالة فتسقط . فملكية البربون تسقط فى أواخر القرن الثامن عشر ، ونجد ملكية نابليون تسقط فى ١٨١٥، وملكية البربون تسقط فى ١٨٣٠، وملكية أورليان تسقط فى ١٨٤٨، وملكية لوى نابليون تسقط ١٨٧٥. فمعنى هذا أن الملكية لم تستطع البقاء، وكانت كل ثورة تقوم فى فرنسا تقضى على الناحية الاستبدادية القديمة فى فرنسا . وفى ١٨٧٥ زالت كل بقايا الاستبداد .

يوجد تشابه أيضاً بين الظروف التى قام فيها نابليون الاول ولوى نابليون فكلاهما قام بعد ثورة ، وكلاهما قام لسوء حكم الجمهورية . وقبل عهد لوى نابليون نجد أن فرنسا كانت مشابهة إلى حـد كبير لعهد الجمهورية الأولى . فالحالة الداخلية غير مستقرة ، فكان هناك تطاحن بين الاحزاب ، فالحزب الديمقراطى كان يرمى إلى توطيد الاستقرار فى فرنسا ، والحزب الاشتراكى كان يود توزيع الثروات . وزاد نفوذ الحزب الاشتراكى لان باريس أغلبها اشتراكية ، وذلك لنزوح العمال اليها طلبا للرزق . من ثم اتجهت الانظار إلى شخصية قوية لتوطيـــد النظام فجاء لوى نابليون .

ومن الناحية الخارجية نظراً لفشل لوى فيليب فى المسألة المصرية ، كان لا بد من إعادة شخص من العائلة البربونية لإعادة فرنسا إلى مجدها الخارجى ، فلذا كانت شخصية لوى نابليون هى الشخصية الوحيدة التى تستطيع تغيير أوضاع سنة ١٨١٥ . ونجد تشابها كبيرا جدا بينها فأحدهما عم الآخر ، ثم أن السياسة

التى اتبعاها متشابهة إلى حد ما . ووجه الاختلاف بينهما هو أن نابليون الاول نبغ فى الناحية الحربية فاستغلها لوى نابليون فى الوصول إلى عرش فرنسا .

وهناك أوجه تشابه أخرى فقد أعاد لوى نابليون النظام القنصلى الذى أنشأة نابليون الاول . ثم بعد ذلك نجده يعلن الامبراطورية كما أعلنها نابليون الاول . وسنجد أيضا أن نهاية كل منهما متشابهة، فكلا الامبراطوريتين سقطت على حدود بلجيكا . على أى حال كلاهما انتهت فى ميدان الحرب . ونجد أن نابليون الاول يسلم نفسه لانجلترا ويعيش فى جزيرة سانت هيلانه ، ولوى نابليون يسلم نفسه لبروسيا ثم يطلق سراحه ويعيش بانجلترا .

وخلاصة القول فالملكيون قد استفادوا من الثورات ، إلا أنهم لم يستطيعوا الإفادة منها فسقطوا .

كانت هذه الثورات التى مرت بفرنسا نبراسا تهتدى به الشعوب الأوروبية الرازحة تحت وطأة الاحتلال ، فروح الثورة المتأجج فى صدور تلك الشعوب لم ينطفىء بعد موقعة واترلو ، بل نجده يظهر فى جهات مختلفة فى أوروبا، وفى أشكال مختلفة أيضاً . فثورة فرنسا ١٨٣٠ انتقلت إلى بلجيكا ، تلك الدولة التى ضمت قسرا إلى هولندا نتيجة لقرارات مؤتمر فينا ، ولم يكن هذا الضم فى مصلحة البلجيكيين ، لأن هولندا سارت على سياسة تمييز العنصر الهولندى على العنصر البلجيكى. هذا بالاضافة إلى الاختلاف فى الجنس والعادات والتقاليد واللغة والمذهب الدينى، وكذلك الحالة الاقتصادية والتاريخية .

اندلعت الثورة فى بروكسل (٥ أغسطس ١٨٣٠) وتضافرت قوى البلجيكيين للوقوف صفاً واحداً أمام هولندا وأستطاعوا هزيمة الجيش الهولندى ، وإعلان استقلال البلجيك (٤ أكتوبر ١٨٣٠)

كان لثورة يولية فى فرنسا أثر كبير على بلجيكا، ولذا ثار أهل بروكسل على الهولنديين

وطلبوا استقلالا إداريا فى أول الأمر ، ولكن ملك هولندا رفض ذلك قبل أن تحتل جنوده هذه المدينة . فكانت نتيجة ذلك ثورة عامة .

ولقد كان لثورة بلجيكا أثر كبير على مصالح إنجلترا، ففرنسا لم تكن تسمح بانهزام البلجيكيين ، وربما طمع لوى فيليب فى أن ينصب أحد أبنائه ملكا على بلجيكا .

ويطالب البلجيكيون بمساعدة فرنسا وأخذت بروسيا والولايات الألمانية وروسيا والنمسا جانب الهولنديين . وهدد الموقف بقيام حرب أوربية عامة . وكان لبريطانيا مصالح ، فلابد إذن من الاشتراك . ولكن لوى ومن حوله ما كانوا يريدون حربا أوربية عامة تخوض غمارها فرنسا ولذا يرسل تاليران سفيراً إلى لندن ، ورأى تاليران أن مصالح فرنسا تتطلب إتفاقا مع إنجلترا ، إذ لو قررت الدولتان شيئاً لوافقت عليه الدول الأخرى . ولقد عقد مؤتمر فى لندن فى نوفمبر ١٨٣٠ . وفى هذه الأثناء يتولى بالمستن وزارة الخارجية بعد ابردين Aberdeen .

ولقد طالب البلجيكيون بالاستقلال التام وطالبوا بلكسمبورج،ولكن الدول أمضت بروتوكولا فى ٢٠ يناير ١٨٣١ وأنشأت بلجيكا المستقلة المحايدة. وضمنت سلامة أراضيها ، وقبل ذلك الهولنديون متعضين . ولم يقبله البلجيكيون وطلبوا مساعدة فرنسا. وكانت فرنسا قد إقترحت أن تضم هى لكسمبورج فرفض ذلك بامستن ، كما رفض ترشيح البلجيكيين لأحد أبناء لوى فيليب ونصح بليوبولد ساكس كوبرج جوتا . واضطر البلجيكيون تحت تهديد الدول بأن أى اعتداء على حدود هولندا ستقاومه الدول بالقوة إلى قبول شروطها . ولكن الهولنديين رفضوا ترشيح ليوبولد، وهاجموا بلجيكا فى أغسطس ١٨٣١. فبعثت إنجلترا

بأسطولها إلى الشواطىء البلجيكية كما بعثت فرنسا جيشاً . ولكن وجود جيش فرنسي في بلجيكا أثار الرعب في انجلترا . لاسيما وأنه لم يتركها عقب طرد الهولنديين منها . ولم تتحسن الامور حين اقترح تاليران لممثل بروسيا تقسيم بلجيكا. وساءت الامور إلى درجة أن فكرت بروسيا في حرب مع فرنسا ، وكان نيكولاس الروسى مستعدا لتأييد بروسيا. واضطرت فرنسا إلى مراعاة وجهة النظر الانجليزية وإلى أن تتعاون مع انجلترا ضد الدول الشرقية، لاسيما بعدم معارضة هولندا في أن تستولى بلجيكا على ثغر أنتورب . وكانت الدول الشرقية تنتظر تغيير الحكومة في انجلترا لانها كانت تظن أن قانون الاصلاح لن يمر في البرلمان وستحل حكومة تورية (من حزب التورى) قد تكون في صالح الهولنديين . وكان جراى قد سئم المسألة الهولندية وكتب يقول : « ماذا نعمل لهؤلاء الهولنديين والبلجيكيين الملاعين » .

ورأى بامستن التعاون الوثيق مع فرنسا لإرغام الهولنديين ولوقف مطامع الفرنسيين، وفعلا حاصر أسطول انجليزي فرنسي الثغور الهولندية ، ورجعت الجنود الفرنسية إلى فرنسا ، ووضعت المعاهدة التي تضمن حدود بلجيكا وسلامتها وأمضتها الدول الخمس .

على أن المسألة الشرقية كادت تؤدى إلى حرب بين انجلترا وفرنسا . فلقد ساءت العلاقات بين محمد على والسلطان إلى درجة الحرب، فلم تساعد انجلترا السلطان، واضطر الأخير إلى الالتجاء إلى روسيا . وفي فبراير ١٨٢٣ التي أسطول روسى مراسيه قريباً من الاستانة. ومن الغريب أن ـ بامستن ترك الروس يتدخلون وحدهم ، ويعقدون معاهدة انكيارسكلسى ٨ يوليو ١٨٣٣ وهي معاهدة تحالف ومساعدة متبادلة . وفي ملحق سرى لهذه المعاهدة وعدت تركيا بقفل البواغيز في وجه السفن الحربية الاجنبية إذا طلبت روسيا ذلك .

واعتبر باستون ذلك محاولة روسية لفرض حماية روسية على تركيا ، ولقد احتج بامستن على هذه المعاهدة، ولكن السلطان كان قد قرر الموافقة عليها . وفى سبتمبر ١٨٣٣ تقابل القيصران الروسى والنمسوى فى منشنجراتز Münchengratz فى بوهيميا للمناقشة فى المسألة الشرقية، واتفقا على أن يعمل كل منهما للمحافظة على كيان الدولة العثمانية. ولكن اختلاف مصالحهما لم يجعل لذلك الاتفاق قيمة كبيرة واقترح مترنيخ عقد اتفاق بين الدول الأربع التى تهتم بمسائل تركيا. ولكن بامستن لم يكن يثق فى اخلاص نيوكولاس ، فلقد كان يعتقد أن الروسيا لازالت متبعة سياسة الاعتداء على الدولة العثمانية لشخصية القيصر ولطبيعة الحكومة الروسية .

لم يدم الصلح بين محمد على والسلطان فقامت الحرب. ولقد نصح بامستن السلطان بعدم مهاجمة المصريين ، ولكن السلطان لم يلتزم بذلك . وكان السلطان يؤمل فى تدخل انجلترا لحماية الدولة، فلقد عقد معها معاهدة تجارية لصالح التجارة الإنجليزية. وكان بامستن يرى أن يقتصر محمد على على مصر وراثية فى أبنائه، ولم يكن يخش المصريين حتى ولو أحتلوا القسطنطينية . وانما الذى كان يخشاه هو عقد تحالف بين محمد على والروس . فما كان يخاف من حلف فرنسى روسى لأنه غير محتمل ، فينكولاس يكره لوى فيليب . ولقد استطاع بامستن أن يجعل الدول الكبرى تتعاون فى حل المشكلة الشرقية، وأن كانت فرنسا تكره فكرة تعاون الدول الخمس. ولقد تحدث تيير عن محمد على كاسكندر جديد، وأنه من الصعب على انجلترا اخراجه من آسيا الصغرى والشام . وكان يعمل على ايجاد تسوية سريعة مباشرة بين محمد على والسلطان . ولكن بامستن كان يرى فى محمد على بربرياً جاهلا وأن قوته ، مبنية على وهم عقيم ، وأن فرنسا لن تقدم على حرب عامة مع بقية دول أوربا .

وقام بالمرستن بوضع تسوية أمضتها الدول الاربع دون اشتراك فرنسا، واطمأنت روسيا أن انجلترا وفرنسا لن تتعاونا ضدها في حل المسألة المصرية، وغضب تيير وأثار غضبه ذعر البرلمان الانجليزي وزملاء بامستن، ولكن بامستن لم يخش شيئاً وأراد معاقبة محمد علي. ولكن الوزارة الإنجليزية سرها انتهاء أزمة خطيرة، وانضمت فرنسا الى التعاون الاوربي بعد استقالة تيير.

وفي خلال الازمة الشرقية أظهر بالمرستن هدوءاً غريباً، وأن كان فريق من زملائه قد ظن أن سياسته ستؤدي الى الوقوع في أخطار جسيمة، مما أدى به في بعض الاحيان الى رفع استقالته. لقد كان بالمرستن يشك دائماً في نيات الروسيا ويرى أن خير وسيلة لاتقاء شرها هو بالاشتراك معها. وكان يشك في نيات لوى فيليب أيضاً، ويعتقد أنه هو الذي يسير سياسة فرنسا الخارجية، وأنه لو كان مخلصا وزيها ما كان يجلس على عرش فرنسا، وأن الفرنسيين ميالون دائماً للتوسع على حساب الآخرين، وأنهم يعملون لكي يكونوا الشعب الأول في العالم.

وعلى أي حال حلت المسألة الشرقية في صالح انجلترا.

ولكن نيقولاس لم تتحقق أطماعه في فرض حماية تدريجية على الدولة العثمانية لذا بدأ يفكر في تقسيم تركيا. وأهتم بانشاء القواعد الحربية في البحر الاسود. لا سيما في سباستيبول لكي يستطيع الهجوم على الآستانة حتى لو احتل الانجليز بعض النقط في بحر الارخبيل.

كانت سياسة بالمرستن جريئة، ولكنها لم ترض زملاءه الذين كانوا يعتقدون أنه سعيد الحظ في سياسته، وأن الأمور تحدث كما ينتظر. وأنه مكروه من السفراء. فترك بالمرستن أمر تحسين العلاقات لمن يخلفه.

ولم تفاجىء بالمرستن ثورات سنة ١٨٤٨، ولكنه يخشى أن تؤدى إلى حرب أوربية، إذ ربما ساعدت الجمهورية التى ستنشأ فى فرنسا الثورات فى إيطاليا .

ولكن بالمرستن لم يكن يقدر حقيقة الحركات القومية ولامداها، فما كان ينتظر أن تنجح حركة الوحدة فى ألمانيا وكانت سياسته فى شلزفيج هلشتين لصيانة السلام والتوازن الدولى ، ويرى من الخير للنمسا أن تترك ممتلكاتها الإيطالية وسرحين رأى أن الجمهورية فى فرنسا لا توقد نيران حرب مبادىء . وأن وجود النمسا كدولة كبرى مفيد فى وضع حد للاطماع الروسية فى شرق أوربا ، ولذا لم يؤيد المجريين فى ثورتهم .ولكنه نقم على النمساويين لقسوتهم فى معاملة الأسرى الطليان والمجريين، وأيد الأتراك فى أمتناعهم عن تسليم الزعيم المجرى كوشوط،وأثار سخط النمسا وروسيا بارساله أسطولا لمحاصرة الشواطىء اليونانية دون التفاهم مع الدول التى ضمنت استقلال اليونان (وذلك لسوء معاملة أحدرعايا انجلترا) . ولم يقبل ارسال اعتذار للنمسا عن سوء استقبال Haynau فى انجلترا .ولم يقبل تدخل الملكة فى هذه المسألة مما أساء إلى علاقاته مع الملكة . ولقد عمل بامستن على مساعدة الأحزاب الثورية فى كل أجزاء أوربا ، فأرسل لورد منتو Minto ليؤيد وينصح الأمراء فى إيطاليا . وأدى ذلك إلى قيام الثورة فى صقلية فى يناير ١٨٤٨ . وبعد ذلك بشهرين كان لوى فيليب وجيزو فى منفاهما الاختيارى فى انجلترا .

كذلك قامت فى نابولى بايطاليا ثورة كبيرة متأثرة بالثورة الإسبانية التى نشبت ٢٠ - ١٨٢١ ، قام بها أعضاء حزب الكاربونارى من الضباط،وكان غرض الثورة القضاء على الحكم الاستبدادى الرجعى الذى ساد الولايات الإيطالية بعد مؤتمر فينا. وامتدت نيران الثورة إلى بيدمنت وأقليم لمبارديا، ولكن أستطاعت النمسا القضاء على هاتين الثورتين فى النصف الأول من ١٨٢١ ، وساد الحكم الرجعى مرة أخرى فى إيطاليا .

كذلك قامت البرتغال مطالبة بالنظام الدستورى . وأخذت عدوى القومية تنتشر فى دويلات البلقان ، وفى الولايات الألمانية حيث قام طلبة الجامعات بثورة كبيرة .

لم تلبث نيران ثورة ١٨٤٨ فى فرنسا أن أمتدت إلى الامبراطورية النمساوية التى كانت تسير على نظام الملكيات القديمة من وجود طبقة أرستقراطية قديمة تتمتع بكل شىء ، ولها كل الحقوق وليس عليها واجبات ، وطبقة رقيق الأرض وكانت مستضعفة ليس لها حقوق ، وعليها واجبات جسيمة . وكما بينا من قبل كانت هذه الامبراطورية الواسعة تضم عناصر مختلفة الأجناس واللغات العادات والتقاليد ، وكان العنصر النمساوى هو العنصر الممتاز فيها . وقد عمل مترنيخ على فرض ستار حديدى حول هذه الامبراطورية حتى لا تتسرب مبادىء الحرية اليها . ولكن رغم هذا الإحتياط الشديد فقد أخذ دعاة الحرية من كل جنس من الأجناس التابعة لها يبثون تعاليمهم ومبادئهم فى الجامعات وبين الطبقة المثقفة . فلما قامت ثورة ١٨٤٨ فى فرنسا وجدت استعداداً واستجابة لدى تلك الأجناس ، فطالب كل من المجريين والصقالبة والالمان بالاستقلال ، وعززوا مطالبهم بالقوة والعنف ، ففر مترنيخ إلى انجلترا عندما اندلعت نيران الثورة فى فينا فى ١٣ مايو ١٨٤٨ . إلا أن الحكومة أخذت تسيطر على زمام الأمور . وخشيت الروسيا من أمتداد نيران الثورة إلى بولندا ، فعاونت النمسا بجيش كبير قضى على الثورة بمنتهى الشدة والعنف ، وعادت الحركة الرجعية ، تجتاح البلاد مرة أخرى . ويرجع فشل تلك الثورة إلى عدم تكاتف الاجناس المختلفة التى تتكون منها الامبراطورية ، ومحاولة كل منها الاستقلال عن الأخرى .

كذلك قامت فى ألمانيا ثورة فى مارس ١٨٤٨ مطالبة بالوحـــدة والحرية ،

واتخذت مظهراً خطيراً ، إذ أريقت دماء غزيرة فى شوارع برلين ، وذلك للمطالبة بالاصلاحات التى وعد بها فردريك وليم ٤. وقد أظهر فردريك للشعب عزمه على تنفيذ مطالبه ، ولكنه لما رأى أن النمسا استطاعت القضاء على ثورتها فى نفس السنة تشجع وقضى على زعماء الثورة وفض البرلمان ورجع إلى سياسة الرجعية .

تلك لمحة عابرة ألقيناها على تلك الثورات التى أعقبت تسوية فينا ١٨١٥ . أما عن موقف انجلترا من هذه الثورات فقد سبق الحديث عنه من قبل .

الفصل الخامس

المسألة الشرقية وحرب القرم

١٨٥٣ - ١٨٥٦

لقد أعطت معاهدة المضايق Straits Convention تركيا فرصة للحياة ، وظن الناس أن اصلاحات السلطان محمود ستستمر فى عهد خليفته . ولكن السلطان عبد المجيد كان شابا ضعيفا ، قويت فى عهده الرجعية وأطاحت بالمصلح رشيد باشا فى سنة ١٨٤١ ، وبذلك قضت على مشروعاته الاصلاحية ، وان كانت حركة الاصلاح لم تتوقف بالنسبة للجيش .

كان ستراتفورد دى ردكليف Stratford de Redcliffe سفير انجلترا بالاستانة ، والذى عين كممثل لدولته لدى البلاط العثمانى أكثر من مرة يظن فى سنة ١٨٠٩ أن سبب فساد الدولة العثمانية هو فساد الحكومة نفسها . وعندما استطاعت الدولة القضاء على الانكشارية ازداد أمل كاتنج فى اصلاح الدولة وفى مستقبلها ، بالرغم من أنه كان يرى أن حركة الاصلاح هذه قد تؤجل سقوط الدولة ، ولكنها لن تستطيع أن تمنع وقوعه .

ولقد بذل جهده فى سبيل تأجيل ذلك السقوط ، وكان استراتفورد صبورا حليما سياسيا ماهرا وله نفوذ كبير على السلطان ومشيريه لمقدرته وقوة ارادته . ولكنه لم يستطيع أن يغير الطريق التى الفها الاتراك فى الحكم، فكانوا لايستطيعون الوفاء بوعودهم . وكان ستراتفورد يرى بقاء رشيد فى الحكم لأن مجهوداته فى الاصلاح كانت حقيقية . ولقد ترك ستراتفورد الاستانة فى سنة ١٨٥٤ . وكان الاتراك يعتقدون دائما أثناء وجوده أن انجلترا ستتدخل لحماية الدولة إذا ما أصابتها كارثة خارجية .

وأما قيصر الروسيا فيرى أن ساعة انتهاء الدولة قد حانت ، ولذا لا بد من وضع خطة لتقسيمها . وكان ينظر الى تحسين العلاقات بين فرنسا وانجلترا بعين القلق، واقترح تعاون روسيا وانجلترا لحل هذه المشكلة الشرقية. وكان يرى ألا تأخذ الاستانة دولة واحدة .

ولقد فهم القيصر من ابردين أن آراء الدولتين متقاربة فى هذه الناحية. ولكن ابردين كان حذرا فلم يوافق على مشروع قد يؤدى بالصداقة الانجليزية الفرنسية. وكان يرى أن تركيا ما زالت بها حيوية تساعدها على البقاء .

ولقد ثارت مشكلة الشرق الادنى بشكل حاد ، فلقد أراد لوى نابليون أن يحصل على رضاء الكاثوليك فى فرنسا . ولذا فهو لا يتنازل عن مبدأ حماية الفرنسيين للاراضى المقدسة فى فلسطين ، ونازع الروسيا على ذلك الحق معتمدا على معاهدة الامتيازات فى سنة ١٧٤٠ ، والروس كانوا يعتمدون على معاهدة كوتشك كينارجى Kutchuk Kainarji .

كان القيصر يعتقد أن له حقوقا يجب الدفاع عنها ، وكان الفرنسيون يعملون على زيادة نفوذهم فى الاراضى المقدسة بعد عهد محمد على . ولذا طلب اللاتين (الفرنسيين) مفاتيح الاراضى المقدسة ونجحوا فى ذلك سنة ١٨٥٢ . فاحتجت الروسيا على ذلك وطلبت ضمانات فى ١٨٥٣ ، وطلبت الاعتراف من ناحية الدولة بأن لها الحق فى حماية مسيحى الدولة ، وأرسل القيصر الامير منشيكوف Prince Menschikov لهذا الغرض .

ما كانت انجلترا تهتم بمطالب الفرنسيين أو بمطالب الروس ، وكانت تشك فى فى نيات كل منها ، وأعاد القيصر حديثه عن مرض تركيا العضال الذى لا دواء له. واقترح تقسيم الدولة فتأخذ انجلترا مصر وكريت ، وتحمى ولايتى الدانوب

والصرب وبلغاريا . وتحتــل القسطنطينية أثناء التقسيم . ثم تصبح المدينة حرة بعد ذلك .

لم يؤيد وزير خارجية انجلترا رسل Russel هذا الاقتراح (وكان بالمرستن يعتقد فى ذلك الوقت أن تركيا بها من مظاهر القوة والحضارة أكثر من الروسيا ، وأن رعايا السلطان المسيحيين يتمتعون بحرية لا يتمتع بها مسيحيو الروسيا) . ثم لأنه أولا لا يمكن إخفاء هـذه المقترحات عن فرنسا . ثم من ناحية ثانية لم يكن القيصر صريحا فى سياسته ، فلقد طلب منشيكوف من السلطان حـماية الروسيا للمسيحيين بمقتضى معاهدة كوتشك كينارجى ، فاذا عارضت فرنسا يعقد السلطان حلفا دفاعيـا سريا مع روسيا .

أما اذا رفض السلطان مطالب الروسيا فى خلال ثلاثة أيام فيغادر منشيكوف الاستانة . وظن القيصر أنه يستطيع بذلك أن يدخل الذعر فى قلوب الاتراك . وظن القيصر انه قد نال تأييد انجلترا ، وما كان يظن أن مطالبه ستؤدى الى حرب اوربية . ولم يكن منشيكوف سياسيا فى طرائقه ، فبـدأ مهمته بسوء معاملته وزراء السلطان ، ثم انتظر بعد ذلك وطال انتظاره ، فلقـد طلب ابردين ورسل من ستراتفورد أن يذهب مرة اخرى الى القسطنطينية لتخاص على الاقـل من نقده المرير لسياستهم الشرقية ، وكلف بدراسة الموقف واقتراح ما يراه .

وفى ٥ مايو أعطى السلطان لمنشيكوف ضمانات بالنسبة للاراضى المقـدسة ، ولم يخف الاتراك على ستراتفورد كل مقترحات منشيكوف ، فنصحهم بعدم قطع المفـاوضات ، وبين لهم أن الاسطول الانجليزى لن يدخل إلا لحماية الاستانة . وأصر منشيكوف على كل طلباته ، وثارت بالاتراك حماسة دينية فرفضوا طلبات منشيكوف فعاد غاضبا الى الروسيا .

فكتوريا (١٨٣٧-١٩٠١)

ولم تكن انجلترا ترى في مطالب القيصر شيئاً جديداً ، ولكن الملكة والأمير ماكانا يحسنان الظن بالقيصر، ورأت الحكومة الانجليزية في آخر الأمر أن القيصر مصمم على تدمير الدولة العثمانية وأنه لا بد من الوقوف أمامه . وطلب بالمرستن حين عرف طلبات منشيكوف القيام بعمل حاسم . ولكن الحكومة الانجليزية كانت مترددة ورسل مهتم بالمسائل البرلمانية أكثر من اهتمامه بالمسألة الشرقية مما شجع الروس على اتخاذ موقف قوى ، فغزوا ولايتى الدانوب (الافلاق والبغدان) واضطرت انجلترا إلى إرسال أسطولها خارج الدردنيل ، ووافق نابليون الثالث على أن يؤيد أسطول فرنسى الأسطول الانجليزى .

ولم يكن نابليون الثالث متردداً مثل أبردين، فقرر عقد تحالف مع انجلترا ، فلقد كان يرى ضرورة موافقتها على التعديلات التى يريد إدخالها على معاهدة فينا ١٨١٥ ، ولكنه لم يكن يريد حرباً مع الروسيا، وأن كان يرى ضرورة وقفها عند حدها، لاسيما وأنه كان يرى أن مصالح انجلترا أكثر تعرضاً للخطر من مصالح فرنسا ، ولكن السفير الفرنسى أرسل معلومات مثيرة ومبالغ فيها إلى حكومته.

غزا الروس ولايتى الدانوب ، ووصل الأسطول الانجليزى إلى الدردنيل ، ولم يعط الترك وعداً بالمساعدة ، ولم يحذر الروس عواقب عملهم . وفى هذه الأثناء كان ستراتفورد يعمل على الوئام وتأجيل الحرب، ونصح السلطان بإرسال بعثة للروسيا ، وبذا يعطى الروسيا فرصة لتغيير مسلك سفيرها ، واجتمع مؤتمر السفراء فى فينا فى يولية ولم يعيروا إهتماماً كبيراً خطط كانتنج وأقروا خطط نابليون الثالث وكلرندن، ولكنهم أختلفوا على تعديل هذه الخطط. وعلى العموم وضعت مذكرة فينا فرفض السلطان قبولها لعلمه بأن الدول ستتدخل إذا تعرضت الاستانة للخطر .

وطلبت انجلترا من ستراتفورد على مضض منه أن يقنع السلطان بإمضاء المذكرة، وكان ستراتفورد لا يوافق عليها ولكنه نفذ تعليماتها. وثار الرأى العام فى الاستانة ضد الروسيا، وكان السلطان لا يستطيع أن يتجاهل ذلك، فرفضت المذكرة وطلب الاتراك تعديلها تعديلا سلبها قيمتها. فرفض الروس ذلك التعديل، وأعلنوا أن مذكرة فينا تضمن للروسيا حق التدخل فى شئون ١٢ مليونا من المسيحيين الموجودين فى الدولة. لما أعلنت الروسيا تفسيرها أعلنت انجلترا وفرنسا أنهما لا تؤيدان المذكرة، ولم تستطيع الروسيا التراجع. وقامت الثورة مهددة فى تركيا إذا قبلت مذكرة الروسيا، وهاج الرأى العام فى روسيا مطالبا بالتمسك بمطالبها.

وهاج الشعور فى انجلترا ضد روسيا لأنها تهدد مصالح انجلترا السياسية والاقتصادية، ولأنها تعمل على مساعدة الرجعية والاستبدادية فى كل أجزاء العالم الاوربى. فالروسيا عدوة الحرية فى الخارج ونصيرة الاستبدادية فى الداخل، وكان الرأى العام فى انجلترا يعتقد أن الترك وقعوا فريسة لمطامع الروس. وفعلا أرسل الاسطول الإنجليزى، ولكن الحرب لم تقم بعد، وخاف القيصر الروسى من سرعة إستعداد الاتراك، ولذا فهو يقابل القيصر النمسوى فى المتز. وكان مستعداً لأن يتراجع فى مسألة تفسيره لمذكرة فينا. ولذا فهو فى هذا الاجتماع يقترح لمذكرة فينا تعديلا وسطا بأن حماية المسيحيين تقع على كاهل السلطان على أن يكون للروسيا حق مراقبة هذه الإجراءات التى يتخذها. ولكن انجلترا وفرنسا رفضتا ذلك التعديل خشية وجود مؤامرة بين الروسيا والنمسا. وود ابردين بعد قيام الحرب لو قبل ذلك التعديل.

حرب القرم

١٨٥٣ - ١٨٥٦

تعتبر حرب القرم من الحروب الفريدة فى نوعها فى التاريخ الحديث، وذلك لعدة أسباب : أولا أن انجلترا خاضت حروبا مختلفة دفاعا عن مصالحها وتحقيقا لمطامع توسعية،وخرجت منهذه الحروب منتصرة بعد أن ضمت إلى أمبراطوريتها ممتلكات جديدة . ولكن هذه الحرب دخلتها إنجلترا دفاعا عن كيان الدولةالعثمانية وأنفقت فيها الكثير من الأموال وضحت بأعداد كبيرة من جنودها دون أن تحقق شيئا . وقد شعرت إنجلترا بخيبة أمل كبيرة بعد أنتهاء تلك الحرب وحاولت أن تخفى هـذا الشعور وراء تصريحات وزير خارجيتها الذى أعلن بأن إنجلترا لم تدخل هذه الحرب لتحقيق مطامع شخصية ، وإنما دخلتها دفاعا عن مبدأ ولا شىء غير المبدأ .

ثانيا : أن هذه الحرب هى آخر الحروب الاوربية التى أتبعت فيها أساليب الحرب القديمة ، فرغم وقوعها فى منتصف القرن التاسع عشر ، وفى وقت عرفت فيه أوربا بعض الأساليب الحربية الحديثة ، إلا أن هذه الحرب ظلت بعيدة كل البعد عن تلك الأساليب .

ثالثا : إن حرب القرم قامت لسبب دينى ظاهر،رغم انتهاء الحروب الصليبية وعهد الحروب الصليبية منذ أمد غير قريب .

ما من شك فى أن لحرب القرم أسباب عديدة ، بعضها مباشر والبعض الآخر غير مباشر . فأهم الاسباب غير المباشرة هـــو ضعف الدولة العثمانية ، وإزدياد الوعي القومى لدى القوميات الخاضعة لحكمها في شبه جزيرة البلقان بشكل أدى

إلى أضطراب الأحوال فى تلك المناطق ، وإلى ثورة تلك القوميات من حين لآخر طلبا للاستقلال أو لزيادة ما تمتع به من إستقلال ذاتى، فدول البلقان كانت أشبه ببرميل من البارود معرض للانفجار فى أى وقت إذا ما أرتفعت حرارة المنطقة نتيجة عوامل داخلية أو أخرى خارجية فى أغلب الأحيان .

كذلك شجع هذه القوميات على الثورة ما حصل عليه اليونانيون من إستقلال تام فى بداية الربع الثانى من القرن الماضى . فهذا المثل الحى دفع سائر القوميات الأخرى إلى أن تحذو حذو اليونان ، واعتقدت بأن هذا لن يكلفها أكثر من القيام بثورة تدعو إلى تدخل الدول الأجنبية كما حدث بالنسبة لليونان .

كما أن العامل الدينى لعب دوراً هاما فى هذه المنطقة، فدول البلقان دول مسيحية خاضعة لحكم سلطان مسلم، وكانت معظمها تدين بالمذهب الارثوذكسى وهو مذهب الكنيسة الشرقية . وكان القيصر الروسى يعتبر الرئيس الأعلى للكنيسة الشرقية الارثوذكسية ، فهو من هذه الناحية يعد الزعيم الروحى لهذه الدول . فعن هذا الطريق استطاعت روسيا أن تؤثر فى هـــذه الدول وأن توجه النواحى الدينية وجهة سياسية اتخذت أشكالا متعـــددة ، وذلك تحقيقا لأطماعها فى ممتلكات الدولة العثمانية .

أما عن موقف النمسا من هذه الأحداث فيتلخص فى أنها كانت تطمع فى كسب نفوذها فى دول البلقان على أقل تقدير ، ولكن يزاحمها فى هذا المجال الروسيا، فنواياها التوسعية على حساب تركيا لم تعد خافية عليها، ولهذا فهى تخشى أن تتمكن النمسا أن تحل محل الدولة العثمانية فى هذه الدول المتطلعة إلى الاستقلال. وقد وجدت أن الروسيا تستغل العامل الدينى إلى أقصى الحدود ، وتفسر بنود

معاهدة كوتشك كينارجى (سنة ١٧٧٤) التى عقدت بينها وبين تركيا بشأن بناء كنيسة فى الاستانة تكون تحت حمايتها ، تفسيرا أخرج هذه المعاهدة عن النطاق المرسوم لها ، فزعمت بأن هذه المعاهدة تعطيها الحق فى تمثيل الطوائف المسيحية فى بلاد البلقان وفى الدفاع عن مصالحها . ومعنى هذا السماح لنفسها بالتدخل من حين لآخر فى شئون الدولة العثمانية بحجة حماية تلك المصالح .

وفى ٤ اكتوبر أعلن السلطان الحرب على الروسيـــا . وبالرغم من ذلك فستراتفورد يعمل للسلام وطلب من سفراء الدول فى الاستانة العمل على ايقاف الحرب عشرة او اثنى عشرة يوما . ولكن فى ٢٣ اكتوبر هاجم الاتراك الروس فى ولايتى الدانوب . ولكن ستراتفورد ظل على فكرته فطلب من الاتراك عدم ارسال اسطولهم الى البحر الاسود .

ولكن الاتراك لم يعملوا بالنصيحة . وظن الروس أن الاتراك يعملون على إثارة ثورة ضدهم فى القوقاز . وفى نوفمبر يدمرون الاسطول التركى . وكان لتدمير ذلك الاسطول أثر بالغ على الرأى العام الانجليزى. فاعتبر عمـــل الروس مذبحة massacre واتهم ابردين بالجبن وبتسليم مصالح انجلترا لروسيـــا . واستقال بالمرستن من الوزارة، ورأى رسل أن يفهم القيصر بأنه اذا عبر الروس نهر الدانوب تدخل الاسطول البريطانى وهاجم الموانى الروسية .

وظن الانجليز خطأ أن الفرنسيين سيعملون وحدهم اذا لم تؤيدهم انجلترا، ورأى ابردين ضرورة حماية تركيا من الاعتداء الروسى . وكان ستراتفورد قد نصح الاتراك بضرورة بذل مسعى آخر للصلح ، ولكن سحب نقولاس سفراءه من لندن وباريز . وطلبت النمسا وبروسيا أن تؤجل روسيا الهجوم وتسحب جنودها من ولايتى الدانوب . وارسلت انجلترا وفرنسا انذارا لروسيا فلم يرد نقولاس قيصر الروسيا .

وفى ١٢ مارس عقدت انجلترا وفرنسا حلفا مع تركيا . وبعـــد ذلك بأسبوعين قامت حرب القرم .

ولو أن الامر ترك لتصرف ستراتفورد لربما لم تقم هذه الحرب ، إذ كان يستطيع اقناع الاتراك باعطاء الروس بعض الامتيازات التى ترضيهم . ولو أن ابردين كان صاحب النفوذ الاكبر فى الوزارة لعمل وسعه لمنع الحرب .

ولو أن بالمرستن محل ابردين لاستطاع أن يقنع الروس بالانسحاب من ولايتى الدانوب . ولو أن القيصر كان يعتقد فى عـــدم تردد ابردين لما اقحمت الروسيا نفسها فى الحرب . ولو أن انجلترا قبلت تسوية المتز لاكتفت الروسيا .

ولكن لو نجحت بعثة منشيكوف لكان معنى ذلك بسط الحماية الروسية على الدولة العثمانية .

ربما كان أعظم قائد فى هذه الحرب هو القائد الروسى تودلبين Todelben وتمتاز هذه الحرب عن الحروب التى سبقتها بأن الرأى العام أخذيهتم بحياة الجنود فى ميدان الحرب وما يقاسونه من متاعب. وقبل ذلك كانت حياة الجندى رخيصة. صحب مراسلو الصحف الجنود ولم تكن هناك رقابة على ما ينشر . كما زاد عدد القارئين للصحف فزاد انتشارها ، وتحسنت وسائل البريد ، وانتقد الرأى العام أعمال الحكومة وقيـــادة الجيش وكانت قيـــادة الجيش تستحق كثيرا من النقد الذى وجه لها . فلم يظهر الضباط أى كفاية ممتازة أو أى تقدم فى فن الحرب ، او اهتمام كبير بالتدريب ، أو تحسن تغـــذية الجنود وكسوتهم والترفيه عنهم . وكذا البرلمان فلم يكن من السهل اقنـاع الأحزاب بزيادة بعض المصروفات . ولقد كانت حالة السجين أحسن بكثير من حالة الجندى ، وزادت

نسبة الوفيات بين الجنود بشكل مفزع وكان معاملتهم سيئة .

لم يكن هناك تدريب بالمعنى الصحيح ، فكان الضباط فى بعض الفرق يشترون وظائفهم ، لا سيما فى فرق الفرسان والمشاة ، وكانوا يؤخذون عادة من المدارس العامة Public Schools حيث تدرس الكلاسيكيات فى الغالب . لم يكن هناك تدريب لا للضباط أو للجنود . ولم تكن سلطة المختصين بأمور الحرب محددة وخاصة سلطة الوزير والوكيل . ومن الغريب أن شخصية كشخصية ولنجتن كانت ترفض الاصلاحات التى تقترح . ونشأ عن تخفيض الجيش بعد الحروب النابليونية أن الجيش لم يعد كافيا لمطالب انجلترا . وكانت البحرية تعانى ما يعانيه الجيش ، وذلك لاهتمام البرلمان بأمور الاقتصاد ، فقد أخلى عدد كبير من الجنود وترك ليموت جوعا . وكان البحارة يجمعون من الثغور من المساجين وفاسدى الاخلاق والمهربين . وكان مستوى حياتهم منخفضا ، وكان التدريب لا يقوم على أساس سليم. وكان يشرف على البحرية رجال قد حطمتهم السن وليسوا على جانب من التعليم. وكانت السفن التجارية فى أول الأمر غير معتمد عليها وكانت قذرة وغير مريحة. وكانت الآلات تحل محل عدد كبير من المدافع ، ولذا فلم تظهر فى مبدأ الأمر كفايتها إذ لم يكن البحارة يعرفون جيدا كيفية إدارتها.

عين للقيادة راجلان Raglan وهو مساعد ولنجتن، فقد ذراعا فى واترلو . ولكنه ظل ٤٠ سنة لا يعمل شيئا يذكر ، وكانت سنه كبيرة ومقدرته محدودة .

أرسلت الفرق الى مالطة فى فبراير سنة ١٨٥٤ . ولم تكن القيادة الفرنسية بأحسن حالا ، فكان على رأسها رجل مصاب بمرض خطير مميت .

لم تكن الوزارة الانجليزية تعرف غاية الحملة وان كان غرضها منع الروس من أخذ الاستانة وطردهم من ولايتى الدانوب . وكان عندها فكرة غامضة

عن مهاجمة سباستبول . ولكن كلا من انجلترا وفرنســـا لم يكن يعرف مدى تحصينات سباستبول أو مدى قوة الروس فى القرم .

فى مايو وصلت قوى الحلفاء الى غاليبولى وسكوتارى. ولم يكن لدى الجنود الانجليز الخيم . رجلان يريد مهاجمة الولايتين الدانوبيتين،ولكن خشى ألا يجد الجنود طعاما فى ورنه ، ولذا طلب تجهيز فرقة للتموين ولنقل الجنود عن طريق البر . ولكن وزارة الحرب رفضت ذلك . وبالرغم من ذلك زحف رجلان على ورنه بعد أن ترك الروس ولايتى الدانوب، فقاست جنوده الشدائد من الملاريا المنتشرة فى هذه الجهات . وعند ذلك طلبت الحكومة مهاجمة سباستبول ولم يكن رجلان ولا مساعده البحرى يوافقان على هذه الخطة، لاسيما وأن قوات فرنسا لم تترك طولون بعـــد . كان الامر يتطلب مهاجمة سباستبول قبل الشتاء كان اختيار المارشال سانت ارنو Marshal St. Arnaud لأسباب سياسية لا لمقدرته الحربية . وكان نقل الجنود من بلغاريا الى القرم أمرا صعبا ، فاشتد الازدحام على السفن ، وثار الخلاف بين رجلان وسانت ارنو على موعد الهجوم. فكان سانت ارنو يريد تأجيل الهجوم للعام القادم ، ورفض رجلان ذلك الرأى .

وعلى أى حال نزلت الجنود الانجليزية الفرنسية فى شـــمالى سباستبول ولم تتعرف هذه المنطقة .

ولكن قيادة منشيكوف لم تكن خيرا من قيادة الانجليز والفرنسيين . ولذا لم يستفد من الموقف . وكانت القوات تكاد تكون متكافئة فى العدد . ولم يعمل الروس على تحصين مواقعهم فاستفاد الحلفاء من ذلك واضطر الروس الى التقهقر ، طلب رجلان التقدم فرفض ذلك سانت ارنو نظرا لقلة الجنود لدى الحلفاء .

وفى هذه الاثناء يموت سانت ارنو ويحل محله كانروبير وهو محبوب من جنوده وأكثر كفاية من سابقه وقام الروس بهجمات لحماية المدينة المحاصرة ولم ولم يكن بعض الضباط الانجليز محبوبين من جنودهم من أمثال كارديجان Cardigan وكانوا مستعدين لمخالفة الأوامر التى تصدر إليهم ، وكانت النتيجة خسارة كبيرة على الانجليز .

وحتى بعد موقعة انكرمان Inkerman كان على الحلفاء أن يقضوا شتاء آخر ، وكان الوقود قليلا، وكذلك الملابس . والطرق سيئة،ودمر عدد كبير من السفن بسبب العواصف، وكثر عـــدد المرضى ، ولم تتوفر الوسائل الصحية . وانعـــدمت الادوية فى بعض الأحيان فمات الكثيرون . الى أن ارسلت مس فلورنس نيتنجال Florence Nightingale ومعها بعض الممرضات المدربات فصلحت الحال . وعند اجتماع البرلمان فى سنة ١٨٥٥ نوقشت حالة الجيش واستقال ابردين ، وجاء بالمرستن فأصلحت بعض العيوب بعد ارسال بعثـــة الى القرم لتقصى الحالة .

ولما تدخل الامبراطور نابليون الثالث فى الاعمال الحربية يستقيل كابروبير ويحل محله بليسييه Pélissier وهو أكثر كفاية منه. ومات رجلان بعدمعركة عنيفـــة فحل محله الجنرال سمسون Simpson ولم يكن كفأ .

ثم أخذت سباستبول .

فى اثناء الحرب قامت مفاوضات لإنهائها . وأبدى الحلفـــاء رغبتهم فى أنهم لا يريدون التوسع على حساب روسيا ، ولكنهم أعلنوا ضرورة المحافظة على كيان الدولة العثمانية وسلامة أراضيها وعلى حقوق رعايا السلطان المسيحيين، وادخال

تركيا ضمن النظام الدولى الاوربى . وكانت النمسا تجد من مصلحتها تأييد الحلفاء فى ذلك . ولكن النمسا كانت تخشى أن تفقد صداقة روسيا فوقفت موقف التردد، ففقدت رضا روسيا ورضا الدول الاخرى. ولكن انجلترا وفرنسا استطاعتا بموقف النمسا وضع مقترحات هى نقط فينا الاربع :

١ - وضع ضمان دولى محل الحماية الروسية على ولايتى الدانوب .

٢ - اصلاح الملاحة فى مصب الدانوب .

٣ - إعادة النظر فى معاهدة المضايق المنعقدة فى سنة ١٨٤١ لصالح التوازن الاوربى .

٤ - ليس لروسيا حق فى حماية الرعايا المسيحيين للدولة .

ولقد قبل نقولاس بعد موقعة انكرمان النقط الاربع ، ولكنه لم يقبل أمر تحديد قوته فى البحر الاسود. وفى نفس الوقت لم يقطع المفاوضات خشية انضمام النمسا الى جانب الحلفاء . ومات نيقولاس فى ٢ مارس سنة ١٨٥٥ . ولقد أمل الحلفاء فى تغيير سياسة الروسيا فى عهد خلفه . ولكن الاسكندر الثانى كان ضعيفاً، وكان الرأى العام فى روسيا لا يزال فى جانب الاستمرار فى الحرب .

ولكن سقوط سباستبول غير الموقف بالرغم من أن غزو الروسيا من ناحية الجنوب كان أمرا مستحيلا . فكر نابليون فى سحب معظم جنوده ، ورأى إما الاقتصار على حصار روسيا أو إثارة الشعور البولونى ضدها . ورأى أن الاستمرار فى الحرب هو فى الغالب لصالح انجلترا، وخشى على مركزه فى فرنسا . ولذا اضطر بالمرستن الى قبول فكرته . وفى ذلك الوقت تدخلت النمسا وارسلت انذارا حربيا الى الروسيا بضرورة قبول نقط فينا الأربع وإلا دخلت الحرب الحرب ضدها ، فقبلت الروسيا الشروط بما فيها حياد البحر الاسود .

مؤتمر باريس

وفى ٢٥ فبراير ١٨٥٦ انعقد مؤتمر الصلح فى باريس لتوقيع الشروط التى اتفق عليها وهى :

أولا - احترام استقلال تركيا وعدم المساس بممتلكاتها . وفى حقيقة الأمر فمعاهدة باريس هى أول معاهدة من نوعها توقع عليها الدولة العثمانية لاتنتقص من ممتلكاتها أو تعمل على أضعاف قدرتها الدفاعية، بل لقد بوأت تلك المعاهدة الدولة العثمانية مركزا أكبر من ذى قبل.وضمنت وقوف الدول الأوربية إلى جانبها ضد الروسيا . واعترفت باستقلالها فى إدارة شئونها الداخلية .

ثانيا - إعلان حيدة البحر الأسود،وهذه الحيدة كانت فى واقع الأمر حقيقة مسلم بها فى ذلك الوقت،فلم يعد للروسيا قوة بحرية فى البحر الأسود تجعلها تعارض بشكل جدى فى موضوع الحياد . وبتسليم الروسيا بهذا المبدأ لم تعد تهتم كثيراً بالشئون الأوربية ، وذلك لفترة خمسة عشر عاما . بل يمكننا القول بأنها قد أهملتها إهمالا يكاد يكون تاما ، وذلك لشعورها بالمرارة من موقف الدولتين الكبيرتين انجلترا وفرنسا منها.فالبحر الأسود بصفة خاصة والمسألة الشرقية بصفة عامة هى حجر الزاوية بالنسبة للسياسة الروسية منذ القرن الثامن عشر ، فتحطيم المشروعات الروسية فى هذه المنطقة قد دفع الروسيا إلى الاهتمام بالشئون الآسيوية والانصراف عن الشئون الأوربية . وترتب على ذلك توسع الروسيا فى أواسط آسيا وتضخم حجم الامبراطورية الروسية فى ذلك الوقت .

ثالثا - أن تتعهد الدولة العثمانية بتحسين أحوال رعاياها المسيحيين فى البلقان على ألا تتدخل أية دولة خارجية فى شئونها الداخلية . ولكن يبدو أن السلطان العثمانى لم يف بهذا التعهد وظلت أحوال الرعايا المسيحيين موضع شكوى بصفة مستمرة .

رابعاً - الاعتراف بحرية الملاحة فى نهر الطونة (الدانوب) . وكان هذا نجاحاً للنمسا ، فاستطاعت ابعاد الخطر الروسى عن مصب نهر الدانوب، ولكنها فى نفس الوقت خسرت صداقة الروسيا الى الأبد .

خامساً - الاعتراف بحق الدولة العثمانية فى اغلاق مضيق البوسفور والدردنيل فى وجه المراكب الحربية لسائر الدول. وهذا البند جزء متمم لحياد البحر الأسود ، ولمبدأ احترام سيادة تركيا واستقلالها .

سادساً - تعديل الحدود بين الروسيا وتركيا .

سابعاً - فى حالة حدوث خلاف بين الدولة العثمانية وغيرها من الدول، يجب قبول مبدأ التحكيم لفض الخلاف قبل أن يستفحل خطره ويؤدى الى نشوب حرب أوربية .

الفصل السادس

حركة الوحدة الإيطالية

كانت إيطاليا فى أواخر القرن الثامن عشر تتكون من دويلات متعددة ، بعضها صغير والبعض الآخر كبير ، بعضها سياسى والآخر دينى، وكان أكبر تلك الدويلات هى نابولى وتشمل نصف شبه جزيرة إيطاليا الجنوبى وجزيرة صقلية، وتحكمها عائلة بربونية .

ثم هناك ولاية بيدمونت أو سردينيا ، وتقع على جانبى جبال الألب وتمتد إلى أودية نهر البو العليا . وقد منحها موقعها الجغرافى وطبيعة شعبها مركزاً مرموقاً بين القوى المتصارعة فى إيطاليا ، سواء أكانت قوى محليـــة أو قوى أجنبية . وستلعب بيدمونت دوراً رئيسياً هاما فى تاريخ إيطاليا الحديث ، إذ ستقوم على أيديها حركة الوحدة الإيطالية هذا الأمل الذى كان هدف سكان إيطاليا منذ عشرات السنين .

وإلى جانبها توجد دوقية ميلان وكانت تابعة للامبراطورية النمساوية المجرية، ونظراً لثرائها ووقوعها على الطريق التى تربط إيطاليا بالنمسا فقد كان لها أهميتها الخاصة بالنسبة للنمسا كنقطة ارتكاز هامة لنفوذها فى شمال إيطاليا .

كذلك نجد الجمهوريتين المندثرتين وهما جنوا والبندقية، وقد وصلتا إلى درجة من التأخر والانحلال بعد فقدانهما ما كان لهما من مركز تجارى ممتاز فى البحر المتوسط، وذلك بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول تجارة الشرق إلى دول غرب أوربا .

وفى وسط ايطاليا نجد دوقيات مودينا وبارما وتوسكانيا وجميعها خاضعة للنفوذ النمسوى بطريقة أو بأخرى . وتليها الولايات البابوية التى خضعت لأسوأ أنواع الحكومات التى عرفتها أوربا .

أغرت حالة ايطاليا السيئة وماهى عليه من تفكك فرنسا على ارسال حملة بقيادة نابليون بونابرت لملاقاة قوات النمسا فى شمالى ايطاليا . وقبل أن ندخل فى تفاصيل المعارك التى خاضها نابليون ضد القوات النمساوية منفردة أو مجتمعة مع غيرها من القوات الايطالية أن الايطاليين لم يعتبروا نابليون فاتحا أو غازيا ، وانما بطلا ومحرراً .

ولذا لم تجد قوات نابليون صعوبة عندما عبرت جبال الالب فى الانتصار على القوات النمسوية والسردينية المشتركة فى موقعة موندوفى ، وأن يفرض هدنة كيراسكو (٢٨ ابريل ١٧٩٦) على السردينيين، تنازلوا بمقتضاها عن نيس وسافوى لفرنسا وقبولهم الانسحاب من الحرب .

واصلت قوات نابليون زحفها الى ميلان للقضاء على قوات النمسا وعزلها كلية عن بيدمونت ، وتمكنت من انزال الهزيمة بالنمساويين فى موقعة لودى (١٠ مايو ١٧٩٦) ، ودخلت ميلان بين مظاهر الترحيب والهتاف للبطل المحرر نابليون . وفى ١٤ يناير ١٧٩٧ تحدث موقعة ريفولى بين القوتين الفرنسية والنمساوية ، ينتصر نابليون فيها انتصاراً ساحقا .

وبعد ذلك سقط فى يدى نابليون حصن مانتوا ، وتابع تقدمه شرقا الى ليباخ . ورغم انتصارات نابليون الحاسمة فى ايطاليا كانت قوات فرنسا فى ألمانيا وهى التى تمثل القوة الضاربة الأولى تتعثر فى تقدمها . ولذا كان على نابليون أن يوقف القتال وأن يعقد هدنة مع النمسا انتظاراً لما ستسفر عنه العمليات الحربية الفرنسية فى ألمانيا ، وتم له ذلك فى هدنة ليوبن (ابريل ١٧٩٧) .

تطورت الأمور لصالح فرنسا، وأرغمت النمسا على توقيع صلح كامبوفورميو في ١٧ أكتوبر ١٧٩٧ . ويهمنا فى هــــذا الصلح ما يمس ايطاليا، ألا وهو قبول النمسا إنشاء جمهورية فى شمال ايطاليـا أطلق عليها اسم جمهورية شمال ايطاليـا أو ماوراء الالب Cisalpine ، كما استولت فرنسا كذلك على جزر الايونيان.

كان التنظيمات السياسية التى أدخلها نابليون فى ايطاليا أبعد الأثر فى حركة وحدتها فيما بعد ، فجمهورية شمال ايطاليا التى اقتصرت فى الاول الأمر على أراضى ميلانو وحدها ، لم تلبث أن توسعت وضمت اليها بعض المدن التى كانت تابعة للبابوية نتيجة الثورة التى قامت بها وهى ريجيو وفيرارا ورافينا وبولونيا ، وترتب على ذلك أن أصبحت هــــذه الجمهورية التى تحمل شعار الثورة الفرنسية ومبادئها مركز اشعاع لتلك المبادىء والنظم الجديدة فى وسط ايطاليا ، لدرجة أن جمهورية جنوا القديمة أضطرت أمام هـــذه الموجة الثورية أن تعيد النظر فى قوانينها الدستورية ، وأن تدخل المبادىء الديمقراطية فيها ، وأن يطلق على نفسها اسم الجمهورية الليجورية .

أما عن زميلتها جمهورية البندقية فقد ضاع استقلالها بعد أن وافق نابليون - ترضية للنمسا - أن يضمها الى الممتلكات النمساوية فى معاهدة كامبوفورميو .

كذلك لم تنج الولايات البابوية من قبضة نابليون ، فأرغم البابا على توقيع صلح تولنتينو (فبراير ١٧٩٧) ، تنازل بمقتضاه لفرنسا عن أفنيون، وكذلك عن المدن التى ضمت الى جمهورية شمال ايطاليا التى أشرنا اليها من قبل .

ولكن علاقة فرنسا بالبابوية سرعان ما تدهورت حين قام اهالى روما بثورة ضد البابا المطالبة بالنظم الديمقراطية بتشجيع من فرنسا . وسرعان ماطرد البابا بيوس الثالث من روما ، ووضعت السلطة فى يد مجلس يتكون من سبعة قناصل فى ظل نظام جمهورى . ولكن هذه الجمهورية لم تعمر طويلا لأنها كانت من صنع فرنسا ، كما أن الفرنسيين لم يحسنوا معاملة سكان روما .

أما عن جمهورية شمال ايطاليا التى أنشأها الفرنسيون ، فنجد أن مجلسها أراد أن يتخذ لنفسه اسلوبا خاصا فى حكم الجمهورية يبعدها عن سيطرة فرنسا الكاملة عليها . ولكن هذا الاتجاه الجديد لم يرض فرنسا فقامت بعملية تطهير فى المجلس خلصتها من العناصر ذات النزعة الاستقلالية ، وأرجعتها مرة ثانية الى حظيرة فرنسا بصفة تامة ،

كذلك قامت فرنسا بانتزاع بيدمونت من مملكة سردينيا وضمها إليها بعد طرد الملك . وأيضا فعلت نفس الشىء بالنسبة لدوق توسكانيا.

أما مملكة نابولى التى كان يحكمها فرع من اسرة البربون ، فقد استغل ملكها فرديناند الرابع فرصة هزيمة الفرنسيين فى مصر ، وقام بهجوم مفاجىء على الحامية الفرنسية فى روما ، وانتصر عليها ، ودخل روما وطرد الجمهوريين منها . ولكن لم تلبث فرنسا أن عززت قواتها وهاجمت نابولى واحتلتها وطردت الملك، واقامت بها جمهورية جديدة باسم « الجمهورية البارثينوبية » . ورغم نجاح الفرنسيين إلا انهم قد لاقوا مقاومة شعبية شديدة من قبل الاهالى ، استنزفت قواهم ، وكبدتهم خسائر جسيمة .

لم يكن للجمهوريات التى أنشأتها فرنسا خارج حدودها ، ولاسيما فى ايطاليا، سلطان حقيقى الى جانب سلطان فرنسا ، فهذه الجمهوريات كانت توابع لفرنسا ،

رغم مظاهر الحياة الدستورية فيها . ولم يكن حكم فرنسا لهذه الجمهوريات لصالحها بقدر ما كان لصالح فرنسا . ولهذا لا نستطيع القول بأن حكم فرنسا لايطاليا كان خاليا من الشوائب . ومع ذلك ، فان ادخال النظم السياسية والاجتماعية الفرنسية -وهي دون شك أرقى من النظم التي كانت سائدة في ايطاليا- ابعد الأثر في حركة اليقظة القومية التي اجتاحت ايطاليا بعد انتهاء حكم نابليون .

كذلك نجد أن فرنسا ولو انها لم تعمل على توحيد ايطاليا توحيدا كاملا ، إلا أنها حاولت ذلك على يد القائد الفرنسي مورا الذي حاول توحيد ايطاليا كلها تحت حكمه ، واتخذت خطوات في هذا السبيل خلال عامي ١٨١٤ ، ١٨١٥ عندما أعلن قيام « ايطاليا المتحدة » . ولكن محاولته لم تكلل بالنجاح فهزم واعدم . ومع ذلك ظلت ذكراها تتردد في نفوس الايطاليين الى أن تحققت الوحدة .

لم يعمل انتصار الحلفاء على نابليون على تحسين الحالة في ايطاليا، بل رجعت الى ما كانت عليه قبل حروب نابليون، فيما عدا بعض التغيرات الطفيفة التي لم تغير من الأمر شيئا، مثل انضمام البندقية الى النمسا، وجنوا إلى مملكة بيدمونت التي سيصبح مركزها مشابها لمركز بروسيا بالنسبة لألمانيا. فعلى اكتاف كلا المملكتين ستقوم الوحدتان الايطالية والالمانية .

كذلك أعيدت مملكة نابولى الى الوجود تحت حكم اسرة البربون مع تعهد سرى من قبل ملكها ، بألا يمنح شعبه دستورا إلا بعد الحصول على موافقة النمسا . وكان مترنيخ في ذلك الوقت يخشى من النظم الدستورية الثورية على كيان الامبراطورية النمساوية المجرية .

كما اعيدت الولايات البابوية الى ماكانت عليه . وأما بقية الولايات

والدوقيات الايطالية الأخرى مثل لمبارديا ومودنيا وتوسكانيا وبارما فكانت جميعها توابع للنمسا .

وكما عادت الملكيات الى ايطاليا عاد رجال الدين الى نفوذهم القديم، وزالت حرية الدين والفكر التى ادخلها الفرنسيون ، ورجع نظام محاكم التفتيش ، وألغى نظام التطعيم والاضاءة .

دعت تلك السياسة الرجعية الى سيادة روح التذمر والاستياء فى ايطاليا ، لاسيما وأن قرارات مؤتمر فينا كانت جارحة لكرامة الايطاليين . فمنع المؤتمر تكوين لجنة للنظر فى شئون ايطاليا بعكس ما حدث بالنسبة لألمانيا .

رجعت الى ايطاليا كل مساوىء الحكم السابق تشد من أزره وتعضده موجة الاستبدادية التى اجتاحت أوربا بعد سقوط نابليون .

اتخذت حركات المقاومة للنفوذ الأجنبي والعمل من أجل الوحدة شكل جمعيات سرية انتشرت فى كل ارجاء البلاد ، وأهمها جميعا جمعية الكاربونارى التى عملت على اندلاع نار الثورة فى نابولى عام ١٨٢٠ ضد ملكها فرديناند ، وأرغمه الثوار على قبول حكم دستورى. كذلك قام أهل بيدمونت بثورة فى العام التالى . ولكن سرعان ما قضت النمسا على الثورة الاولى بكل شدة وعنف . وكذلك كان مصير الثورة الثانية .

وفى جنوه ألتف القارون من بيدمونت بمازينى ، وكان شابا يتقد حماسة ، آمن بالوحدة كهدف وغاية ، واعتبر الكفاح فى سبيل ذلك واجب مقدس على كل مواطن ، ونادى بايطاليا « الحرة المتحدة من الألب الى المحيط » .

وعندما قامت الثورة فى فرنسا عام ١٨٣٠ انتقل صداها الى ايطاليا

حيث ظهرت فى أماكن متعددة من إيطاليا دفعت مازينى إلى انشاء جمعية «إيطاليا الفتاة» فى مارسيليا ، التى سرعان ما بلغ أعضاؤها ٦٠ ألفا . وكانت الأحداث تتوالى سراعا وتؤجج حركة التذمر فى النفوس ، وتعد الإيطاليين لتقبل المزيد من التضحيات فى سبيل تحقيق الوحدة .

وفى ١٨٣١ يعتلى عرش بيدمونت الملك شارل ألبرت ، وكان من أنصار الوحدة ، وممن يؤمنون بها ، ولذا أظهر عطفه على دعوة جيوبرتى الاصلاحية ، فأخذت الأنظار تتجه اليه كقائد لحركة النضال من أجل الوحدة .

وكلما مر الوقت كلما زادت قوة جمعية ايطاليا الفتاة ، وزاد اقتناع الناس بأن الوحدة لن تتحق عن طريق المطالبة بالاصلاح كما يدعو بذلك المعتدلون ، ولكنها تصبح حقيقة واقعة بالثورة المدمرة . والحقيقة أن دعوة أنصار إيطاليا الفتاة إنما هى رد فعل طبيعى لسياسة كل من مترنيخ وفرديناند القائمة على منتهى الشدة والبطش والقمع والارهاب .

البابا بيوس التاسع وقضية الوحدة

ويمكننا القول بأن ايطاليا قبل أن ينتصف القرن التاسع عشر قد اجتاحتها تيارات ثلاثة كلها تهدف إلى الوحدة : التيار الأول وهو تيار المعتدلين المنادين بالاصلاح . والثانى تيار الثورة ، والثالث تيار يتزعمه البابا بيوس التاسع وهو تيار معتدل ويمكن إلحاقه بتيار المعتدلين المصلحين . وكان الناس فى ذلك الوقت فى شبه ذهول ، لأن أبعد ما كان يتصورره أن يروا بابا محبا للحرية والديمقراطية .

بدأت حركة البابا بيوس التاسع بداية متواضعة بعد اعتلائه كرسى البابوية فى منتصف عام ١٨٤٦ ، كان يؤمن بالفكرة التى نادى بها جيوبرتى وهى أن البابوية يجب أن تتبنى قضية الوحدة ، وأن تقود البلاد إلى الحرية والوحدة . ومع أن

الرجل لم يكن له دراية بالسياسة ، ولم يكن مدركاً لخطورة العمل الذى تصدى له ، ولا للعقبات التى تعترض طريقه ، إلا أنه كان يظن فى نفسه محط آمال الشعب الإيطالى ، وأن العناية الالهية قد أصطفته القيام بهذه المهمة المقدسة .

بدأ البابا عمله بإصدار عفو عام عن كل المسجونين السياسيين والمنفيين ، فكان لهذا القرار مفعول السحر لدى الجماهير التى وجدت فيه المنقذ والمخلص ، والتى التفت حوله تؤيده بكل قوة وحماس . ثم أعقبت هذه الخطوة بتخفيف الرقابة على الصحف وتعديل نظم الحكم .

كان لتلك الإجراءات التى لا نصفها بالثورية الحقة صداها فى كل أنحاء إيطاليا فارتعدت فرائص الحكام المستبدين ، وخشى مترنيخ من تطور الأمور فى غير صالح النمسا ، وأخذت القوى الرجعية تتحفز للقضاء على روح الثورة . ولكن رغم ذلك ظل البابا سائراً فى الطريق الذى رسمه لنفسه ، وإن كان لا يلتقى مع طريق الثوار ، إلا أنه بداية مبشرة على كل حال .

وقد وجدت الخطوات التى خطاها البابا من إنشاء مجلس الوزراء لمناقشة المسائل العامة وتأسيس مجلس بلدى لمدينة روما استحساناً من مازينى الذى ذهب فى تفاؤله بهذه الإجراءات إلى حد أنه ظن بأن الوحدة قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى من التحقيق .

على أن البابا لم يكن مستعداً لأن يذهب مع الثوار إلى الحد الذى يريدونه ، لاسيما وأن الثورات التى قامت فى أنحاء إيطاليا متأثرة بموقفه قد أزعجته ، ولكن اندفاع الجماهير وراءه جعل من الصعب عليه الانسحاب أو التراجع دفعة واحدة ، فالخوف من عواقب التراجع هو الذى دفعه إلى المضى قدماً نحو الأمام على طريق الثوار .

فنى عام ١٨٤٨ يعلن إصدار الدستور الجديد، على أن تكون الهيئة التشريعية فى يد مجلسين ، ولكنه أبقى سلطات مجلس الكرادلة المقدس كجزء من النظام السياسي الجديد » ، ولم يكن للهيئة التشريعية الحق فى اصدار قوانين تتعارض مع قوانين الكنيسة . فهذا القيد قلل الى حد كبير من سلطة البرلمان فى التشريع ، وجعل سلطة الكنيسة فوق متناول البرلمان .

وفى ذلك الوقت تحدث حادثة تضع البابا فى مكانه الصحيح من القضية الايطالية ، وذلك بقيام الحرب بين ايطاليا الشمالية والنمسا ومعارضة البابا لاشتراك روما فى تلك الحرب . ولما كانت الحرب تمثل صراع القوى التحررية فى ايطاليا ضد قوى الاستبداد ممثلة فى النمسا كقوة أجنبية ، فقد فسر موقف البابا على أنه قد تخلى عن ركب الاحرار . وسرعان ما بدأت ردود الفعل قوية فى روما ، فاغتيل وزير البابا الأول ، وأخذت تسيطر على مجريات الأمور فى روما العناصر المتطرفة الميالة الى الشدة والعنف . وأمام هذا التيار الجارف الذى لا قبل البابا عليه يفر من روما ملتجئا الى جايتا Gaeta بمملكة نابولى . حاول البابا بهذا العمل أن يتنصل من نتائج عمله ، فالثورة التحررية كانت أقوى منه ، وكانت تتعدى مفهومه للحرية التى أرادها .

وقد حاول حكام ايطاليا الآخرين محاكاة البابا بيوس التاسع فى خطوته التحررية لأسباب متعددة ، منها محاولتهم منافسة البابا فى ذيوع الصيت وتحويل انظار القوى التحررية فى ايطاليا اليهم . أو خوفا من غضبة الجماهير ومطالبتها بتطبيق نظم أكثر تحررا مما هم خاضعين له . أو كسبا للوقت ومداراة الجماهير ريثما يتمكن من ضرب الحركة التحررية فى وقت ملائم .

على أى حال سار الملك فرديناند ملك نابولى وصقلية فى نفس الاتجاه الذى

مملكة البابا ، بل لقد سبق البابا فى منح مملكته دستورا ، مما دفع البابا الى محاكاته.
وخلاصة الحركة التى قامت فى نابولى أن انتشار المبادىء الثورية فى الجنوب دعا سكان مدينة بالرمو Palermo بجزيرة صقلية أن يوحدوا صفوفهم ، وأن يطالبوا الحكومة فى بيان أصدروه فى يناير ١٨٤٨ بتطبيق نظم جديدة تمشى وروح العصر الحديث . وعززوا تلك المطالب بالثورة والاستيلاء على المدينـــة ودحر قوات الملك الذى وجد ألا قبل له على مواجهة الثورة فوافق على الاستجابة الى مطالب الجماهير،وعلى منحهم دستورا،بعد أن أصدر عفوا عن المعتقلين السياسيين.

كذلك انتقلت دعوى القومية الى دوقية توسكانيا ، وطالب الأهالى الدوق الأعظم ليوبولد الثانى بحكم البلاد حكما تحرريا،فتظاهر بالموافقة وقام ببعض تنازلات زائفة لم ترض أهالى البلاد ، فاضطر الى منحهم دستورا شبيها بدستور نابولى .

بيدمونت وقضية الوحدة

على أن أخطر حركة قامت فى ايطاليا هى حركة بيـــدمونت (مملكة سردينيا) ، نظرا لتوافر بعض المقومات التى لم تتوافر لأية ولاية أخـــرى فى ايطاليا ، فأولا كان على رأس تلك المملكة الملك شارل البرت المعروف بعدائه الصريح للنمسا ورغبته الأكيدة فى قيام وحدة ايطالية تحت زعامته . ولكنه لم يكن يميل الى الثوريين ويخشى من اتجاهاتهم على سلامة مملكته . وكان يؤثر أن يحكم ايطاليا كملك مستبد وأن يقوم بالوحدة دون معاونة القوميين التحرريين .

ثانيا : كان بمملكة بيدمونت صحافة قومية لها خطرها وتتمتع بشىء من الحرية ، وتؤمن بقضية الوحدة ، وتضعها فى المقام الأول .

ثالثا : وجود الكونت كافور Count Cavour، وكان يرأس تحرير صحيفة البعث Risorgimento ، وممن يؤمنون بالوحدة ويكرسون لها جهودهم ،

ودوره فى قيام الوحدة الايطاليــة يفـوق دور مازينى وغاريبالدى والبابا بيوس التاسع.

طالب القوميون الايطاليون الملك شارل بمنح البلاد دستورا يتمشى ورغبات البلاد وآمالها المراض فى الحرية والوحدة ، وكان الملك لا يعارض فى الوحدة ، ولكنه كان يعارض الحرية الدستورية خوفا على عرشه . ووجد الملك أن عليه سلوك أحد طريقين أما الرفض ومواجهة غضب الشعب ، أو النزول على رغبة اهالى البلاد وتجنيب البلاد الفوضى والاضطراب . وتم بالفعل إصدار دستور فى فبراير سنة ١٨٤٨ على نمط الدستور الانجليزى . وبذلك وضــع الملك شارل اساس الحكم الدستورى الذى سيسود ايطاليا الموحدة فيما بعد .

أمام هذه الموجة العارمة من الثورات التى اجتاحت ايطاليا فى مستهل عام ١٨٤٨ متأثرة بثورة فرنسا (فبراير ١٨٤٨) ضد ملكها لوى فيليب ، كان لا بد أن يتزعزع النظام الاستبدادى النمسوى الذى يسيطر على شمال ايطاليا وعلى دوقيتى بارما ومودينا ، والبندقية . لا سيما بعد قيام الثورة فى النمسا وفرار مترنيخ (مارس ١٨٤٨) حامى الاستبدادية وعدو الحركات التحررية الأول . فقامت الثورة فى ميلان ، وأطاحت بحكم النمسا ، وكذلك فعلت بحكومات البندقية وبارما ومودينا .

انقسمت ايطاليا الى قوتين متصارعتين ، قوة النمسا المعادية لحركة التحرر والوحدة ، وقوة الثوار فى مختلف اجزاء ايطاليا تؤيدهم وتؤازرهم قوة مملكة سردينيا . وكان الاحتكام الى السلاح هو الوسيلة الوحيدة لحماية الحرية من أعدائها . كما أن النمسا لم يكن من السهل عليها أن تقبل الهزيمة صاغرة ، وأن تستسلم لأنصار الحرية ، وهى التى لم تدخر وسعا منذ هزيمة نابليون على اقرار

الأوضاع الاستبدادية فى اوربا بمختلف السبل .

وإذا قارنا بين المعسكرين المتناحرين قبل خوض المعركة نجد :

اولا : أن معسكر النمسا كان يفوق معسكر الوطنيين الايطاليين بأشياء ، منها حسن تنظيم الجيش النمسوى واستعداده إذا ما قورن بجيش الولايات الايطالية .

ثانيا : كان لا يزال على رأس الجيش النمسوى القائد الكبير رادتسكى ، وهو من أكبر قواد ذلك العصر ، ولم يكن يقابله أحد فى المعسكر الايطالى .

ثالثا : لم يكن تضامن الولايات الايطالية قويا ، فالحزازات القديمة التى كانت بينها أخذت تنعكس على تصرفاتها خلال المعركة ، وكان لهذا أسوأ الأثر على المعسكر الايطالى .

رابعا . الاختلاف الواضح بين الولايات الايطالية حول شكل الحكم فى ايطاليا بعد اتمام الوحدة ، فكل من الملكيين والجمهوريين كان يريد أن تكون له الغلبة فى النهاية .

وكان الفوضويون يقفون لمحاربة الطرفين بالمرصاد . وفى ذلك الوقت ظهر مازينى على مسرح الاحداث فى ميلانو وحاول أن يعبىء أنصار الجمهورية للاستفادة من الموقف والاطاحة بأتباع الملكية .

كذلك كان نظام الحكم مثار جدل بين الايطاليين ، فهل تتم الوحدة فى صورة اندماج ، أم تنشأ بين الولايات الايطالية جامعة ايطالية أو رابطـــة . كل تلك الاشياء كانت مثار نزاع داخل المعسكر الايطالى ، ولم يصل فى شأنها الى اتفـاق يرضى جميع الاطراف المعنية بالأمر .

خامسا : لم يكن كل حكام الولايات الايطالية تقريباً مخلصين فيما اتخذوه

من خطوات دستورية تحت ضغط الأهالي. ولذا ما أن منى المعسكر الايطالي بالهزيمة إلا وتنكر كل حاكم للدستور وانقلب عليه وانضم للمعسكر الرجعى، وكان معولا لهدم مكاسب الشعب .

سادسا : استنكار البابا للحرب قد شجع الحكام الايطاليون على عدم الاستمرار فيها . وكان هذا الموقف من قبل البابا بيوس التاسع فيه نهايته كشخصية مؤثرة فى مجريات الأحداث فى ايطاليا ، خصوصاً وأن فراره الى جيتا قد اخرج الأمر من يده ووضعه فى أيدي الجمهوريين .

من هذا العرض الموجز لأمكانيات كلا الطرفين المتصارعين يتبين لنا أن النمسا سيكون لها الغلبة فى النهاية رغم ما أصابها من هزائم فى أول الأمر . ففى معركة كستوزا Custozza (٢٥ يوليو ١٨٤٨) اندحرت قوات ايطاليا تحت قيادة شارل ألبرت ملك سردينيا أمام قوات النمسا بقيادة رادتسكى فتنهـــار آمال الايطاليين وتنسحب فلول جيش شارل البرت ، ويرفض غريبالدى التسليم ويعتصم بالجبال لمواصلة حرب العصابات ضد النمساويين .

كانت الهزيمة بمثابة إشارة البدء للحكام المستبدين فى الولايات الايطالية - فيما عدا مملكة سردينيا - لتقويض النظم الدستورية التى منحوها لشعوبهم . وسادت ايطاليا موجة من الحكم الرجعى الاستبدادى بمد موجة من البطش والتنكيل والاعتقال .

أعلنت الهدنة بين الطرفين المتحاربين توطئة لوضع التسوية النهائية . وعندما رفضت سردينيا قبول شروط الصلح النمساوية استأنفت القتال من جديد، وحدثت بين الجانبين معركة نوفارا Novara (٢٣ مارس ١٨٤٩) انهزم فيها الملك شارل البرت ، واضطر فى النهاية الى التنازل عن العرش لابنه الملك فيكتور عمانويل الذى ستتم على يديه الوحدة الايطالية .

حاول البابا بيوس التاسع ان يسترجع عرشه المفقود فى روما ، ولم يكن فى

استطاعته أن يزحزح الحكم الجمهورى الثلاثى الذى أقامه مازينى Mazzini وأرمللى Armellini وسافى Saffi والذى أستند على قوة غاريبالدى العسكرية . ولم تكن تلك الحكومة تواجه عداء البابا فحسب ، بل عداء النمسا أيضا التى لا ترضى بأى حال من الأحوال بقاء تلك الحكومة الثورية فى إيطاليا .

لم يكن يهم البابا شيئا فى إيطاليا سوى استعادة ملكه ، ولو كان ذلك على حساب شعب إيطاليا وكرامته وعلى حساب قضية الوحدة. فرأى أن يستعين بقوة خارجية ، وكانت فرنسا فى عهد لوى نابليون (نابليون الثالث) على استعداد القيام بهذا الدور . لاسيما وأن إيطاليا كانت المجال الطبيعى لمنافسة النمسا. زحفت قوات فرنسا فى اتجاه روما ، فقوبلت بمقاومة شديدة من قوات غاريبالدى ردتها على أعقابها خاسرة ، فعاودت القوات الفرنسية الكرة مرة ثانية ونجحت فى دحر قوات غاريبالدى وإرغامه على الفرار فى نهاية الأمر .

أما البندقية التى خرجت عن حكم النمسا وأقامت نظاماً جمهورياً ثورياً لم تقو على مواصلة القتال بعد إنتصار النمساويين ، فخرت مرة ثانية صريعة الحكم النمساوى الاستبدادى .

أثبتت ثورات ١٨٤٨ فى إيطاليا مدى استعداد الشعب الإيطالى على التضحية فى سبيل الوحدة ، ومدى الحماسة لدى الجماهير لهـذا المطلب المقدس . ولكنها أثبتت فى نفس الوقت أن وجود قوتين كبيرتين تتصارع النفوذ فى إيطاليا ، وهما النمسا وفرنسا. ولاسيما النمسا يحول دون قيام تلك الوحدة. كما أنها أثبتت أيضاً أنه دون معونة خارجية يتعذر تحقيقها. ولذا كان على إيطاليا أن تلجأ إلى قوة خارجية تعينها على بلوغ تلك الغاية . وكان هناك مجال كبير لاستغلال التنافس القائم بين

الدولتين الكبيرتين النمسا وفرنسا فى تحقيق الوحدة . ولقد اختارت إيطاليا جارتها فرنسا لمعاونتها فى هذا السبيل .

ولكى تحصل مملكة سردينيا على تأييد فرنسا زجت بنفسها فى حرب القرم إلى جوار فرنسا وانجلترا وتركيا ضد الروسيا . ولم يكن لسردينيا مصلحة فى خوض تلك الحرب سوى كسب رضاء فرنسا ، والاعتراف بها كدولة لها شأنها فى مؤتمر الصلح . وقامت بإمداد حليفاتها بـ ١٥٠٠٠ جندى مساهمة منها فى تلك الحرب .

لم تذهب محاولات التحرر والوحدة التى قامت فى ١٨٤٨ أدراج الرياح ، فهى وإن فشلت فى الظاهر إلا أنها قد نجحت إلى حد كبير فى إيقاظ الوعى القومى فى إيطاليا بصورة واضحة ، وكان العامل الأكبر فى ذلك مازينى الذى كان يؤمن إيمانا عميقاً بالقومية الإيطالية ، فإيطاليا المتحدة المتحررة الجمهورية الديمقراطية هى المثل الأعلى الذى يسعى جاهداً إلى تحقيقه .

ولم يكن التعلق الشديد بالقوميـــة ، والتغنى بها ، وبذل الروح والنفس فى سبيلها بغريب عن القرن التاسع عشر ، عصر القوميات ، عصر بزوغ شمس الدول القومية التى أثرت فى تاريخ أوربا تأثيراً كبيراً من الناحيتين السياسية والعسكرية .

حكمت النمسا شمال إيطاليا بعد فشل ثورات ١٨٤٨ حكماً استبدادياً مطلقاً ، وانعكس هذا النوع من الحكم على ولايات وسط إيطاليا ، وممتلكات البابا ، ومملكة نابولى . ووجد ملوك وحكام تلك الولايات فى النمسا السند الطبيعى لحكمهم الاستبدادى . ولم يكن هناك فى حقيقة الأمر فى كل إيطاليا مكان يرفرف عليه علم الحرية المثلث الألوان ، ويلجأ اليه الأحرار الفارين من بطش الطغاة المستبدين سوى مملكة سردينيا .

كافور وحركة الوحدة

وبوصول كافور الى منصب الوزارة في عام ١٨٥٢ تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ حياة إيطاليا ، وفي تاريخ الوحدة الإيطالية . تشبع كافور في شبابه بالآراء التحررية ، وانغمس في الحياة السياسية في إيطاليا. وقد ساعده على تفهم التيارات السياسية في أوربا وقتذاك سفره إلى إنجلترا وفرنسا ودراسته الاوضاع السياسية في هاتين الدولتين الكبيرتين . وكان يؤمن بالشعب ويرى أن الثقة به هي السبيل لتحقيق آمال إيطاليا في الحرية والوحدة . وأهم ما تمتاز به سياسة كافور هي واقعيته ، وإدراكه الحقيق للعقبات التي تعترض طريقه للوصول إلى غايته المنشودة ورغم إيمانه بالشعب وبقدرة مملكة سردينيا على جمع قلوب الإيطاليين حولها وصولا إلى الوحدة ، إلا أنه كان يعلم أن الايطاليين لن يستطيعون وحدهم تحقيق الوحدة ، وأن من الحكمة الاعتماد على قوة خارجية تساندهم وتشد من أزرهم . وقد وجد كما اسلفنا في حرب القرم الفرصة لكسب حلفاء وأصدقاء ، فاشترك فيها وأبلى الإيطاليون بلاء حسنا في موقعة سرنايا Cernaya . وأستطاع كافور بذلك أن يجلس على مائدة الصلح في مؤتمر باريس ١٨٥٦ ، وأن يعرض قضية بلاده على الاعضاء ، وأن ينال عطف وتأييد انجلترا ، وأن يعترف بمملكة سردينيا كدولة لها أثرها في مصير ايطاليا ولها مكانها في الأسرة الأوربية .

كانت حرب القرم تجربة للتعاون بين سردينيا وفرنسا أسفرت عن توطيد العلاقات بين البلدين ، وكسب كل من نابليون الثالث وكافور الثقة في الآخر . ومن هذه النقطة بدأ كافور يواصل مساعيه لزيادة الترابط بين البلدين ، والعمل على كسب نابليون في صف القضية الايطالية مستغلا العداء التقليدى بين فرنسا والنمسا .

وفي بلدة بلومبيير Plombiéres تقابل العاهلان (٢١ يوليو ١٨٥٨)

بدعوة من نابليون الثالث . وهناك تم الاتفاق بين الاثنين على أن تقوم فرنسا بتأييد سردينيا إذا ما دخلت الأخيرة الحرب ضد النمسا بشرط أن تتنازل سردينيا لفرنسا عن نيس وسافوى ، وأن يزوج الملك فيكتور عمانويل ملك سردينيا ابنته الى ابن عم ملك فرنسا . على أن يتم قيام مملكة ايطاليا تحت حكم فيكتور عمانويل فى شمال ايطاليا بعد طرد النمساويين ، وأن تدخل تلك المملكة فى رابطة اتحادية تضم كل ايطاليا تحت رئاسة البابا .

وكان نابليون الثالث يهدف من وراء تلك الصفقة الى تحقيق أهداف ثلاثة : الأول القضاء على نفوذ عدوته النمسا فى ايطاليا . والثانية كسب أراض جديدة فى ايطاليا لضم نيس وسافوى . والثالثة إرضاء الكاثوليك فى فرنسا بتعيين البابا رئيسا للاتحاد الجديد . هذا بالاضافة الى أن الدولة الايطالية الجديدة ستكون على علاقة طيبة بفرنسا اعترافا بفضلها فى قيام الوحدة .

وفى نهاية عا ١٨٥٨ وقع الطرفان الفرنسى والسردينى معاهدة سرية تنص على تعهد فرنسا بامداد سردينيا بمئتى ألف رجل فى حالة دخولها الحرب ضد النمسا .

أخذ كافور - بعد أن اطمأن الى حليفه - فى تلمس الأسباب والمبررات لشن حرب على النمسا . ولكن بعد أن أعيته الحيل قدمت النمسا له تلك الفرصة بنفسها عندما وجهت انذارا الى مدينة تورين بنزع سلاحها ، وعززت هذا المطلب بارسال قواتها الى بيدمونت (١٩ ابريل ١٨٥٩) .

تكتلت معظم قوات حكام الولايات الايطالية خلف بيدمونت فيما عدا البابا بيوس التاسع الذى رفض الانضمام الى المعسكر الايطالى وكذلك ملك نابولى ، وكانت أبرز شخصيات هذا المعسكر الحربية غاريبالدى الذى كان يقود جماعة « صيادى الألب » ، وهم من المغامرين الايطاليين شديدى البأس والقوة .

أما معسكر النمسا فكان يضم جيشين . جيش النمسا الاتحــــادى ، ووقف الى جانبه على أهبة الاستعداد الجيش البروسى ، بحكم أن بروسيا دولة المانية شأنها شأن النمسا ، وأن من صالح الدولتين فى تلك المرحلة أن يتكاتفا ضد تدخل فرنسا وضد القوات الايطالية .

وفى ساحة القتال الشهيرة بشـــمال ايطاليا إلتقت قوات بيدمونت توازرها قوات فرنسا بالجيش النمسوى فى معركة ماجنتا Magenta (٤ يونيو ١٨٥٩) انتصرت فيها القوات الفرنسية الايطالية ، وتقهقرت أمامها قوات النمســا حيث التقى الطرفان مرة ثانية فى سولفرينو Solferino (٢٤ يونيو ١٨٥٩) انتصر فيها الجانب الفرنسى الايطالى بفضل قوة فرنسا .

وفى الوقت الذى وصلت فيه القوات الفرنسية الايطالية المتحالفة الى ذروة انتصاراتها ، ولاح للايطاليين أن الوحدة أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الظهور ، انقلب موقف الامبراطور نابليون الثالث فجأة من التحمس الشديد الى الرغبة فى إنهاء الحرب والثمرة على وشك النضوج .

ولنتساءل ما هى الأسباب التى دفعت الامبراطور الفرنسى الى الوقوف هـذا الموقف المفاجىء ، لا سيما وأن قواته قد انتصرت على قوات النمسا ، وأصبح الطريق ممهدا لقيام وحدة ايطالية ، بعد انحسار النفوذ النمسوى كلية عن ايطاليا .

اذا حاولنا تفسير هذا المسلك فى ضوء الظروف السياسية التى أحاطت بتلك الحرب ، نجد أن نابليون الثالث بعد انتصاره على النمسا قد حقق ما كان يصبو اليه من القضاء على نفوذ النمسا فى ايطاليا ، وفى نفس الوقت قام بالتزاماته كاملة ازاء بيدمونت ، ووجد أن الاستمرار فى الحرب ليس من مصلحة فرنسا فى شىء، فمواصلة عدائه للنمسا سيجر عليه سخط بروسيا التى كانت تقف قواتها على أهبة

الاستعداد لنصرة الالمانيين النمساويين ، خصوصاً وأنها دخلت فى مفاوضات سياسية مع انجلترا وروسيا بشأن التدخل فى النزاع القائم بين النمسا وفرنسا .

ثانياً : شعور نابليون الثالث بعد انتصار الايطاليين أن قيام وحدة ايطالية على حدود فرنسا الشرقية ليس من مصلحتها فى شىء . فمهما كان عداؤه للسياسة النمساوية فى ايطاليا ، فهذا العداء أهون عليه من قيام دولة موحدة فتية الى جوار فرنسا .

ثالثاً : أن انتهاء الحرب على هذه الصورة - رغم انتصار فرنسا - فيه خدمة كبيرة للنمسا التى كانت حريصة على إنهاء الحرب بأى ثمن كى تستطيع تضميد جراحها . فإتمام صلح بين الدولتين بمنح النمسا امتيازات قليلة فى ايطاليا فيه ترضية كبيرة للنمسا . وكان نابليون حريصاً على رضائها ليتخذ منها حليفاً فى المستقبل إذا ما ساءت العلاقات بينه وبين بروسيا ، مستغلا التنافس الموجود بين الدولتين الالمانيتين النمسا وبروسيا .

لكل تلك الاسباب مجتمعة رأى نابليون الدخول فى مفاوضات مع النمسا دون علم بيدمونت أو موافقتها ، فيرسل مبعوثه الجنرال فليرى Fleury الى عاهل النمسا فرنسيس جوزيف يعرض عليه الهدنة توطئة لعقد صلح بين الطرفين .

وجد هذا العرض أيما ترحيب من الجانب النمسوى، لا سيما وأن الاحوال فى النمسا كانت مضطربة ، هذا فضلا عن خوف الامبراطور النمسوى من منافسة بروسيا فى الشئون المالية . تقابل العاهلان فى فيلافرانكا Villafranca حيث وقعا الهدنة (٨ يوليو ١٨٥٩) . وبعد ذلك تم التصديق على مقدمات

الصلح (١١ يوليو ١٨٥٩) ، وتنص على اعتراف الدولتين بقيام اتحاد ايطالى برئاسة البابا من الناحية الاسمية ، مع حثه على ضرورة ادخال اصلاحات فى ممتلكاته ، وأن تتنازل النمسا عن لومبارديا لبيدمونت ، وأن تستمر سيطرة النمسا على البندقية مع دخولها الاتحاد الايطالى . وكذلك عودة حكام مودينا وتوسكانيا وبارما الى مناصبهم من جديد . على أن تعرض تلك القرارات على مؤتمر للدول المعنية بالأمر للعمل على إقراره.

كان هذا الاتفاق بين الدولتين ضربة شديدة وجهت الى بيدمونت بصفة خاصة والى الايطاليين بصفة عامة . فالترحيب الحار الذى لقيه نابليون الثالث فى ايطاليا كنصير للحرية والوحدة انقلب الى سخط شديد . بل لقد اتهمه الايطاليون بخيانة القضية الايطالية والتغرير بهم وتسليمهم الى اعدائهم .

لكن الامور لم تسر وفق ما يشتهى نابليون فقد عارضت ولايات رومانا وبارما وتوسكانيا ومودينا عودة الحكام السابقين، وقامت بثورة مطالبة الانضمام فى وحدة تحت حكم الملك فيكتور عمانويل . كما وقف البابا من تشكيل الاتحاد الايطالى موقفاً سلبياً ، بل هو أقرب إلى المعارضة منه إلى السلبية .

أدرك كافور أنه لن يستطيع حل مشكلة وسط ايطاليا إلا بالتعاون مع نابليون الثالث ، وكان مستعدا لدفع الثمن الذى تعهد به لنابليون من قبل ثمنا لتحالفه ، أى إعطاء نيس وسافوى لفرنسا . ولكن كافور رأى أن يتبع فى ذلك اسلوبا يرضى عنه الايطاليون ، ألا وهو إجراء استفتاء عام فى كل ولايات وسط ايطاليا بما فيها نيس وسافوى . فأسفر الاستفتاء عن فوز فرنسا بنيس وسافوى بأغلبية كبيرة ، أما باقى الولايات فقد طالبت بالدخول فى وحدة مع مملكة سردينيا أو ما أصبح يطلق عليها فى ذلك الوقت اسم « ايطاليا » .

تكونت ايطاليا الجديدة مما يزيد قليلا في مساحته عن نصف حجم ايطاليا، وبقيت الممتلكات البابوية ومملكة نابولي والبندقية خارجة عن الوحـــدة . وقد لقيت الوحدة مقاومة شديدة من البابا بيوس التاسع الذى انقلب رجعيا متطرفا ومن فرنسيس الثانى ملك نابولى . فكان على كافور أن يبذل المزيد من الجهد للتغلب على هؤلاء المعارضين واتمام الوحدة الكاملة .

فمن ناحية مملكة نابولى نجد أن الملك فرنسيس الثانى ما كان ليقبـــل ضياع ملكه من أجل قيام الوحدة فى ظل الملك فيكتور عمانويل . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن اهالى نابولى كانوا أكثر سكانا ايطاليا تخلفـــاً وتأخراً ، وأكثرهم خضوعاً لسلطان الكنيسة ، وأقلهم اهتماماً بقضية الوحدة ، وفهما لمضمون الحرية والوحدة . وليس معنى هذا أن نابولى قد حرمت كلية من وجود عناصر تؤمن بالحرية ، وتؤمن بالوحدة عن فهم وعمق .

وبدا لكافور أن ادخال نابولى فى نطاق الوحدة لن يتم إلا بالقـــوة مع استخدام الاساليب الدبلوماسية ، ووجد فى نفسه الرأس المفكر والدبلوماسى الذى لا يشق له غبار . ووجد فى غاريبالدى القوة الحربية المنشودة . فألتقى الرجلان حول هدف واحد رغم اختلاف كل منهما عن الآخر ، ورغم شك غاريبالدى وريبته فى كافور ، ولكن الظروف أجبرته على التعاون معه ، لأنه كان فى حاجة ماسة الى التأييد السياسى لمشروعاته الحربية .

أعد غاريبالدى قواته غير النظامية ذوى القمصان الحمراء ، وكان عددهم ١١٣٦ متطوعا خاض بهم البحر ـ رغم قلة عددهم ـ من جنوة الى جزيرة صقلية ،حيث نزل بمارسالا Marsala فى ١١ مايو ١٨٦٠ لمهاجمة مقر حكومة نابولى فى مدينة بالرمو . واستطاع بقواته الضئيلة العدد التى أبلت بلاءا مشهودا الاستيلاء على المدينة ودحر قوات الملك .

أحدث هذا النصر هزة عنيفة فى كل إيطاليا ، ولاسيما فى نابولى ، فأضطربت الأمور هناك ، وساعده ذلك على عبور مضيق مسينا والنزول فى الطرف الجنوبى من شبه الجزيرة الإيطالية لمواصلة ضرباته وإنتصاراته على القوى المعادية للوحدة ويمم غاريبالدى وجهة شطر نابولى حيث دخلها فى يوم ٧ سبتمبر بعد أن غادرها الملك فرنسيس بيوم واحد .

كان سقوط نابولى فى يد غاريبالدى نقطة تحول فى تاريخ الوحدة الإيطالية ، فكافور وجد أن الوقت قد حان لتسلم زمام المبادرة من غاريبالدى ، وأن الدور العسكرى يجب أن ينزوى ليفسح الطريق للدور الدبلوماسى ، خصوصاً وأن مقدرة غاريبالدى السياسية كانت محدودة جداً ، وكان كافور يعلم ذلك تمام العلم .

كذلك مما حدا بكافور لتولى زمام المبادرة تردد غاريبالدى بعد دخوله نابولى فى إعلان انضمامها إلى مملكة سردينيـــا ، فهذا التردد كان مدعاة للشك فى نوايا غاريبالدى فى المستقبل . ويبدو أن غاريبالدى قد أحجم عن البت فى هذا الموضوع لأن الأمور لم تكن قد تبلورت بعد ، فالملك فرنسيس رغم تركه نابولى مازال مقيما فى جايتا ، فالمسألة بالنسبة اليه لم تنته بعد .

هذا فضلا عن وجود قوتين أخريتين معارضتين للوحدة التامة داخل نابولى : الأولى وجود حزب قوى كان ينادى بدخول نابولى الاتحاد الإيطالى مع احتفاظها بنوع من الاستقلال الذاتى . والثانية تتمثل فى مطالبة أنصار مازينى بوحدة إيطاليا فى ظل النظام الجمهورى .

أما فى ممتلكات البابا فقد طالبت الحركات الشعبية بالوحدة وقامت الثورات فى مارش Marches وأومبريا Umbria ، وأعد البابا قواته لاخماد الثورة ، ولكن

كافور منعه من ذلك ، ودخلت قوات إيطاليا الممتلكات البابوية لتقضى على جيش البابا فى كاستلفيداردو Castelfidardo . وبعدها اتجهت صوب نابولى حيث توجد قوات غاريبالدى . وهناك أعلن غاريبالدى ضم نابولى إلى مملكة فيكتور عمانويل وحظى بمقابلة الملك الذى أثنى عليه لما قدمه من جهود وطنية صادقة من أجل تحقيق الوحدة . وبعد أن أدى غاريبالدى ماعليه من واجب رفض أى مظهر من مظاهر السلطان وآثر الخلود إلى السكينة فى مسكنه بجزيرة كابريرا Caperera .

وقد أسفر الاستفتاء الذى أجرى فى الممتلكات البابوية وفى نابولى وصقلية عن انضمامها إلى مملكة فيكتور عمانويل الدستورية . وبذلك تتحقق الوحدة الايطالية ويلقب فيكتور عمانويل بملك إيطاليا .

ويرجع السبب فى نجاح الوحدة إلى قوة كافور وحنكته السياسية ، وإلى ضمان حلفاء له فى مقاومته للنمسا . فانضمامه إلى فرنسا فى حربها مع النمسا ، وانتصار فرنسا فى تلك الحرب قد سهل له مهمته .

كذلك يرجع نجاح الوحدة إلى سوء سياسة النمسا الخارجية وإلى عطف انجلترا على أمانى الايطاليين .

وقد ضمت البندقية بعد الحرب النمساوية البروسية فى عام ١٨٦٦ . أما روما فضمتها إيطاليا نتيجة للحرب الفرنسية البروسية ، إذ اضطرت فرنسا الى سحب قواتها منها ، فدخلها الايطاليون فى ٢٠ سبتمبر ١٨٧٠ ، وكان على بيدمونت تطبيق دستورها على الولايات الايطالية ، والعمل على تحسين أحوالها المالية ، وتقوية جيشها ، وتدعيم الاستقرار السياسى . وكان نجاح الملكية الدستورية فى بيدمونت فى تكوين وحدة ايطالية عاملا على إضعاف قوة الملكيين المستبدين والجمهوريين المتطرفين .

كانت الحكومة الجديدة حائرة ، هل تمنح الولايات الايطالية نوعا من الاستقلال

الداخلى أم تتبع نظاما مركزياً ؟ ولكن هذه الحيرة لم تطل، فقد فضلت الأمارات الايطالية النظام المركزى ، وكان على الحكومة الجديدة القضاء على التشرد والجهل فى الجنوب، ومعالجة مسألة الكنيسة، وذلك لرفض البابا الاعتراف بالدولة الجديدة، وكذلك السير فى حركة إصلاح الجيش والتعليم والبحرية والشئون المالية .

وفى ١٨٧١ أصدرت الحكومة قانون الضمانات ، وبه أصبح البابا سيداً مستقلا فى الفاتيكان . ولكن البابا رفض الاعتراف بهذا القانون ، وظلت معارضة البابا للوضع الجديد فى إيطاليا من مصادر الضعف فى الحكومة الجديدة ، إلى أن تم للحكومة الاعتراف باستقلال الفاتيكان بمقتضى معاهدة لاتران فى ١١ فبراير ١٩٢٩ .

الفصل السابع

حركة الوحدة الألمانية

ظلت ألمانيا عبارة عن تعبير جغرافي طوال الثلاثة أرباع الأولى من القرن التاسع عشر تقريباً إلى أن ظهرت إلى الوجود كدولة موحدة منذ عام ١٨٧٠ . وكانت ألمانيا تتكون من ولايات كثيرة العدد تعد بالمئات قبل الغزو النابليونى لها . وبعض هذه الولايات كان مستقلا والبعض الآخر خاضعاً لنفوذ دولة أجنبية . كذلك كان بعضها يتبع النظام الملكى والبعض الآخر كانت ولايات دينية ، وفيها الدوقيات والمنتخبات . ففى هذه الولايات تمثلت جميع أنواع الحكم ، مثل الحكم الملكى الاستبدادى الذى عم الولايات الألمانية الخاضعة لحكم الملكية النمساوية ، والحكم الملكى الدستورى ممثلا فى الملكية الانجليزية فى هانوفر . وفيها أيضاً المنتخبات التى كان يقوم أمراؤها بانتخاب الامبراطور الرومانى .

ويمكننا أن نقسم المدة من أواخر القرن الثامن عشر إلى ظهور بسمرك على مسرح الأحداث فى بروسيا إلى فترتين :

الفترة الأولى : وتشمل حالة ألمانيا قبل الفتح النابليونى .

الفترة الثانية : تتناول الاحتلال الفرنسى لألمانيا وأثره فى تطور النظم الألمانية .

أما عن الفترة الأولى فقد عرفنا أن ألمانيا كانت منقسمة إلى ولايات متعددة، تفاوتت فى القوة ، وخضعت لحكم الامبراطورية الرومانية المقدسة بطريق غير

مباشر ، كذلك عرفت ألمانيا نظام الطبقات الثلاث الذى عرفته أوربا . وساد فيها نظام الاقطاع الذى ساد أوربا أيضاً حتى أصبحت طبقة رقيق الأرض تقدر بنحو ثلى عدد السكان .

أما من الناحية الاقتصادية ، فنظراً للجهل والفقر والتأخر الذى كانت تعيش فى ظله طبقة رقيق الأرض ، لم يكن من المتوقع والحالة هـــذه أن تقوم هناك زراعة راقية أو صناعة ناجحة ، فالقيود التى فرضها نظام الاقطاع على الزراعة لم تسمح بتقدم تلك الحرفة أو تطورها . وكذلك الحال بالنسبة للصناعة فشدة الفقر حالت دون قيام صناعات ناجحة .

كذلك كسدت التجارة وقيدت حركتها إلى حد بعيد ، فكثرة الولايات الألمانية المستقلة ، وتعدد القوانين التى تطبقها كل ولايه على تجارتها ، قد وضعت الكثير من العراقيل فى سبيل تقدم التجارة وانتشارها . فانتقال السلع من ولاية إلى أخرى كان اشبه بانتقالها من دولة الى دولة أخـــرى يجب أن يفرض عليها ضرائب أثناء خروجها أو دخولها إحدى هذه الدول. فوجود رسوم جمركية متعددة وأنظمة مختلفة قد أثقل كاهل التجارة ومنعها من الانتشار .

ولم تستطع الطبقة الدنيا أن تثور على تلك الأوضاع القائمة فى ألمانيا كما حدث فى فرنسا بقيام الثورة الفرنسية، نظراً لتفرق الشعب الألمانى بين مختلف الولايات، وعدم وجود رأى عام ألمانى متحد يشعر شعوراً واحداً ، ويوحد بين الأهداف والمصالح . ولهذا لم يكن من المستطاع توحيد هـذا الشعب الا بالقوة ، سواء كان من داخل ألمانيا كما حدث فى عهد بسمرك ، أو من خارجها كما حدث فى عهد نابليون بونابرت .

الفترة الثانية

عندما قامت الثورة الفرنسية ضد العرش الفرنسى خشيت الملكيات الاستبدادية فى أوربا على مصيرها وخصوصاً بروسيا والنمسا ، فأعلنتـــا الحرب على فرنسا ، ونجحت الدولتان فى هزيمة القوات الفرنسية فى أول الأمر ، ولكن لم تلبث فرنسا أن انتصرت على قوات الدولتين فى موقعـــة فالمى ، فتنحسر تلك الموجة المعادية لفرنسا تاركة الثورة تسير فى مجراها الطبيعى .

ونتيجة للحروب العديدة التى خاضها نابليون ضد انجلترا وحلفائها ووقوع معظم الولايات الألمانية الخاضعة لحكم الامبراطورية النمساوية المجرية فى قبضة نابليون ، خشيت بروسيا أنها لو استمرت فى موقفها الحيادى إزاء ما حدث فى أوربا ، فلن تطول سلامتها ، وستقع فى النهاية تحت رحمة نابليون ، فآثرت أن تكون البادئة بالعدوان وأن تختار الوقت الذى يناسبها لخوض المعركة . فأعلنت الحرب عليه فى أواخر سبتمبر سنة ١٨٠٦ وقابلت نابليون بقوات من بقايا أيام فردريك الأكبر ، تسير على النظم الحربية التى لا تتلائم مع استراتيجية القرن التاسع عشر . ولذا انهزمت قوات بروسيا هزيمة ساحقة فى موقعتى يينـــا Yena وأورستادت Auerstadt فى اكتوبر سنة ١٨٠٦ ثم لحقت بها قوات الروسيا ، حيث اضطرت الدولة الأخيرة الى عقـــد معاهدة تلست Tilsit مع نابليون فى ٧ يوليه سنة ١٨٠٧ ، تلك المعاهدة التى رفعت نابليون الى ذروة مجده السياسى والحربى ، والتى قضت على بروسيا كقوة حربية وكنظام صالح للبقاء إلى جانب النظم النابليونية .

كان أثر حروب نابليون شديدا فى كل الولايات الألمانية ، سواء التى خضعت لحكمه المباشر أو غير المباشر . ويمكن تقسيم النتائج التى ترتبت على هذا الفتح

الى قسمين :

الاول : نتائج مباشرة تمت بجهود نابليون وباصلاحاته التى أدخلها على المناطق التى اقتطعت من ألمانيا ، وكونت إمارات أو دوقيات خاضعة لحكم أتباع نابليون.

والثانى : نتائج غير مباشرة ، وهى التى حدثت فى بروسيا كرد فعل للهزيمة التى أحاقت بها على يد نابليون .

أما عن القسم الاول فقد قضت معاهدة تلست باقتطاع فرنسا بعض أجزاء من ألمانيا، فضمت اليها المنطقة الواقعة غرب نهر الرين،وتكونت من الممتلكات الالمانية فى بولندة ولاية وارسو ووضعت تحت حكم ملك سكسونيا مكافأة له على ولائه لنابليون ، واقتطعت المناطق الواقعة غربى نهر الالب وسميت باسم مملكة وستفاليا وحكمها أخو نابليون المسمى جيروم . ولما كان نابليون يسير على سياسة إيقاظ الوعى القومى لدى الشعوب المقهورة ، ويعلن بأنه قد جاء ليحقق مبادىء الثورة الفرنسية فى الحرية والاخاء والمساواة ، فإن هذه الاسلحة الجديدة ولو أنها قد أفادت نابليون أثناء الفتح ، إلا أنها قد أضـــرته بعد ذلك . إذ أخذت الشعوب المقهورة تطبق هذه المبادىء الجديدة ضد نابليون نفسه ، فنابليون الذى نادى بتلك المبادىء لم يخرج عن كونه فاتحا مستبدا ، وأن هذه المبادىء التى جاء بها ما هى إلا دخان فى الهـــواء ، وأن الحرية والاخاء والمساواه لن تتحقق فى ألمانيا إلا بخروج الجيوش النابليونية وترك البلاد المفتوحة لسكانها الاصليين .

فجيوش نابليون التى كانت تمثل الثورة الفرنسية قد حملت معها جراثيم هدمها وأن الاسلحة التى حارب بها نابليون لن تلبث أن ترتد الى صدره .

وإذا نظرنا الى الجزء الواقع غربى نهر الرين والذى ضم مباشرة الى فرنسا

نجد أنه خضع لكل ضروب الاصلاح التى أشرنا اليها فى حديثنا عن الاصلاحات الزراعية والصناعية والتجارية التى ادخلتها الثورة على النظم الفرنسية ، وكذلك اصلاحات نابليون . فهذا الجزء من الاراضى الالمانية قد تأثر بالمؤثرات الفرنسية وبالإصلاحات الفرنسية فترة غير قصيرة حتى سقوط نابليون .

أما عن دوقية وارسو ومملكة وستفاليا والولايات الالمانية الأخرى الموالية لنابليون فقـــد نفذت القوانين والاصلاحات التى أدخلها عليها نابليون بنسب متفاوته ، ولكنها جميعا قد تأثرت باصلاحات نابليون التى تركزت حول القضاء على نظم الحكم الرجعيـة التى سادت تلك الولايات من قبـل ، بحيث أصبحت تلك الولايات قريبة فى نظمها إلى فرنسا .

ورغم خروج هذه المناطق من قبضة فرنسا بهزيمة نابليون ، فإن الإصلاحات الفرنسية ظلت باقيا، وكانت عاملا جوهريا أو عاملا ممهدا للتقريب بين هذه الولايات بعد أن قضى عـلى الكثير من النظم الرجعية التى فصلتها عن بعضها قبـل الغزو النـابليونى .

نهضة بروسيا

أما القسم الثانى ويشمل مملكة بروسيا ، فإن أثر حروب نابليون وإصلاحاته غير مباشر عليها ، فالهزيمة التى لحقت بها أمام قوات نابليون قد أثارت فيها الغيرة والحمية ، وجعلها تراجـع نظمها القديمة التى لم تعد تصلح أو تساير التقـدم الذى أحرزته فرنسا فى القرن التاسع عشر . ومن حسن حظ بروسيا أنهـا وجـدت فى رجالها المخلصين خير عون لها على أداء رسالتها . وأهم هؤلاء جميعا شتاين Stein الذى استطاع أن يتولى رئاسة الوزارة فى بروسيا فى ٤ أكتوبر سنة ١٨٠٧ ، وأن يضع برنامجـا مرسوما للادارة الداخلية ونظام الحكم . وقد اعتمد برنامجـه على أسس ثلاثة :

أولا : النهوض بنظم الحكم والادارة عن طريق إيجاد وزارة مسئولة تسير وفق نظام دستورى ، وتحديد سلطة الملك .

ثانيا : إلغاء نظام الاقطاع والقوانين التى ترتبت على وجوده ، مع الأخذ بيد الطبقة الدنيا والعمل على تمليكها مساحات صغيرة من الأرض .

ثالثا : اتباع النظام اللامركزى فى إدارة شئون بروسيا ومنح المجالس البلدية والمحلية صلاحيات واسعة فى إدارة شئون البلاد .

وبهذا البرنامج المحدد استطاعت بروسيا فى الفترة القصيرة التى قضاها شتاين فى الحكم أن تطفر طفرات واسعة وأن تنجح فى تخفيف الفروق بين الطبقات ، وأن تقضى على النظم الرجعية القديمة ، وتضع أسس حكم جديدة .

وفى مؤتمر فينا ١٨١٥ سويت الشئون الألمانية وفق مشيئة النمسا دون مراعاة لمصلحة الولايات الألمانية إلى حد ما . وسمح أعضاء المؤتمر للنمسا بتكوين إتحاد ألمانى جديد يضم ٣٩ ولاية تتمتع فيه النمسا بمركز الزعامة . وأن يكون لبروسيا المركز الثانى فيه وكان الهدف من ذلك أن يحل الاتحاد الالمانى محل القيصرية الرومانية المقدسة ، وكانت هناك فكرة لإعادة القيصرية القديمة، ولكن هذه الفكرة وجدت معارضة قوية ، وخصوصا من قبل النمسا التى رفضت أن يكون ملك بروسيا قيصرا لألمانيا ، فهى تريد المحافظة على مالها من سلطة فى تلك الولايات . كما أن الامراء الالمان ما كانوا يرغبون فى إقامة سلطة جديدة تتركز فى يد الملكية البروسية . وقد قامت الدول الاوربية بضمان استقلال تلك الولايات ، وما كان إنشاء الاتحاد الالمانى إلا لضمان سلام كل ولاية واستقلالها . إلا أنه لم تحدد مدى سلطة هذا الاتحاد الذى كان يتكون من مجلس يضم أعضاء الحكومات

الألمانية المختلفة تحت رياسة ممثل النمسا، ويجتمع فى مدينة فرانكفورت . وكان هذا المجلس منظما بشكل يضمن عدم تنفيذ أى قرار . كما اتفق فى سنة ١٨٢١ أن يكون للاتحاد جيش . ولكن لم ينفذ هذا الاتفاق إلا سنة ١٨٤٠، ولم تجتمع جيوش الولايات مطلقا . فلم يكن إذن للاتحاد سلطة قوية . فترك لكل أمير الحرية فى أن ينظم إمارته على النسق الذى يريده ، فساد فى الولايات الألمانية ثلاثة أشكال من الحكم :

الاول - وهو الحكم الإستبدادى ، وقد ساد فى الدول الكبيرة .

الثانى - ونظام مجالس الطبقات فقد ساد فى شمال المانيا ، ولم يكن لهذه المجالس سلطة محددة تتصرف بمقتضاها . ولكن هذه الولايات كانت تتمتع بحرية أكثر من غيرها .

أما النوع الثالث الذى ساد فى الجنوب فهو أن بعض أمراء الجنوب منحوا ولاياتهم دساتير مشابهة للدستور الفرنسى .

ونتيجة لهذه الانواع الثلاثة من الحكم أن انقسم المفكرون السياسيون إلى ثلاثة فئات . فكان للاستبداد ممثلوه الذين أخذوا يشيدون به ويكتبون أن آراء روسو غير صحيحة فالإمارة ملك الامير . والفريق الثانى من المفكرين كان يحتقر الدساتير ويطالب بإحياء مجالس الطبقات القديمة . وأما أصحاب الرأى الدستورى فكانوا ينادون بسلطة الشعب ، وهؤلاء كانوا من المعجبين بمبادىء الثورة الفرنسية .

وعلى أى حال كان الرأى العام ميالا إلى الدساتير ، وقام نزاع بين انصار الاستبدادية والاحرار . فالاستبداديون كانوا يجدون تعضيدا من قبل مترنيخ .

أما الاحرار فكانوا يتجهون شطر الجنوب ، وكانوا يرمون - بصفة خاصة - إلى قيام دولة موحدة . ولكنهم كانوا يرون أن النمسا ضد الحريه والوحدة . فالحالة اذن كانت فوضى . وقد قامت ثلاث محاولات للاصلاح قضت عليها الحكومة .

فالمحاولة الاولى قام بها طلبة الجامعات للمطالبة بالوحدة السياسية والحرية ، وكانت قد تكونت جمعيات سرية لبث دعوتهم فى أنحاء البلاد ، وقد أثارت هذه الحركة مترنيخ ، فأرغم أمراء الولايات على القيام باخمادها والتنكيل بزعمائها (مراسيم كرلسباد سنة ١٨١٩)

وكان لثورة سنة ١٨٣٠ فى فرنسا صـــــدى فى الولايات الالمانية المختلفة ، إذ ساد فيها الاضطراب وأرتقيت دماء غزيرة لاشتباك الاحرار مع السلطات الحاكمة ، إلا أنها أخمدت بسرعة ، وبذلك استطاع مترنيخ أن يخمد أنفاس الاحرار المطالبين بالحرية . ولكن سرعان ماتحولت الحركة القومية إلى ثورة على نسق ثورة سنة ١٨٤٨ فى فرنسا ، وعقد الامراء الالمان الاحرار الإجتماعات العامة وقرروا حرية الصحافة والاجتماع . وبدأت هذه الحركة من الولايات الجنوبية ، وانتهز أنصار الوحدة الفرصة لجعل الوحدة تعاهدية ، وأختارت الحكومات نوابا عنها ، واجتمع برلمان فرنكفورت . وكان النواب لاخبرة لهم بمناقشة السياسة ، وأخذوا فى وضع دستور الدولة الالمانية الجديدة ، وأخذو يفكرون فيمن يتكفل بتنفيذ الاتحاد ؟ فلم تكن كل بروسيا أو النمسا المانية ، فقرر المجلس عدم إدخال العناصر غير الالمانية فيها ، فأغضب هذا القرار النمسا لانه يهدد قيصريتها .

ووجد فى المانيا حزبان : حزب ألمانيا الكبرى وهو حزب النمسا ، وحزب المانيا الصغرى وهو حزب بروسيا ، وكان كل منها يريد أن يتزعم حركة الوحدة ، وكانت الغلبة للحزب الاخير . ولكن ملك بروسيا كان يرغب فى التاج الالمانى

من أيدي الأمراء وليس من أيدي الشعب . وقامت ثورات ضد الحكومات الالمانية لارغامها على قبول الدستور الجديد ، فسحبت الحكومات نوابها ماعدا النواب الجمهوريين . وصممت بروسيا على تكوين الاتحاد والاتفاق مع الولايات في سنة ١٨٤٢ ، ولكن فشل هذا الاتفاق لتدخل النمسا . ثم قام تحالف بين بروسيا وبعض ولايات الشمال ، ولكن النمسا هددتهم ، فسحبت بروسيا مشروعها . ولكن بالرغم من ذلك فشلت النمسا في دخولها الاتحاد بكل عناصرها .

وإذا نظرنا إلى حالة بروسيا تلك المملكة التي ستقوم بتوحيد المانيا نجد أنه قد قامت بها حركة إصلاحية كبيرة بعد موقعة يينا (أكتوبر سنة ١٨٠٦ ضد التحالف الدولي الثالث) ، فأصبحت بروسيا ملكية دستورية إلى حد ما . وقد شمل الإصلاح المرافق العامة وارتفع بمركز الشعب الاجتماعي ، وأصبح الجيش البروسي يمثل الشعب أصدق تمثيل . ولكننا عرفنا أنه بالرغم مما منحته بروسيا من حقوق في مؤتمر فينا ، فلم تكن ممتلكاتها متصلة بعضها ببعض ، ولم يكن القانون المستعمل في كل الدولة واحدا ، فالاجزاء الواقعة على نهر الراين تستعمل القانون النابليوني ، وأما في شرق بروسيا فالحكم في يد طبقة الارستقراطية . كما لم يكن لبروسيا برلمان ولا صحافة ، والسلطة مركزة في يد الملك وحاشيته . وكان هؤلاء فريقين : فريق رجعي يعمل على تقوية النظم الاستبدادية ، وفريق ميال للاصلاح وكان الملك يتردد بينهما .

وكان الجيش في بروسيا مدرسة لتكوين الروح القومية ، ونجح في ذلك الى حد كبير . ولقد تردد الملك بعد واترلو في منح الشعب دستورا ، وكون لذلك لجنة استمرت في عملها ثمانية أعوام . وفي تلك الاثناء كان يتجاذب الملك فريقان :

الفريق الرجعى وكان يحتقر الدساتير . والفريق الموالى النظام الدستورى وكان يطالب الملك بأن يبر بوعده للشعب . ولم يطل تردد الملك أمام تأثير مترنيخ . فنقض عهده وقرر مراقبة الجامعة والصحافة والقبض على كثير من الطلبة لان ثورات سنة ١٨٢٠ فى ايطاليا وأسبانيا أفزعته . أبقى على مجلس الطبقات الذى كان رأيه استشاريا ، وظل هذا النظام معمولا به الى سنة ١٨٤٨ . وظلت بروسيا ملكية استبدادية بيروقراطية ، والحياة السياسية فيها مقصورة على العائلة المالكة وكبار الموظفين . ولكنها كانت ملكية قادرة نزيهة بعكس النمسا . ونتيجة لتعلق الشعب بالملك لم تقم بثورات ضده .

جاء فردريك وليم وكانت آماله تتلخص فى إنشاء دولة ألمانية كاثوليكية ، فرأى أن يوسع فى سلطة مجلس الطبقات إرضاء للشعب فقرر. فى سنة ١٨٤٧ أن يجتمع ممثلو الطبقات للاجزاء البروسية المختلفة فى برلين فى هيئة مجلس للنظر فيما يهم الشعب ، ولكن هذا الاجراء لم يرض الطبقة الوسطى والاحرار ، إذ كانوا يرغبون فى أن تبر الملكية بوعدها الذى قطعته على نفسها سنة ١٨١٥ بوضع الدستور،وتخفيف القيود المفروضة على حرية الصحافة والاجتماع . فحل الملك المجلس . إلا أنه سيضطر أخيراً إلى منح شعبه الدستور .

تقبل الملكية وضع دستور حر يعترف بحرية الفكر والاجتماع ويضع السلطة التشريعية فى يد مجلسين ، وانفصال القضاء والتصويت العام ، ولم تنفذ هذه الطلبات لان الملك أرغم على قبولها لقيام الثورة فى بروسيا ، ثم لايلبث الملك أن يخمد الثورة بقوة الجيش ، ويقوم بوضع دستور قابل للتجديد ولا يختلف عن الدستور الاول . فكان هذا الدستور منحه من الملك بمحض إرادته ، ونفذه بسرعة ، ولم يعمل على القضاء على الحركة الدستورية . وحتى فى الدستور الجديد

كانت السلطة الحقيقية فى يد الملك . وعملت بروسيا على نشر سلطانها على كل ألمانيا، وذلك لوجود ممتلكات متفرقة فى أنحاء ألمانيا . وكان هذا من العوامل التى ساعدت على قيادة بروسيا لألمانيا والدفاع عنها . ولقد طلبت بروسيا أن يكون لها قيادة جيوش شمال ألمانيا ، ونجحت فى حماية الولايات التى كانت معرضة للغزو . على أن الزعامة السياسية ظلت فى يد النمسا إلى سنة ١٨٤٨ . ولقد بدأت الزعامة الحقيقية لبروسيا حينما بدأت تنفيذ سياسة الزلفرين Zollverein التى ضمت الولايات بعضها إلى بعض فى وحدة اقتصادية . وكانت المعارضة قوية ضد هذا النظام ، ولكنها خفت بالتدريج وأصبحت بروسيا أول دولة تستخدم سياسة تجارية حرة .

كانت بروسيا أكثر الدول الألمانية اتصالا بألمانيا . وذلك لكثرة أملاكها ، هذا بالاضافة إلى سياسة الزلفرين فى توحيد ألمانيا اقتصاديا ، والاهتمام بالجيش . فالملك وليم الاول اهتم بالجيش وجعل الخدمة اجبارية لمدة ثلاث سنوات ، وزاد من مدة الخدمة فى الجيش الاحتياطى . ولم تقف المشروعات المالية فى سبيل تقدم الجيش ، فلم يعبأ الملك بمعارضة الاحرار ، وكان يؤيده فى ذلك الوزراء ومجلس الشيوخ . وكانت الملكية البروسية تطلب باستمرار زيادة الضرائب لسد نفقات الجيش . وكان مجلس النواب يحد من طلبات الملكية المعارضة . وكان الملك لا يريد معارضة فيما يختص بشئون الجيش ، وكانت النتيجة أن حل الملك المجلس سنة ١٨٦٢ . ولكن الأحرار انتخبوا مرة ثانية وقاموا بمعارضة الملك . وفكر الملك فى الاستقالة لولا أن دعا بسمارك لتولى الوزارة . وكان يبغض النظام البرلمانى الغربى ، وكان يرى أن أمل ألمانيا الوحيد هو الوحدة القوية ، ولن يكون ذلك إلا بقوة الجيش وبالدم والحديد ، وأن الوحدة الألمانية لن تتم إلا بهزيمة النمسا أولا ، ثم بهزيمة فرنسا ثانيا ، ولذا كان يؤيد الفكرة الملك تمام التأييد .

كان بسمرك يرى أن مطالب الاحرار فى روسيا تنحصر فى مطلبين رئيسيين هما :

قيام حكم دستورى ، واتمام الوحدة القومية . ولما كان بسمرك لايؤمن بالنظام الديمقراطى ويرى أنه يحد من سلطته فى تنفيذ ما يريد ، ولذا عمل على التضحية بالمطلب الاول فى سبيل تحقيق المطلب الثانى . ومن أجل ذلك لم يكن يأبه للقوى الشعبية أو لمعارضة البرلمان . وكان يهمه مصلحة بروسيا فى المقام الأول ثم مصلحة ألمانيا بعد ذلك . ويرى بأن الوحدة ما هى إلا بسط لسلطان بروسيا على غيرها من الولايات الألمانية الأخرى .

الحرب النمسوية البروسية

وعندما عرضت النمسا فكرة إنشاء حكومة إدارة وتأليف مجلس اتحـــادى وجمعية اتحادية فى ألمانيا تضم النمسا وبروسيا وغيرها من الولايات ، رفض بسمرك بشدة العرض النمسوى رغم ميل ملك بروسيا الى قبوله . فأصبح التصادم بين الدولتين النمسوية والبروسية أمراً محتما .

ومن ثمة كان عليه أن يستعد للجولة القادمة وأن يكون له أصدقاء يمكن الاعتماد عليهم ، أو على الاقل على حيادهم إذا ما قامت حرب بينه وبين النمسا . ولذا عندما قامت الثورة فى بولندا ضد الحكم الروسى وجد من صالحه أن يؤيد الروسيا فى إجراءاتها العنيفة لقمع الثورة ، وذلك لسببين: الاول كسب ود وصداقة الروسيا ، والثانى لعدم ميله إلى الحركات التحررية ؛ ولولا موقفه هذا من الثورة البولندية لتدخلت كل من انجلترا وفرنسا لصالح الثوار ، ومع أن هذا الموقف قـــد أثار ضده أحرار ألمانيا إلا أنه قد حقق سياسته فى كسب الروسيا إلى جانبه .

ولقد برزت على مسرح الاحداث الاوربية مشكلة جديدة زادت من سوء

العلاقات بين النمسا وبروسيا ، ألا وهي مشكلة شلزفيج وهولشتين . وتتلخص هذه المشكلة فى أن المقاطعتين المذكورتين كانتا تحت إشراف الدنمرك . وكانت المقاطعة الأولى تتمتع بنوع من الاستقلال وتغلب عليها الصبغة الدنمركية . أما المقاطعة الثانية فكانت المانية إلى حد كبير ، وكانت عضوا فى الاتحاد الألمانى طبقا لمعاهدة فينا . ولكن رغم عضويتها هذه كانت تشرف على المقاطعتين وزارة واحدة .

تطلعت بروسيا إلى هاتين المقاطعتين ورأت أدماجها فى الدولة الألمانية ، رغم توقيعها على معاهدة لندن ١٨٥٢ بشأن المسألة الدنمركية والتى تنص على أن يؤول عرش الدنمرك بما فيه هاتين المقاطعتين إلى الأمير جلوكسبورج بعد وفاة الملك . على ألا يؤثر ذلك فى وضع مقاطعة هولشتين بالنسبة للاتحاد الألمانى . ووقع تلك المعاهدة مع بروسيا كل من النمسا فرنسا وبريطانيا . ولكن « دييت » فرانكفورت الممثل للاتحاد الألمانى رفض الموافقة على ذلك .

وعندما أعتلى الملك الجديد كرستيان التاسع عرش الدنمرك أصدر دستوراً جديداً يوحد ممتلكاته بما فيها المقاطعتين، فاحتج الأمير جلوكسبورج على ذلك وأيده دييت فرانكفورت . وأتفقت كل من النمسا وبروسيا على الدفاع عن حق الأمير وتنفيذ مقررات الدييت ، مستغلتان فرصة انشغال دول أوربا الكبرى إلى حدما عن قضية الدنمرك ، ففرنسا كانت مشغولة بمسألة المكسيك، وانجلترا لم تكن مستعدة للدخول وحدها ضد النمسا وبروسيا ، ووقفت الروسيا على الحياد مجاملة لبروسيا ورداً لجميلها فى المسألة البولندية .

تدخلت قوة الدولتين النمسوية والبروسية وهاجمت الدنمرك وأرغمت الحكومة على توقيع معاهدة فينا (٣٠ أكتوبر ١٨٦٤) معها وفيها تنازل ملك الدنمرك عن

كل حقوقه على دوقيتى شلزفيج وهولشتين ، بالاضافة إلى لاونبرج لملكى النمسا وبروسيا كما تعترف الدولتان النمسوية والبروسية بكرستيان التاسع ملكا على الدنمرك ضاربة عرض الحائط بحقوق الأمير جلوكسبورج وبقرارات دييت فرانكفورت .

لن يكون اشتراك الدولتين النمسوية والبروسية فى حكم الدوقيتين إلا عاملة لزيادة التنافس بينهما ومحاولة كل منها الاستئثار بالسلطة دون الأخرى ، مما سيؤدى فى نهاية الأمر إلى نشوب حرب بينهما .

أستغل بسمرك تطلع إيطاليا إلى ضم البندقية الخاضعة لحكم النمسا إلى الحكومة الايطالية الجديدة ، ورأى كسب إيطاليا إلى جانبه فى الصراع المرتقب بينه وبين النمسا . فاتفق معها على الوقوف الى جانبها فى أى حرب تقع بينها وبين النمسا ، وألا تعقد المانيا صلحاً مع النمسا قبل أن تحصل إيطاليا على البندقية . كما استطاع بسمرك كذلك شراء حياد فرنسا فى مقابلة بياريتز Biarritz .

تهيأت الظروف لقيام الحرب بين الدولتين ، فلم يكن حكم الدولتين لدوقيتى شلزفيج وهولشتين مرضياً عليه منها . كما كان بسمرك يواجه متاعب داخلية نتيجة لمعارضة البرلمان لسياسته ، فكان لابد لبقائه فى الحكم أن يوجه أنظار الألمان إلى معركة خارجية . هذا بالاضافة أن الموقف الدولى كان فى صالحه إلى حد كبير .

قامت الحرب بين الطرفين فى ١٤ يونيــو ١٨٦٦ وكانت سريعة وخاطفة انتهت بعد ثلاثة أسابيع من قيامها فى موقعة سادوفا (ويسميها الألمان كونيجراتز Koniggratz) فى ٣ يوليو ١٨٦٦ . ولم يكن لتحالف الايطاليين أية فائدة سوى ارغامهم النمساويين على حجز قوات كبيرة العدد فى ايطاليا ، بينما قواتهم

قد انهزمت هزيمة منكرة فى وقعة كستوزا Custozza (٢٤ يوليو ١٨٦٦) أمام قوات النمسا . وكذلك أنهزم الاسطول الايطالى أمام أسطول النمسا فى معركة ليزا Lissa .

ورغم انتصار قوات بسمرك فلم يشأ الذهاب فى الحرب إلى أبعد من هذا المدى ، فلم يكن هدفه التوسع فى الأراضى النمساوية بقدر ما كان وسيلة لتحقيق الوحدة الألمانية . ولهذا رأى من الحكمة عقد صلح لا يغضب النمسا حتى لا يتيح لنابليون فرصة التدخل ، وهو ما كان يحلم به. وفى نفس الوقت فالنمسا دولة ألمانية وبسمرك فى حاجه اليها فى صراعه المقبل مع فرنسا . ويوقع الصلح فى معاهدة براغ فى ٢٣ أغسطس ١٨٦٦ وفيه توافق النمسا على عدم التدخل فى شئون الولايات الألمانية وتتنازل عن البندقية لايطاليا .

كان انتصار بسمرك خطوة هامة على طريق الوحدة ، وكان فى نفس الوقت هزيمة غير مباشرة لفرنسا . وترتب على ذلك أن اختفاء النمسا كنافس لبروسيا أفسح المجال أمام بروسيا لمواجهة فرنسا وتحقيق الخطوة الثانية والأخيرة للوحدة .

وكان بسمرك لايقتصر على سياسة القوة وحدها بل يستعمل الدبلوماسية أيضاً ، فيقوم بتقوية الجيش ولو على حساب الدستور . ونجده ينجح فى ميدان السياسة كما ينجح فى ميدان الحرب ، فكسب حياد الروسيا ، وعمل على كسب ود إيطاليا بمساعدتها ضد النمسا فى مقابل ضم البندقية اليها إذا ما قامت حرب بينها وبين النمسا ، ويعمل أيضا على كسب حياد انجلترا فى حربه ضد النمسا وفرنسا. وكان يظن أنه يستطيع كسب حياد انجلترا فى أى حرب أوربية ، وقضى على الاتحاد الالمانى فى ١٨٦٦ ، ووضع مشروعاً للاتحاد قدمه للولايات الألمانية وخيرها بين قبوله

أو الحرب ، ولقد حارب فى ثلاث جهات مرة واحدة، فاستولى على فرانكفورت وانهزمت قوات الجنوب ، وأعترفت النمسا بإلغاء الاتحاد القديم ، وأصبحت بروسيا سيدة ألمانيا بعد انتهاء المنافسة بينها وبين النمسا .وعلى أى حال كان نجاح بسمرك السياسى والحربى داعيا إلى تعضيد الشعب لسياسته فقلت المعارضة وانتهت المشكلة بوضع دستور عام للاتحاد الألمانى فى ١٦ ابريل ١٨٧١ .

ويرجع نجاح الوحدة إلى عدة عوامل منها رابطة اللغة والجنس والثقافة والتاريخ. هذا فيما يختص بالعوامل الداخلية ، أما العوامل الخارجية ، فان الثورات التى أجتاحت أوروبا فى الفترة ما بين ١٨١٥ ، ١٨٤٨ قد أيقظت الشعور القومى لدى الألمان . كما أن ثورة ١٨٤٨ قد عصفت بالامبراطورية النمساوية وكادت تحطمها، ولكنها لم تعصف بالملكية البروسية لأنها كانت أكثر اعتدالا من الملكية النمساوية. كما أنها منحت الشعب دستوراً فى نفس السنة . ومن أهم العوامل التى ساعدت على الوحدة هو بسمرك نفسه الذى أخذ على عاتقه تقوية بروسيا فى الداخل والخارج فقوى الجيش رغم معارضة البرلمان . كما عمل على توطيد مركز بروسيا الخارجى والعمل على ألا تحارب فى جهتين فى وقت واحد . وكان يعمل على توثيق الروابط بين عائلة رومانوف وعائلة هوهنزلرن ، فكسب عطف الروسيا فى حربه مع الدنمرك . كذلك نجده يعمل على عزل النمسا من الناحية السياسية. وفى نفس الوقت يحاول الاتفاق مع نابليون الثالث على أنه إذا قامت بروسيا بحرب ضد النمسا فعلى فرنسا الوقوف على الحياد . وفى نظير ذلك تأخذ فرنسا بلجيكا أو لكسمبرج . وكان نابليون الثالث يرغب فى قيام هذه الحرب لاضعاف قوة كل من الدولتين فيستطيع بذلك التدخل بينهما وإملاء شروط فرنسا عليهما ، ويعدل حدود فرنسا الشمالية . ولكن بسمرك كان يعرف أن بروسيا ستنتصر بسرعة ولن تعطى الفرصة لفرنسا ، فكانت دبلوماسية بسمرك تسبق حروبه. ولقد نجح بسمرك فى سياسته

ضد النمسا فعزل فرنسا وكسب حياد الروسيا وطرد النمسا من ألمانيا ، فأصبحت النمسا تتجه فى سياستها اتجاها شرقياً ، وانفردت بروسيا بالزعامة . ولم يصبح هناك مناوىء للوحدة سوى فرنسا . ولذلك نجده لا يقسو على النمسا فى شروط الصلح كى لا تنضم إلى فرنسا إذا ما حاربها . وكذلك وعد الروسيا بحياد البحر الاسود وكسب عطفها. وبهذا لم يعد للنمسا أى مجال للتدخل فى الحرب التى تقع بين فرنسا وبروسيا .

ولكن ربما تتدخل انجلترا فى الحرب من حسن الحظ كانت وزارة جلادستون مهتمة بالمسألة الدستورية وبمسألة إيرلندة . ويقوم بسمرك بنشر بعض الوثائق السرية التى تمت بينه وبين نابليون الثالث مبيناً رغبة فرنسا فى ضم بعض أجزاء الراين وبلجيكا اليها ، فيثور الرأى العام الانجليزى فى صالح ألمانيا . وكان الشعب الانجليزى يعتقد أن فرنسا تستطيع الانتصار على الجيوش البروسية انتصاراً تاما ، وكان ذلك رأى الساسة الانجليز فى ذلك الوقت ، ولهذا لم تهتم انجلترا بالحرب وساعد انتصار بروسيا فى سادفا (٣ يولية ١٨٦٦) وسيدان (٢ سبتمبر ١٨٧٠) على تكوين وحدتها بقوتها هى وليست بمساعدة خارجية. وهى تختلف عن الوحدة الايطالية التى لم تتم إلا بمساعدة فرنسا وبمساعدة بروسيا ضد النمسا وفرنسا . ولم تتم إلا ١٨٦٦ ، ولكنها لم تتم بصفة نهائية إلا فى ١٨٧٠ عندما أضطرت فرنسا إلى سحب جنودها من روما بعد هزيمتها فى سيدان .

ولكن هناك عوامل شبه بين الدولتين ، من انقسام الولايات ، وعوامل الاندماج، ووحدة اللغة والجنس . ثم أن كل منها لم يتم إلا بعد قيام شخصية سياسية عظيمة، فقام بسمرك فى ألمانيا وكافور فى إيطاليا.

الفصل الثامن

الحرب التركية الروسية ١٨٧٧ - ١٨٧٨

ثارت المسألة الشرقية فى عام ١٨٧٥ فى أعقاب الأزمة الفرنسية الألمانية . ويرجع السبب فى قيامها إلى رغبة الولايات البلقانية الخاضعة لحكم الدولة العثمانية فى التخلص من التبعية العثمانية ونيل الاستقلال لا سيما وأن الصرب قد تمكنت من الحصول على استقلالها منذ عام ١٨٠٤ وتبعتها اليونان فى سنة ١٨٣٠ . وشجعها على ذلك ما لمسوه من ضعف قوة الدولة العثمانية الحربية ، وتأييد بعض الدول الأوربية لأمانيهم وخصوصا الروسيا التى كانت تعمل جاهدة على تصفية ممتلكات الدولة العثمانية عن طريق إثارة الشعوب البلقانية الخاضعة لحكمها، وايجاد حالة من الاضطراب تسمح لها بالتدخل لتحقيق مآربها التوسعية فى السيطرة على دول البلقان عن طريق الجامعة الصقلبية والإشراف على المضايق والوصول الى مياه البحر المتوسط الدفيئة .

ومما زاد الموقف تعقيداً رغبة بعض دول البلقان المستقلة فى تحقيق أطماعها التوسعية على حساب جيرانها مثل الصرب واليونان ، فكلتاهما كانت تتطلع الى ضم بعض الأراضى اليها . كذلك لا ننسى دور الكنيسة المسيحية فى إثارة الحمية الدينية لدى شعوب البلقان ، وصبغها حركاتهم القومية بالصبغة الدينية .

بدأت الاضطرابات فى البلقان بثورة الهرسك . ولم تكن هذه أولى الثورات فى منطقة البلقان ، بل تعد إحدى حلقات سلسلة متصلة من الثورات ضد الحكم

العثماني منذ ظهر ضعف الدولة العثمانية من الناحية الحربية ، ومنذ بدأت بعض دول أوربا الكبرى تتبع سياسة نشطة إزاء تصفية ممتلكات الدولة العثمانية والتخلص كلية من رجل أوربا المريض .

وفي حقيقة الأمر كانت أحوال الدولة العثمانية تسير من سيء الى أسوأ ، فعلى رأس الدولة يتربع السلطان عبد العزيز ، وكان مسرفا ومبذراً . وترتب على سوء تصرفه هذا أن ارتفعت الديون في عهده من ٢٥ مليون جنيه انجليزى فى أواخر حكم سلفه السلطان عبد المجيد الى ٢٥٠ مليون جنيه فى عهده . وبلغ من اضطراب الدولة من الناحية المالية أن أعلنت فى سنة ١٨٧٥ عجزها عن سداد الديون .

كان من الطبيعي أن يزداد عدم ثقة الدول الأوربية بالدولة العثمانية ، وأن تتخذ تلك الدول من الإجراءات ما يكفل ضمان مصالحها . فبدأت الدول الأوربية المعنية بالأمر تتدخل فى الشئون المالية ، فأنشأت ما يسمى « بدائرة الديون العمومية » تحت اشراف هيئة دولية ، مما أدى إلى تغلغل النفوذ الأجنبي فى شئون البلاد المالية وغير المالية . فساد التذمر أرجاء الدولة العثمانية وعمت الشكوى وطالب المصلحون بضرورة إدخال النظم الديمقراطية فى البلاد ، وبدأ النضال بين أنصار الحرية ، وبين السلطان وحاشيته ومؤيديه .

ما لبثت هذه الشرارة التى اشتعلت فى الهرسك أن أصبحت ثورة خطيرة ، امتدت ألسنتها إلى البوسنة بفضل تأييد الروسيا من ناحية ، وبفضل وجود قادة محاربين خبروا أساليب العثمانيين العسكرية ، واستغلوا طبيعة بلادهم الجبلية الوعرة فى تدويخ القوات التركية من ناحية أخرى .

ماذا كان موقف دول أوربا الكبرى من هذه الثورة التى انفجرت بشكل

قد يهدد أوربا بحرب لا تبقى ولا تذر . ويمكن حصر هذه الدول الأوربية فى المانيا والنمسا والمجر وروسيا وانجلترا وفرنسا .

أما عن موقف المانيا فكان طبيعيا ضد قيام حرب تشترك فيها دول أوربا . فربما أدى اشتعال تلك الحرب الى خلق موقف دولى قد تجد المانيا نفسها مضطره الى الاشتراك فيه . وما قد يترتب على هذا الاشتراك من فقدان ما لها من مركز متفوق فى القارة الأوربية . ولهذا كان من سياسة المانيا التعاون مع غيرها من الدول لحل هذا النزاع سلميا . وكانت تجد فى ممتلكات الدولة العثمانية خير معين لها على ذلك ، إذ تستطيع تلك الدول أن تشبع رغباتها التوسعيه على حساب الرجل المريض دون حاجه إلى صراع حربى .

ومن أجل هذا أيدت فكرة روسيا فى أن تتدخل دول اتحـــاد الاباطرة الثلاثة وهى المانيا والنمسا وروسيا لدى الباب العالى للضغط عليه لاتباع سياسه تهدف الى القضاء على أسباب الثورة ، وإعادة الطمأنينة والسلام الى تلك المناطق. ولكن هذا الموقف من قبل دول الاتحاد لم يرضى انجلترا ولا فرنسا ، لأنه يبعد بينهم وبين الاسهام فى حل المسألة الشرقية التى كانت تعتبر من أهم المشاكل الأوربية فى ذلك الوقت . كما أنه يمنح روسيا حرية العمل فى تحقيق أطماعها فى ممتلكات الدوله العثمانية وهو ما يتعارض مع سياسة كل من الدولتين بل كانت انجلترا ترى ضرورة التدخل لمنع تفوق النفوذ الروسى فى هذه المنطقة ولو أدى ذلك الى استخدام القوة .

وفى حقيقة الأمر لم تكن من بين هذه الدول الخمس من ليست لها أطماع فى أوربا سوى المانيا . أما الدول الأخرى فكان لكل منهما هدف تسعى الى تحقيقه من وراء اشتراكها فى حل تلك الأزمة . فروسيا مثلا لم تكن خالصة

النية فى تعاونها مع النمسا والمانيا ، بل العكس من ذلك كانت تحاول جاهدة أن تزيد الموقف تعقيداً وأن تزيد الثورة اشتعالا . وكان اجناتيف السفير الروسى فى الآستانة أكثر حماسة من حكومته فى تنفيذ تلك السياسة بصرف النظر عما إذا كان ذلك يتفق مع رغبات النمسا والمانيا أم لا .

أما النمسا فكانت ترى عدم التدخل العاجل فى الأزمة ، بل يجب أن يعطى الباب العالى الفرصة للقضاء على أسباب الثورة لأنها كانت تخشى من نوايا روسيا التوسعية فى البلقان ولكنها فى نفس الوقت كانت تعلم أن المانيا لن تعارض أى اتفاق بين روسيا والنمسا فيما يختص بشئون البلقان .

والواقع أن اهتمام الأمبراطورية النمساوية المجرية بشئون البلقان ترجع الى الفترة التى تلت هزيمتها أمام بروسيا فى سنة ١٨٦٦ . فأخذت تطمع فى ضم البوسنة والهرسك اليها . ولكنها فى نفس الوقت كانت حريصة على عدم إثارة الشعوب البلقانية للمطالبة باستقلالها عن الدولة العثمانية . لأنها دولة غير صقلبية وتحكم عدداً كبيراً من الصقالبة . كما كانت تخشى من حركة الجامعة الصقلبية ومن نشاط رجال السلك السياسى والقنصلى الروسى فى ولايات البلقان . ولأن انضمام هؤلاء الصقالبة الى جانب روسيا ضد الدولة العثمانية سيعرض الامبراطورية النمساوية والمجرية لاضطرابات خطيرة . ولهذا سارت على سياسة التهدئة والاحتفاظ بالحالة الراهنة ، وعدم الدخول فى حرب قد تعرض امبراطوريتها للانحلال .

ونظرا لاشتعال الثورة فى ولايتى البوسنة والهرسك ، وسوء الحالة المالية فى الدولة العثمانية ، وعجز الدولة عن سداد ديونها ، وما ترتب عليه من تدخل الدول الأوربية فى شئونها المالية ، وتزمر الاتراك من التدخل الأوربى فى شئونهم

الداخلية ، أن اضطر الباب العالى الى اصدار فرمان فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٧٥ يتضمن بعض الاصلاحات لتحسين أحوال سكان هاتين الولايتين . ولكن الثورة لم تنقطع بصدور هذا الفرمان . فتقدم الكونت اندراسى وزير خارجية النمسا بمذكرته بناء على المفاوضات التى جرت بينه وبين جورتشكوف ، وتنص على ضرورة قيام الدولة العثمانية ببعض الاصلاحات فى البلاد الثائرة ، على أن يتولى الإشراف على تنفيذ تلك الاصلاحات لجنة مختلطة . وقد عرضت تلك المذكرة على انجلترا فوافقت عليها إبعاداً لروسيا عن التدخل فى شئون الدولة العثمانية، ولكى تتيح للباب العالى فرصة حل الأزمة حلا سلميا .

وعندما عرضت المذكرة على الدولة العثمانية لم تتردد فى قبولها فى فبراير ١٨٧٦ لأنها ستمنحها فسحة من الوقت لضرب القوى المحرضة على الثورة ألا وهى قوة الصرب والجبل الأسود .

ماذا كان رد فعل المذكرة فى كلا المعسكرين المتناحرين وفى الدول الأوربية المعنية بالأمر؟ لم تغير المذكرة - فى حقيقة الأمر - من الوضع شيئا. فهى لم تعمل على تهدئة الحالة ، أو تضع حداً للاستعدادات الحربية الجارية من قبل الطرفين . بل على العكس من ذلك زادت الموقف توتراً وذلك لعدم خلوص النية ولا سيما من قبل الروسيا التى كانت تود فى قرارة نفسها ألا ينجح الكونت اندراسى فى مساعيه السلمية حتى تتاح لها الفرصة للتدخل فى صالح الثوار [1] .

---

1 - D.D.F. 1ér série vol. 11 P. 41. M. de Ring, chargé d'Aff. de France à Vienne , à M. Le Duc Decazes. No. 33 Vienne 6 Fev. 1876.

كان الاختلاف جوهريا بين وجهتى النظر الروسية والانجليزية . فالحكومة الانجليزية وعلى رأسها دزرايلى كانت ترى المحافظة على كيان الدولة العثمانية ، تلك السياسة التى سارت عليها بصفة عامة طوال الثلاثة الارباع الأولى من القرن التاسع عشر ، ولكننا نجد فى ذلك الوقت أصواتا ترتفع من حزب الأحرار البريطانى وعلى رأسه جلادستون تنادى بالتحرر من تلك السياسة والعمل على تصفية ممتلكات الدولة العثمانية فى أوربا . وكان تمسك الحكومة الانجليزية بتلك السياسة مبعثه الوقوف ضد رغبات السياسة الروسية ، ومنع النفوذ الروسى بمختلف الطرق من الوصول الى منطقة المضايق وتهديد المصالح البريطانية فى البحر المتوسط[1] .

وكانت الحكومة الفرنسية تتفق فى نظرتها السياسية مع وجهة النظر الإنجليزية فى هذا الشأن، لأنها تتلاءم مع مصلحة فرنسا فى شرق البحر المتوسط. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لحاجة فرنسا إلى صداقة انجلترا بعد هزيمتها فى الحرب السبعينية . ولكنها فى نفس الوقت تريد الاحتفاظ بصداقة الروسيا لخوفها من ألمانيا . ولذا نادت بسياسة المحافظة على الحالة الراهنة فى شرق البحر المتوسط ، والسير على سياسة التهدئة والوقوف على الحياد فى أية حرب تنشب بين تركيا وروسيا . وقد بذلت فرنسا بالإشتراك مع إنجلترا ـ مساعيها لمنع الصرب والجبل الأسود من الاشتراك فى الثورة حتى لا يؤدى اشتراكها إلى تدخل الدول الأوربية وإلى زعزعة السلام الأوربى . وكانت الدولتان تحرصان على منع أى تدخل أوربى ، سواء كان من قبل دولة واحدة أو من قبل مجموعة من الدول .

1- D.D.F. 1er serie vol. 11 P. 5 Le Duc Decazes, Ministre des Aff Etrang. à M. Marquis d'Harcourt, Amb. de France à Londres No. 5 Paris, 18 Aout 1878.

وقد أعلن اللورد دربى[١] فى ذلك الوقت عن اعتقاده بسيادة السلام بالرغم من الاستعدادات الحربية الضخمة من الطرفين .

كذلك بذلت حكومتا النمسا وفرنسا مساعيها السلمية لدى حكومة بلغراد لتكف تحريضها الثوار، وتوقف استعداداتها العسكرية ، مظهرتين لها بأن الدول الاوروبية الكبرى لن تسمح بإمتداد الثورة إلى الولايات البلقانية الاخرى [٢] .

ولكن نظرا لإستمرار الجبل الأسود فى تعضيد ثوار الهرسك أن صممت الحكومة التركية على إعلان الحرب عليه. وما أن علم جوردتشكوف وزير خارجية الروسيا بهذا التصميم حتى جمع سفراء الدول الاوربية وطلب منهم القيام بتدبير جماعى للوقوف حائلا بين تركيا وبين ماتنوى القيام به وكان لجهود الحكومات الاوربية أثره فى تعديل موقف الحكومة التركية ، فاكتفت تركيا بإرسال قوة عسكرية إلى مدينة أشقورة لمراقبة تصرفات حكومة الجبل الاسود ، على ألا تستخدم تلك القوة فى الهجوم عليها .

ومما زاد الموقف خطورة وتعقيدا قتل قنصلى فرنسا وألمانيا فى ميناء سالونيك ويتلخص هذا الحادث فى أن فتاة بلغارية مسيحية اعتنقت الاسلام وجاءت إلى سالونيك لإشهار إسلامها رسميا . وبينما هى فى طريقها إلى دار الحكومة إختطفها

1 — D.D.F. 1er serie vol. 11 P. 31 M. Gavard, chargé d'Aff de France à Londres, à M. Le Duc Decazes No. 24 Londres 19 Dec. 1875.

2—D.D.F. 1er serie vol.11 P. 43 Le Duc Decazes aux Amb. de France à Londres, Saint-Petersbourg, Berlin, No. 36 Paris, 5 Mars, 1876.

نفر من بنى جلدتها وأخفوها فى مكان ما . فلما علم المسلمون بذلك ثاروا وطلبوا من الجهات المسئولة إعادة الفتاة . ثم تجمع المتذمرون فى مسجد للتشاور فيما يجب عليهم القيام به . وبينما هم كذلك حضر قنصلا فرنسا وألمانيا ، ويقال أنهما حاولا اقتحام المسجد عنوة على المجتمعين، فهجموا عليهما فخرا صريعين ولم تجد محاولات الوالى محمد رأفت باشا فى الاستنجاد بالقوة العسكرية أو بملاحى السفن العثمانية الرئيسية بالميناء .

وما أن علم الباب العالى بالحادث حتى بادر بإرسال لجنة للتحقيق فيه ، كما أسرعت حكومتا فرنسا وألمانيا إلى إرسال باخرتين حربيتين للتأكد من إجراءات التحقيق ولتأمين مصالحها مستقبلا [1] . وتبعتها سفن انجلترا وروسيا والنمسا وإيطاليا واليونان .

وانتهى هذا الحادث الخطير بقبول الباب العالى ترضية الحكومتين الفرنسية والألمانية ، وذلك بنفى والى سالونيك وبعض الموظفين المسئولين وإعدام القتلة . وقد تم بالفعل تنفيذ حكم الاعدام فى ستة أفراد بمدينة سالونيك ، وذلك بحضور البعثتين الفرنسية والألمانية والقنصل الانجليزى بالمدينة [2] .

وقد دفعت الأحداث المتوالية فى البلقان : من إستمرار الثورة فى البوسنة والهرسك واستعداد الجبل الأسود والصرب لمساعدة اخوانهم فى الجيش، بالاضافة إلى الموقف الحرج الذى خلقته حادثة سالونيك ، بسمرك وجورتشكوف وزير

---

1 - Duckle; The Life of B. Disraeli vol. 11 P. 894.

2 - D.D.F. 1er serie vol. 11 P. 62 M. de Bourgoing à M. Le Duc Décazes No. 5 Péra, 16 M. Mai 1876.

خارجية الروسيا والكونت اندراسى وزير خارجية النمسا الى الاجتماع فى برلين دون اشتراك انجلترا وذلك فى مايو ١٨٧٦ ، وتقدموا إلى الباب العالى بمقترحات من وحى [١] الحكومة الروسية تضمنتها ما تسمى بمذكرة برلين Berlin Memorandum بعد موافقة الحكومتين الايطالية والفرنسية عليها . وتنص المذكرة على القرارات الآتية [٢] :

يعرض على الباب العالى ايقاف العمليات الحربية لمدة شهرين ، وأن يدخل مباشرة فى مفاوضات مع رؤساء الثوار بالبوسنة والهرسك بشأن المطالب التى تقدموا بها والتى اعتبرت صالحة لأن تكون أساسا للبحث والمناقشة وهى :

أولا : تدبير المهمات اللازمة لانشاء مساكن وكنائس للأهالى الذين سيعودون إلى البوسنة والهرسك وأن يعاونوا فى تدبير شئون معاشهم .

ثانياً : أن يكون المجلس المشار اليه فى تقرير الكونت اندراسى للاشراف على تنفيذ الاصلاحات تحت رئاسة أحد المسيحيين من سكان الهرسك .

ثالثاً : جمع الجنود العثمانية وتركيزهم فى مواضع معينة لتهدأ الثورة .

رابعاً : أن يسمح النصارى بحمل السلاح أسوة بالمسلمين .

خامساً : أن يقوم قناصل الدول بالاشراف على تنفيذ الاصلاحات المشار اليها واسكان المهاجرين . وإذا انقضت مدة الهدنة ولم يوفق الطرفان إلى ابرام

1 - Buckle; The Life of B. Disraeli sid. 11 P. 894

٢ ـ محفظة رقم ٢٨٥ عابدين ، برقية من طلعت باشا (كاتب الديوان الخديوى المنتدب للعمل بالاستانة) إلى مهردار الخديو فى ١٩ مايو سنة ١٨٧٦

الصلح ، فان الدول الثلاث ترى عقد اتفاق خاص تتخذ فيه التدابير اللازمة لقمع الثورة بغير الطرق الدبلوماسية .

رفض الباب العالى قبول المذكرة ، وشجعه على ذلك عدم اشتراك الحكومة الانجليزية فى توقيعها . هذا بالاضافة الى ما تضمنته من مساس بالحقوق الشرعية للدولة العثمانية .

وحدث قبيل انتهاء شهر ابريل ١٨٧٦ أن عم الاضطراب ولاية بلغاريا ، وقام أهل البلاد بتدبير مذبحة للموظفين المحليين من الأتراك . كما قام البلغاريون المسلحون فى احدى القرى بجهة بازارجق بالهجوم على سكانها من المسلمين ، وكانوا أقل منهم عدداً . فاعتصم هؤلاء المسلمون بمنازلهم . وقام الثوار بقطع أسلاك البرق لمنع النجدات التركية من الوصول الى القرية (١) . ثم هاجموا المسلمين وحدثت مذبحة دبرتها أيد خارج حدود بلغاريا (٢) . وتشير أصابع الاتهام الى الروسيا وكانت المنطقة الجبلية المحيطة ببلدة فليبوليس مسرحا لهذا الحادث .

وإزاء الثورات المشتعلة فى ولايتى البوسنة والهرسك ، والتهديد بالحرب من جانب الصرب والجبل الأسود ، صمم الباب العالى على القيام بعمل حربى حاسم لحماية قواته المهددة من قبل الثوار ولتأديب البلغاريين . ولم يستخدم فى هذا الهجوم قوات تركية نظامية فحسب ، بل سبقتها قوات غير نظامية من الباشبوزق والشراكسة ، فانهالت تلك القوات الأخيرة على الفلاحين ، وكان معظمهم من

١ - محفظة ٢٨٥ عابدين . برقية من طلعت باشا فى ٤ مايو ١٨٧٦ (١٠ ربيع ثان ١٢٩٣)

2- Buckle; The Life of Dis. vol. 11 P. 913

لا يملكون سلاحا - فاشبعوهم جرحا وتقتيلا . وبذلك انتقم الأتراك لأنفسهم من مذبحة فيليبوبوليس أضعافا مضاعفة . وقد ذهب ضحية هـذا الحادث عدد يقدر بنحو ١٢ ألف نسمة [1] (حسب تقدير المبعوث الانجليزى ولتر بيرنج Walter Baring الذى أرسلته الحكومة الانجليزية لموافاتها بتقرير دقيق عن الحادث) . وقد نهبت عشرات القرى ونكبت بلدة باتاق نكبة شديدة [2].

وقد استغرق هذا العمل مدة الثلاثة الأسابيع الأولى من شهر مايو ١٨٧٦ ، ولـكن أنباء هـذا الحادث لم تصل إلى الرأى العـام الانجليزى إلا فى ٢٣ يونيو ١٨٧٦ حيث نشرت جريدة الديلى نيوز الناطقة بلسان حزب الأحرار وعلى رأسه جلادستون هذا الحادث وبالغت فى وصف وقائعه مبالغة شديدة، دون أن تشير إلى أن هذا التصرف من قبل القوات التركية كان نتيجة لتلك المذبحـة التى قام بها سكان بلغاريا ضـد الموظفين الأتراك، ولهجومهم على المسلمين الآمنين فى القرى البلغارية . بل كلها دافعت بتحيز عن البلغاريين بصفة خاصة وعلى شعوب البلقان بصفة عامة .

وانتهـز المعارضون لوزارة دزريلى المحافظة هذه الفرصة وهاجموا الحكومة الانجليزية وطالبوا رئيسها بتغيير سياسته إزاء الدولة العثمانيـة ، ولكن دزريلى

---

١ ـ المصدر السابق ص ٩١٩

٢ ـ يذكر المؤرخ M.A. Malet فى مقاله "La Politique Europienne Jusqu' au Traité de Berlin". فى مجموعة Histoire Génèrale المجلد الثانى عشر ص ٤١٨ بأن عدد من قتل من سكان القرية البالغ ١٦ ألف نسمة هو ٧٠٠٠ نسمة كما اشتعلت النيران فى ٧٩ قرية وقتل مالا يقل عن ١٥ ألف نسمة، وأصبح ٨٠٠٠ أخر بدون مأوى .

لم يجد فى هـذا الحادث سبباً كافياً لتغيير سياسة انجلترا التقليدية إزاء البـاب العـالى .

وقد محت تلك المذبحة ما كان لتركيا من احترام وتقـدير لدى الشعب الانجليزى وأسدلت ستارا مؤقتا من النسيان على الشك فى نوايا الحكومة الروسية إزاء الدولة (١) العثمانية . وأن ثورة الرأى العام فى انجلترا وروسيا ضد الاتراك قد أوضحت بجلاء استحالة الاحتفاظ بالحالة الراهنة دون تغيير . ولهذا فعندما رفضت تركيا قبول الفكرة التى وضعتها الدول الاوربية فى مؤتمر الآستانة لحل مشكلة البلقان ، لم يكن من الممكن للحكومتين الانجليزية والنمساوية منـع روسيا من دخول الحرب (٢) .

ثم أعقب هـذا الهجوم من قبل المعارضة هجوما آخر من قبل جلادستون زعيم الاحرار فى بريطانيا فى ٦ سبتمبر ١٨٧٦ بنى فيـه هجومه عـلى ما نشرته صحيفة الديلى نيوز الانجليزية من أخبار مبالغ فيها إلى حد كبير ، وصف فيها الاتراك بأبشـع ما توصف به أمة من الامم ، فاتهمهم بأنهم أعداء الانسانية .
" The one great anti-human specimen of humanity ".
ثم هاجم سياسة حكومة المحافظين إزاء المسألة الشرقية وهى سياسة الاحتفـاظ بالحـالة الراهنة statu quo وطالب بضرورة تغييرها وطـرد الاتراك من أوربا (٣) .

ولكن اللورد بيكونزفيلد كان يسير فى ذلك الوقت على سياسة عـــدم

1 - Safwat M.; Tunis and The Great Powers. P. 139.
2 - Medlicott; The Congress of Berlin and After P. 2
3 - Buckle, The Life of B. Disreali vol. P. 932

التدخل. وقد رفض من قبل التوقيع على مذكرة برلين لهذا السبب ، لأنها طالبت بالتدخل الدولى . واكتفى بإرسال بعض قطع من الأسطول الانجليزى إلى مياه Besika لحماية الرعايا والممتلكات الانجليزية ولمنع تكرار المذابح المسيحية . وقد بعث وجود الأسطول الانجليزى فى المياه التركية الطمأنينة فى نفوس الطوائف المسيحية .

اضطربت الأحوال الداخلية فى الدولة العثمانية فى أواخر أيام السلطان عبد العزيز نتيجة التدخل الأوربى فى شئون الدولة واتهام الصدر الأعظم محمود نديم وشيخ الاسلام حسن فهمى بممالأة الحكومة الروسية. فثار طلبة المدارس ضدهما والتف حولهم الغاضبون على سياسة الحكومة ، فاضطر السلطان عبدالحميد إلى عزلهما من منصبيهما حتى تهدأ الثورة . ثم تبع ذلك عزل السلطان عبد العزيز بيد مدحت باشا وأعوانه وتعيين السلطان مراد الخامس بدلا منه . وإزاء تلك الأحداث التى مرت بالدولة وانشغالها بشئونها الداخلية استمرت الثورة مشتعلة فى ولايتى البوسنة والهرسك وبلغاريا . ولم يجد ما أصدره السلطان العثمانى الجديد من منشورات بالعفو عن العصاة فى تهدئة الخواطر .

ولقد تظاهرت ولاية الصرب فى أوائل يونيو ١٨٧٦ بنواياها الطيبة إزاء الدولة العثمانية لتخفى وراءها استعداداتها الحربية . وتواردت الأخبار فى ذلك الوقت بأن قيصر الروسيا قد استدعى قنصل بلاده لدى حكومة الصرب وأبلغه أن ينصح حكومة الصرب بعدم تجاوز حدودها ، وبأنها إذا خالفت نصيحته فإنه لن يتدخل فى صالحها. ولكن كان هذا بطبيعة الحال مناورة سياسية من جانب الروسيا .

ولما أتمت ولاية الصرب استعدادها الحربى اتهمت الدولة العثمانية (فى ٢٢

يونية ١٨٧٦) باستخدام القسوة ، والعنف ضد المسيحيين ، وطالب الأمير ميلان بابعاد الجيش عن حدود بلاده ، ثم أعلن على تركيا الحرب فى ٣٠ يونيه ١٨٧٦ . وتبعته الجبل الأسود فى أول يوليو أى فى اليوم التالى . وفى ٢ يوليو عبرت قوات الصرب الحدود التركية . وقد أزعجت هذه الأنباء الامبراطور غليوم الأول امبراطور ألمانيا ، لما قد يترتب عليها من قيام حرب أوربية تجد ألمانيا نفسها مضطرة لخوض غمارها ، وربما فقدت ألمانيا مالها من مركز متفوق فى أوربا [1] .

وكان موقف الحكومة الانجليزية من هذه الحرب هو موقف الحياد التام « Strict neutrality » . ولكنها كما قال اللورد دربى وزير الخارجية لن تدخر وسعا فى تقديم معونتها كدولة صديقة لوضع حد لتلك الحرب . وأعرب اللورد دربى عن سياسة انجلترا فى ذلك الوقت إزاء تركيا بقوله: لاريب أننا قد أخذنا على عاتقنا منذ عشرين سنة خلت أن تؤمن بقاء الرجل المريض (الدولة العثمانية) ضد القتل ، ولكننا لم نضمنه مطلقا ضد الانتحار أو الموت المفاجىء [2] .

لم تؤخذ الحكومة التركية على غرة باعلان الصرب والجبل الأسود الحرب، بل كانت قد اتخذت للأمر عدته ، فجهزت جيشا قوامه ١٢٠ الف مقاتل [3] . هذا فيما عدا ٣٠,٠٠٠ جندى بصفة احتياطى وضعت فى أدرنه .

أما الجيش الصربى فكان يتكون من ١١٠,٠٠٠ مقاتل اشترك فى قيادته

---

1 - D. D. F. 1er serie vol. 11 p. 76. M. de Gontaut - Biron, Ambassadeur de France à Berlin, à M. La Duc Décazes no. 70 Ems, 28 Yuin 1876.

2 - Buckle; The Life of B. Dis. p. 909.

٣ - مجلة الجيش - المجلد التاسع العدد ٣٦

الجنرال الروسى تاهرنتيف Tahernateff وبعض الضباط الروس الذين كانوا يشرفون على تدريب الجيش الصربى وتنميته (١) .

وبإعلان الصرب والجبل الأسود الحرب على تركيا تمت الحلقة الأولى من المخطط الروسى الذى تعمل روسيا جاهدة على تحقيقه ، وذلك بأن تتاح لها فرصة التدخل للاجهاز على تركيـــا . ولكى لا تعرقل النمسا تنفيذ هذا المخطط قامت بالاتفاق معها فى رشستادت Reichstadt على تقسيم الغنيمة فيما بينها . وذلك بقبول الطرفين مبدأ عدم التدخل فى الحرب الدائرة بين الأتراك والدويلات البلقانية الثائرة . فإذا تحقق للصرب النصر تدخلت الدولتان لأخذ نصيبها من الغنيمة . فتأخذ النمسا البوسنة والهرسك، وتضم الروسيا اقليم بسارابيا وأن تصبح الآستانة مدينة حرة . وإذا ما انتصر الأتراك تتدخل الدولتان لحرمان الدولة العثمانية من ثمرة انتصارها ولحماية الصرب من انتقام العثمانيين .

لم تستجب الصرب لنصح الدول الكبرى مثـــل انجلترا وفرنسا والنمسا ، ودخلت الحرب ضد العثمانيين مدفوعة بتعضيد الروس ، مطمئنة إلى تدخلهم فى صالحها فى الوقت المناسب ولم توفق الصرب فى حربهـا وتوالت الهزائم عليها . وباتت الفرصة مواتيـة للروس للتدخل العسكرى دفاعا عن الصقـالبة الصغـار (صقالبة البلقان) وتدعيما لفكرة الجامعة الصقلبية ، وتحقيقا لأطماعهم فى ممتلكات الدولة العثمانيـة . وكان رأس المنـادين بالحرب القيصر الروسى ووزير خارجيته جورتشكوف . « وكان الدافع الأول لجورتشكوف هو اكتساب مجد يختم به حياته السياسية . »(١)

---

1 - D.D.F. 1er serie vol. II p. 86 Le Marquis d'Harcourt Amb. de France, à Landres, à M. Le Duc Décazes. no.81 Londres, 29 Aout, 1876

٢ ــ محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ ص ٢٤

كانت النمسا فى ذلك الوقت تؤيد فكرة التدخل الأوربى لحسم تلك المشكلة. أما انجلترا(١) فكانت ترغب فى أن يواصل الباب العالى مفاوضاته مع الثوار بمدة وحزم للوصول إلى اتفاق فيما بينهم بعيدين عن كل ضغط خارجى. وكان لهذه السياسة وجهان : الأول أن الباب العالى قد لا يستطيع التغلب على الثوار ، وفى تلك الحالة سيضطر إلى منحهم نظاماً شبيهاً بنظام ولايتى الصرب ورومانيـــا . والوجه الثانى أن الباب العالى ربما استطاع قهر الثوار وتحطيم قوتهم العسكرية . وفى هذه الحالة يكون الوقت مناسباً للتدخل الأوربى لمنح الثوار نظاماً يشبه النظام الذى منح لكريت عقب ثورتها فى ١٨٦٧/٦٦ . وكانت سياسة الحكومة الفرنسية تتفق مع سياسة الحكومة الانجليزية فى هذا الشأن (٢) .

طالبت الروسيا بوقف القتال عندما توالت هزائم الصرب واشتد الخطر على عاصمتهم ، وعقد هدنة بين الطرفين ودعوة الدول الأوربية المعنية بالأمر إلى عقد مؤتمر للنظر فى الموقف . وكانت روسيا ترمى من وراء ذلك إلى حرمان العثمانيين من ثمرة انتصاراتهم ، وإتاحة الفرصة للصرب كى تعيد تنظيم صفوفها من جديد .

وجد بسمرك فى هذا الموقف فرصته فى التدخل لتنفيذ سياسته التى طالما أعلنها من قبل ، ألا وهى عدم حل المسألة الشرقية بشكل جزئى ، وإنما أن تطرح المسألة برمتها على بساط البحث . فهو يرى أن الدولة العثمانية لا يمكن

1 - D.D.F. 1er sarie vol. 11 p. 77 et 78 Le Duc Décazes à M. Le Ceneral Llô, Ambassadeur de Franca à St. Petersbour No. 71 Versailles, 6 Juillet 1877.

٢ — المصدر السابق

اصلاحها وأن الحكمة تقضى النظر فى تصفية ممتلكاتها العربية وتوزيعها على الدول الكبرى صاحبة المصالح . فبسمرك لا يمـــانع مطلقاً فى أن تحتل انجلترا مصر بالاتفاق مع فرنسا ، وأن تمد روسيا نفوذها على شرق البلقان والنمسا على غربه. وبهذا يتحقق التفاهم بين الدول الكبرى وينشر السلام جناحيه على أوربا وتخيل للاستاذ سيتون واطسون Seton - Watson [1] الذى كان أستاذاً للدراسات الصقالبية فى جامعة لندن) أن بسمرك كان يريد بسياسته هذه أن يرضى انجلترا من ناحية وأن يوقع بين انجلترا وفرنسا من ناحية أخرى . والحقيقة أن بسمرك فى تلك الفترة كان مخلصا فى اقتراحه ، لأن من صالح المانيا اشغال فرنسا بكسب خارجى وإيجاد نوع من التعاون بينها وبين فرنسا خارج أوربا.

فبسمرك يرى إذن فى اتفاق هذه الدول على تقسيم الغنيمة خيرا لها من أن تعارض كل منها الأخرى ، وأن تحول بينها وبين ما تريد ، مما قد يترتب عليه قيام حرب أوربيــة تقضى على التفوق الألمانى فى القــارة ، ونجد أن بسمرك كان يلح فى إخراج مقترحاته هذه إلى حيز الوجود منذ عام ١٨٧٥ ، ولـكن انجلترا كانت تؤجل تنفيذهـا لسببين الأول شكها فى نوايا بسمرك وفى مدى اخلاصه فى هذا العرض والثـانى أن استيلاءها على مصر فى نفس الوقت الذى تستولى فيه الروسيا على منطقة المضايق والآستانة سيقلل إلى حد كبير من قيمة تلك الصفقـة ، إذ من المحتمل - إن لم يكن من المؤكد - أن وصول الروس إلى الآستانة سيدفعهم إلى التطلع إلى بسط نفوذهم على حوض البحر المتوسط الشرقى، وما فى ذلك من تهديد لمصر وسوريا على السواء .

---

1 - Seton-Watson, The Southet Slav Question and the Hapsburg Monarchy P.

تمسكت انجلترا طويلا بسياسة المحافظة على كيان الدولة العثمانية ، ولكن منذ السبعينات من القرن التاسع عشر ، بدأت تلك السياسة تجد معارضة شديدة من قبل بعض الساسة الانجليز لاسيما جلادستون . وفشلت حكومة المحافظين فى التمسك بسياسة بدا عدم جدواها ، خصوصا وأن الرأى العام الانجليزى بدأ يتحول عن تأييده للدولة العثمانية لاعتقاده بألا فائدة من اصلاحها أو تدعيم بقائها .

وقد صرح اللورد دربى وزير الخارجية الانجليزية للمركيز دى هاركورت سفير فرنسا فى لندن بأنه فى حالة تدخل الروسيا فى الحرب ، فان الحكومة الانجليزية تحت تأثير الرأى العام الانجليزى ربما لاتستطيع أن تفعل شيئا لمنعها[1] ولكنه أوضح فى نفس الوقت أن تخلى انجلترا عن سياستها التقليدية فى المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية ليس معناه الاعتراف بالأطماع الروسية فى تلك الممتلكات . وأن انجلترا ستعمل جاهدة على منع الروس من الوصول إلى منطقة المضايق وبالتالى إلى البحر المتوسط وتهديد المصالح الانجليزية فى تلك البقعة من العالم .

وبمجيء سولسبرى إلى وزارة الخارجية الانجليزية فى صيف عام ١٨٧٨ بدأت صفحة جديدة فى العلاقات الانجليزية العثمانية تقوم أساسا على فكرة تصفية ممتلكات الدولة العثمانية الأوربية ، تلك الفكرة التى حاول ساسة انجلترا

1 - D.D.F, 1er serie vol. 11 p. 88 Le Marquis d'arcourt Ambassadeur de France à Londre, à M. Le Duc Ducazes No. 84 Londres, 10 Sept 1876.

طوال الثلاثة الارباع الأولى من القرن التاسع عشر استبعادها ومعارضتها بكل شدة وعنف .

مؤتمر الاستانة :

على أثر الفشل الذريع الذى منيت به قوات الصرب فى محاولاتها الأخيرة على سهل مورافا وسقوط استحكامات بلغراد وعكسيناج تلقى الجنرال اجناتيف سفير روسيا فى الآستانة ، أمرا من حكومته بقطع العلاقات الدبلوماسية وبمغادرة الآستانة إذا لم توقف الحكومة العثمانية الحرب فى ظرف ثمانية وأربعين ساعة (١) .

وقد وافقت الحكومة التركية على شروط وقف القتال ، وأرسلت بتعليماتها إلى قوادها العسكريين لإيقاف العمليات الحربية فى كل من الصرب والجبل الأسود .

لم يتوقف القتال سوى من جانب الدولة العثمانية فحسب بينما لم تذعن الصرب أو الجبل الأسود لهذا الأمر إلا بعد تدخل الدول الأوربية الكبرى . بناء على ذلك قررت إنجلترا دعوة الدول الأوربية الكبرى إلى عقد مؤتمر فى الآستانة دون إشتراك الباب العالى - كطلب روسيا - على أساس المقترحات الانجليزية ، مع المحافظة على كيان الدولة العثمانية . وأن تتعهد كل دولة بألا ترمى من وراء اشتراكها فى المؤتمر إلى أى كسب شخصى (٢) وقد وافقت النمسا على وجهة نظر إنجلترا هذه .

---

١ - محفظة ٢٨٥ عابدين (ترکی) برقية من طلعت باشا فى ٢ نوفمبر سنة ١٨٧٦ (١٥ شوال سنة ١٢٩٣)

2 - D. D. F. vol. 11 p. 107 Le Marquis d' Harcourt, Ambassadeur de France à Londres, à M. Le Duc Décazes; no 107 Londres, 4 nov. 1876

وفى خــلال الدعوة لعقد المؤتمر صرح (١١ نوفبر سنة ١٨٧٦) القيصر الروسى اسكندر فى الكرملين بأنه ظل حوال فترة حكمه يعمل على تحسين أحوال الرعايا المسيحيين فى الولايات التركية ، وسينعقد مؤتمر بالآستانة للنظر فيما يجب إدخاله من إصلاحات،وأنه إذا لم تقبل تركيا القيام بها فستلجأ الحكومة الروسية إلى استخدام القوة .

ومما شجع الروسيا على الوقوف هذ الموقف الصلب تأكدها من تأييد بسمرك لسياستها إزاء الدولة العثمانية ، لأن ألمانيا لم تكن تعتقد فى جدوى المؤتمرات فى حل المشكلات الأوربية . (١)

ولم يكن تصريح القيصر الروسى مجرد تهديد لتركيا ، بل أن الحكومة الروسية انتهزت فرصة انعقاد مؤتمر الآستانة وحشدت ٢٥٠ الف جنــــدى على حدود ولايتى الأفلاق والبغدان، ونحو ١٥٠ الف مقاتل على حدود الأناضول. فأصبح مركز الدولة العثمانية فى غاية الخطورة .

وقد وضح خلال السنوات الأخيرة التقرب بين الروسيا وألمانيا ، وبذلك احتلت ألمانيا ماكان لفرنسا من مركز متفوق لدى حكومة بطرسبرج . وقد نبه الجنرال لوفلو Le Flo سفير فرنسا فى بطرسبرج حكومته إلى هذه الحقيقة وأوعز السبب فى ذلك إلى اتفاق سياسة الحكومتين الفرنسية والانجليزية . وأشار عليها بأن تكون تصرفات مندوب فرنسا فى مؤتمر الآستانه فيها نوع من المجاملة

---

1 - D.D. F. vol. 11 p. 129 M. de Bourgoing, Ambassadeur de France à Constantinople, à M. Le Duc Décazes no. 126 Péra, 25 Dec. 1876.

الحكومة الروسية حتى لا تظل برلين محورا للسياسة الروسية (١).

حاول السلطان عبد الحميد أن يحبط أعمال المؤتمر فأعلن فى اليوم الأول لانعقاده موافقته على اعلان الدستور العثمانى . ذلك الدستور الذى كان ثمرة لكفاح طويل بين مدحت باشا وأعوانه وبين السلطان عبد العزيز . وكان هذا الإعلان حركة سياسية بارعة من جانب السلطان عبد الحميد ، إذ أن معناه بطريق غير مباشر انذار لمندوبى الدول الاوربية المجتمعين فى المؤتمر بانتهاء سبب المشكلة التى انعقدوا من أجلها . فلم يكن لاجتماع الدول الأوربية أى معنى بعد اعلان الدستور العثمانى الذى يسوى بين جميع العناصر والأديان فى الأمبراطورية العثمانية فى الحقوق والواجبات .

ولكن حكومات الدول الأوربية الممثلة فى المؤتمر كانت تعلم نوايا السلطان عبدالحميد الاستبدادية وبأن إعلان الدستور ماهو إلا مناورة بارعة لإبعاد التدخل الأوربى فى شئون البلقان . ولهذا واصلت اجتماعاتها رغم إعلان الدستور .

أخذت الروسيا تستعد للحرب فبذلت مساعيها لدى حكومة بوخارست لضم بلغاريا إلى جانبها فى حالة قيام حرب بينها وبين الحكومة العثمانية ، وكان أغلب أعضاء الوزارة البلغارية يميلون إلى التحالف مع الروسيا . أما أعضاء البرلمان البلغاوى فكانوا مترددين (٢) . واستطاعت الحكومة الروسية ابرام معاهدة

---

1 - D. D. F. vol. III p. 120 Le Général Flô, Ambassadeur de France à Petersbourg à M. Le Duc Décazes. no. 117 Petesbourg, 20 nov. 1876.

2 - Ibid. M. Debains, Consul général de France à Bucarest, à M. Le Duc Décazes. no. 123 Bucarest, 15 Dec. 1876.

سرية مع رومانيا (٢٨ نوفمبر ١٨٧٦) تخول الجيوش الروسية حق المرور في الأراضي الرومانية واستخدام بعض مواردها . وفي نفس الوقت استفسرت من الحكومة الألمانية عما إذا كانت تستطيع الاعتماد على حياد ألمانيا فيما إذا أدت الحرب بين روسيا وتركيا إلى الدخول في حرب مع النمسا . وعندما تأخر رد الحكومة الألمانية دخلت الحكومة الروسية في مفاوضات مباشرة مع النمسا انتهت بعقد معاهدة سرية في ١٥ يناير سنة ١٨٧٧ ، تنص على وقوف الامبراطورية النمساوية على الحياد في حالة قيام حرب بين تركيا وروسيا بشرط أن توافق روسيا على احتلال النمسا للبوسنة والهرسك في معاهدة الصلح .

وعندما عقد مؤتمر الآستانة وطرحت المشكلة البلقانية على بساط البحث ظهرت الخلافات في وجهات النظر بين الدول المختلفة تبعا لمصالحها المتباينة .

ونتيجة لهذا الاختلاف عزمت الحكومة الروسية على الإلتجاء إلى القوة معتمدة على تأييد الامبراطوريتين الألمانية والنمساوية . ولكن الحكومة الإنجليزية صرحت بأنها ترفض الاشتراك في أي عمل قهري تقوم به الدول الأوربية إزاء الدولة العثمانية .

كما أظهرت الحكومة الفرنسية بكل وضوح وجلاء عدم تعاونها في أي عمل حربي ضد تركيا يكون الغرض منه تنفيذ مشيئة الدول الأوربية بالقوة عن طريق التدخل الحربي المسلح .

وقد اقترح الجنرال اجناتيف (سفير الروسيا في الآستانه) في المؤتمر توجيه إنذار إلى الحكومة التركية يتضمن المبادىء العامة ، والقرارات التي إتخذها المؤتمر موضحا بأن أية مذبحة جديدة أيا كانت ، أو أي إعتداء على أية ولاية من ولايات البلقان يعتبر تحرشا لأوربا بأجمعها تقابله بما تراه من إجراءات .

وافق أعضاء المؤتمر على اقتراح الحكومة الروسية من حيث المبدأ ، ولكنهم طلبوا تخفيف شروطه لتكون مقبولة لدى الباب العالي ولدى الحكومة الانجليزية(١) وبينما كان أعضاء المؤتمر يحاولون تخفيف الشروط ، رفض مندوب ألمانيا فى المؤتمر الموافقة على ذلك بناء على تعليمات بسمرك - بحجة أن فى هذا العمل إهدارا لكرامة أوربا ، إذ أن بسمرك يرفض أن يحط من شأن الإمبراطورية الألمانية .

وكانت الحكومة العثمانية تأمل فى أن تجد فى اختلاف وجهات نظر الدول الأوربية ما يساعدها على مواجهة الموقف . وأخيرا وافقت الحكومة الألمانية على الصيغة النهائية لقرارات المؤتمر (٢)

وتتضمن قرارات المؤتمر ما يلى :

أولا : ضم جهة مالى زورنيك إلى ولاية الصرب مع ارجاع حدودها القديمة لها .

ثانيا : أن يضم إلى الجبل الأسود جهات اسبيذا وبعض أجزاء من البانيا والهرسك .

ثالثا : منح ولاية البوسنة إستقلالا إداريا ، وأن يعين الباب العالى لحكمها حاكما مسيحيا لمدة خمس سنوات .

---

1 - D, D. F, vol. 11 p. 132 Le général Flô, Amb. de France à St. Petersbonrg. à M. Le Duc Décazes, no. 129 St Petersbourg 3, Jan. 1877

2 - D. D. F. vol. 11 p. 136 M. De Gontaut-Brion; Amb. de France à Berlin à M. Duc Décazes, no. 134 Berlin, 15 Jan. 1877.

رابعاً : منح الاستقلال الداخلى لولاية بلغاريا .

خامسا : تشكيل بوليس وطنى للأقاليم المذكورة ، واعتبار اللغة السلافية لغة رسمية لأنها لغة أكثرية السكان . كما تخصص نصف ميزانية تلك البلاد للصرف على مرافقها العامة .

سادسا : حرية إنتخاب مشايخ القرى والقضاة فى إقليم فلبة ومقدونيا العليا المجاورة للبلاد المذكورة .

سابعا : أن يحتل تلك الإقاليم فترة من الوقت قوة عسكرية بلجيكية قوامها ستة آلاف جندى تكون مصاريفها على حساب الدولة العثمانية .

رفضت الدولة العثمانية تلك القرارات ، واقترحت قبول مشروع الكونت اندراسى وتطبيقه على ولايتى البوسنة والهرسك ، وإنشاء لجنة للمراقبة تنتخب إنتخابا حرا لمدة عام ، وتتكون من مسلمين ومسيحيين ، يرأسهم موظف تختاره الحكومة العثمانية .

وعلى أثر ذلك صرح الجنرال اجناتيف بأن أى اعتداء على الولايات البلقانية أو استخدام القوة ضد المسيحيين يعتبر تحرشا لأوربا المسيحية . (١)

وفى حقيقة الأمر لم يكن مقدرا لهذا المؤتمر النجاح ، فكل الظروف المحيطة به كانت غير مهيأة . كما كانت كل الدول تقريبا تعمل على فشله .

لجأت الحكومة الروسية إلى كسب إنجلترا إلى جانبها ، وذلك عن طريق

---

1 - D.D.F. vol. II p. 137 M. Bourgoing, Amb. de France à Constantinople, à M. Le Duc Décazes. no 135 Pera, 20 Jan. 1877

الاتفاق على صيغة معينة لإقرار السلام مع الحكومة الإنجليزية لتقوم بتقديمها إلى الحكومة العثمانية حتى إذا ما رفضها الباب العالى إستطاعت الحكومة الروسية أن تضمن بقاء الحكومة الانجليزية على الحياد فى الصراع القادم بينها وبين الدولة العثمانية. ولكن الكونت شوفالوف سفير الروسيا بلندن استطاع فى النهاية الوصول إلى اتفاق مع اللورد دربى على مشروع[1] بروتوكول لتقديمه إلى الحكومة التركية.

وقبل توقيع الدول الاوربية على بروتوكول لندن أرسل موسوروس باشا سفير تركيا بلندن إلى حكومته يخبرها بأن الاتفاق لم يتم بين الدول بشأن سحب الجنود الروسية من الحدود، وعلى ذلك فمن المنتظر وقوع الحرب بصفة مؤكدة، وأوصى حكومته بضرورة الاستعداد.[2]

ويبدو أن الحكومة الروسية كانت تتوقع رفض الباب العالى لهذا البروتوكول فأصدرت أوامرها إلى الضباط الروس الملحقين بالجيش الرومانى بأن يكونوا على قدم الاستعداد لإحتمال القيام بحركة هجوم مفاجىء يطلب منهم القيام به. وقد تم توقيع البروتوكول فى لندن من ممثلى الدول الأوربية التى اشتركت فى المؤتمر. ويعبر هذا البروتوكول عن الأمل فى أن يسود السلام الجبل الأسود على أساس تعديل حدوده، مع سحب القوات العثمانية من أراضيه ونزع سلاحها وأن تتعهد الحكومة العثمانية بتحسين أحوال الولايات الثائرة، وذلك تحت إشراف سفراء الدول الأوربية.

---

1 - Le Marqius d'Harcourt, Amb. de France à Landres, à M. Le Duc Décazes no. 146 Londres, 16 mars, 1877.

٢ ـ محفظة ٧٨٥ عابدين (تركى) برقية من طلعت باشا الى المعية السنية فى ٢٦ مارس سنة ١٨٧٧ (١١ ربيع أول سنة ١٢٩٤).

رفض الباب العالى قبول بروتوكول لندن وكذلك البرلمان التركى . وقد علق اللورد دربى على هذا الرفض للقائم بأعمال السفارة الفرنسية فى لندن بأن رفض الباب العالى للبروتوكول قد تم بوحى إحدى الدول التى كان لها نصيب فى الحرب. ولهذا فان توسط الحكومة الانجليزية فى هذا النزاع قد أصبح منتهيا ، وليس لديه الآن مايفعله ، وأنه إذا كانت الحكومة الروسية راغبة عن الحرب فقد فشلت فى سياستها . أما إذا كانت تريد الحرب وأن هدفها إثارة الحكومة التركية لإلقاء مسئولية الحرب على عاتقها فقد نجحت فى ذلك .

وفى حقيقة الأمر فقد نجحت الحكومة الروسية فى سياستها إزاء الدولة العثمانية إذ استطاعت الحصول على موافقة الدول الأوروبية على بروتوكول لندن حتى تضمن بقائها على الحياد فى حالة نشوب حرب بينها وبين الباب العالى ، لأنها أظهرت أمام تلك الدول بأنها قد ذهبت إلى أبعد حد فى التساهل وفى التعاون لحل المشكلة ، ولكن الباب العالى رفض الإستجابة إلى مطالب الدول الأوروبية مجتمعة وبذلك فصلت بين الباب العالى وإنجلترا وهى الدولة التى كان يحتمل تدخلها فى صالح تركيا . ولم يكن ذلك يخاف عن وزير خارجية إنجلترا كما أن فرنسا لاتستطيع أن تقف إلى جوار الباب العالى بعد أن وقفت الحكومة الانجليزية موقف الحياد هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن فرنسا كانت تريد الاحتفاظ بصداقة الدولتين الكبيرتين إنجلترا وروسيا .

أما عن موقف الباب العالى فقد ذهب فى رفضه الخضوع لمطالب الروسيا إلى أبعد مدى ، إعتقادا منه بأن الحكومة الانجليزية لن تتركه وحده فى هذا الصراع مع روسيا لما قد تتعرض له مصالحها فى تلك المنطقة من الخطر كما حدث فى حرب القرم .

كانت الفرصة إذن مواتية للروسيا كى تضرب ضربتها بعد أن اطمأنت إلى

النمسا وألمانيا فى حالة دخولها الحرب ضد تركيا أو إنجلترا . وكانت الظروف الدولية توحى لها بأن انجلترا لن تحرك ساكنا لسببين: أولها أن الشعب الانجليزى والحكومة الانجليزية لم يعودا يتمسكان بسياسة المحافظة على كيان الدولة العثمانية. والثانى أن انجلترا لم تكن مستعدة فى ذلك الوقت لدخول حرب أوربية. وكان كل مايهم انجلترا فى هذا النزاع ألا تمتد العمليات الحربية الروسية إلى مصر أو الخليج العربى أو منطقة المضايق والآستانة .

وبعد أن بدا الموقف للروسيا واضحا جليا لم تتردد فى مهاجمة تركيا بعد إعلان الحرب عليها فى ٢٤ ابريل سنة ١٨٧٧ . وكانت تأمل أن تحرز قواتها انتصارات حاسمة وسريعة على القوات التركية ، وبذلك تضع الرأى العام والدول الأوربية أمام الأمر الواقع . ولم يتحقق لهم ذلك سريعا نظرا لصمود مدينة بلفنا أمام القوات الروسية .

الفصل التاسع

مؤتمر برلين ١٨٧٨

بدأت الحكومة الانجليزية تتحرك عندما بدا الخطر واضحا على الآستانة والمضايق ، فأرسلت ببعض قطع من أسطولها فى مياه البحر المتوسط للوقوف على مقربة من الدردنيل .

أدى ذلك إلى توتر العلاقات بين الروسيا وانجلترا وإلى تدخل المانيا لمحاولة التوفيق بين الدولتين . وفى تلك الأثناء نجح الروس فى فرض معاهدة سان استفانو فى ٣ مارس ١٨٧٨ على الدولة العثمانية . وتنص تلك المعاهدة على اعتراف الدولة العثمانية بحرية الملاحة فى المضايق ، وأن تتعهد بإغلاق البحر الأسود فى وجه الدول المعادية لروسيا فى وقت الحرب . كذلك نصت على استقلال رومانيا بصفة نهائية عن الدولة العثمانية مع منحها جزءاً من دلتا نهر الدانوب . أما بلغاريا فتضم اليها اقليم دبروجة وبذلك تتسع رقعتها وتصبح ولاية كبيرة تتمتع بالاستقلال الذاتى مع الاعتراف بالسيادة الإسمية للباب العالى . وإلى أن تصبح تلك الولاية قادرة على حماية نفسها تقوم القوات الروسية باحتلالها .

كذلك تلحق أجزاء من الهرسك بالجبل الأسود . أما بخصوص الروسيا فتضم اليها اقليم بسارابيا وأردهان وقارس وباطوم وجزء من أرمنية . هــذا بالاضافة إلى غرامة حربية فرضتها على الدولة العثمانية قدرها ٢٣٥ مليون جنيه .

وقبل أن يصل الى علم الحكومة الانجليزية نبأ توقيع تلك المعاهدة أدلى اللورد

دربى بتصريح فى منتصف مارس سنة ١٨٧٨ بأنه يجب أن يكون مفهوما أن كل بند من بنود المعاهدة التى ستوقع بين الحكومتين الروسية والعثمانية ، يجب أن يعرض على مندوبى الدول الأوربية فى المؤتمر لالتصديق عليه ولكن التطرقيه.

قوبلت تلك المعاهدة بهجوم عنيف من قبل انجلترا والنمسا ، لأنها منحت الروسيا امتيازات واسعة فى البلقان ، إلى جانب سيطرتها على منطقة المضايق والملاحة فى البحر الأسود . فهى من وجهة نظر انجلترا قد جعلت للروسيا مركزا متفوقا فى شرقى البحر المتوسط يهدد مصالح انجلترا وسلامة مواصلاتها إلى الهند وجنوب شرقى آسيا .

كما أنها من وجهة نظر النمسا قد غلبت النفوذ الروسى فى شرقى البلقان دون أن يكون لها نصيب فى الغنيمة . وكما نعلم كانت النمسا تسعى الى زيادة نفوذها فى غربى البلقان .

بدأت الأنظار تتجه الى ألمانيا وأخذ مركز الثقل السياسى ينتقل الى برلين . ومن برلين جاءت النجدة لانقاذ السلام الأوربى بتدخل بسمرك الفعلى لحسم هذا النزاع الخطير . فبدأ يتوسط بين النمسا وروسيا وقبل أن تكون مقترحات اندراسى وزير خارجية النمسا أساسا لحل الخلاف بين الدولتين . وترضية النمسا اعترفت الروسيا بحقها فى احتلال البوسنة والهرسك . وبذلك تحقق النمسا السيطرة على غربى البلقان فى مقابل سيطرة الروس على شرقيه . وبذلك يتعادل نفوذ الدولتين فى البلقان .

أما انجلترا فقد أوضح وزير خارجيتها سولسبرى للسفير الروسى شوفالوف

في لنـدن الأسباب التي دعت انجلترا لمعارضة المعاهدة في النقاط الآتية (١) :

أولا : أن هذه المعاهدة قد وضعت الدولة العثمانية تحت رحمة الروسيا .

ثانياً : أن المعاهدة قد جعلت من بلغاريا دولة بحرية كبيرة . ولذا فمن الضروري العمل على تقليل مساحة بلغاريا لايجاد توازن بين دويلات البلقان .

ثالثاً : طالبت انجلترا بالعمل على تقوية مركز الدولة العثمانية في آسيا .

لم تمانع الروسيا في تعديل بنود معاهدة سان استفانو بما يتمشى مع مقترحات انجلترا .

ولكن ما هو موقف انجلترا من حصول كل من الروسيا والنمسا على امتيازات على حساب ممتلكات الدولة العثمانية . هل ستقف مما يجري أمام ناظريها موقف المتفرج وتخرج من هذه الصفقة صفر اليدين ؟

للاجابة على هذا السؤال نقول بأننا ذكرنا من قبل كيف كان مجيء سولسبري الى وزارة الخارجية الانجليزية بداية صفحة جديدة في سياسة انجلترا إزاء الدولة العثمانية . فسولسبري لم يكن كسلفة دربي حريصا على سياسة انجلترا التقليدية في المحافظة على كيان الدولة العثمانية . بل كان يرى أن « خير حل في نظره هو استبعاد الدولة العثمانية من شرقي أوربا . وتقسيم ممتلكاتها » (٢) .

وكانت انجلترا تطمع في ضم جزء من ممتلكات الدولة العثمانية مثل مصر أو كريت أو قبرص . وفي حقيقة الأمر كانت نفس بريطانيا تهفو الى احتلال مصر،

١ - محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برلين ١٨٧٨ وأثره في البلاد العربية ص ٤٣ .
٢ - المصدر السابق ص ٣٣ .

وطالما شجعها بسمرك على هذا العمل منذ ١٨٧٥ ، ولكنها خشيت الاقدام على هذه الخطوة حتى لا تسيء الى علاقاتها مع فرنسا . ولذا اتجه نظر انجلترا إلى جزيرتي كريت وقبرص . وقد فضل سولسبرى ورجال الحرب احتلال قبرص لما لها من موقع ممتاز فى شرقى البحر المتوسط . بل كانوا يطلقون عليها « جبل طارق جديد » و « مفتاح غربى آسيا » . ومما رجح قبرص على غيرها إشرافها على السواحل المصرية الشمالية ، وقربها من ممتلكات الباب العالى الآسيوية حيث تتركز أطماع الروسيا .

بدأت المفاوضات سرية بين الدولة العثمانية وانجلترا ، واختارت انجلترا توقيتا مناسبا للدخول فى تلك المفاوضات ، وهو الوقت الذى استعرت فيه الحرب بين الروسيا والدولة العثمانية ، واندحرت قوات الأخيرة أمام ضربات الروسيا .

ولما كان الباب العالى فى حاجة الى حماية انجلترا ، ولا سيما بعد أن هدده سولسبرى بتصفية ممتلكاته إذا لم يرضخ للمطالب الانجليزية ، فقد قبل احتلال انجلترا لقبرص فى مقابل حمايتها لدولته . ووقعت المعاهدة السرية فى ٢٦ مايو سنة ١٨٧٧ .

وعلى هذا النحو أخرجت انجلترا مشروع تقسيم ممتلكات الباب العالى الى حيز الوجود ، واطمأنت على نصيبها من الغنيمة ، لايجاد التوازن بين القوى فى شرقى البحر المتوسط .

أما عن موقف الحكومة الفرنسية من معاهدة سان استيفانو فكان متفقا مع وجهة نظر الحكومة الانجليزية فى ضرورة إعادة النظر فى تلك المعاهدة فى مؤتمر

دولى . فحكومة الجمهوريين فى فرنسا كانت ترى التقرب من انجلترا والتعاون معها فى المسائل الأوربية لاستعادة نفوذها من جديد ، كما كان يهم انجلترا أيضا أن تتعاون الدولتان فى حل المسألة الشرقية لابعاد فرنسا عن روسيا ، لا سيما وأن التعاون بين الدولتين كان مرضيا عنه من قبل المانيا .

ولكن تعاون فرنسا فى حل تلك المشكلة كان مشروطاً ، فالمسائل المتعلقة بمصر وسوريا وتونس يجب أن تستبعد كلية من العرض على المؤتمر المقترح . ولم تتردد انجلترا فى قبول مطالب فرنسا ، بل أنها لم تعترض على رغبة فرنسا فى أن يكون لها نفوذ متساو لنفوذها فى مصر . كذلك قبلت المانيا شروط فرنسا للاشتراك فى مؤتمر برلين . وهذا يعنى أن بسمرك كان موافقا فى أن يكون لفرنسا وضع خاص فى تلك البلاد التى استثنتها ولا سيما تونس . كما أن بسمرك لم يكن يمانع فى أن تمنح ايطاليا طرابلس (ليبيا) لو أرادت تعويضا لها عن تونس التى كانت تتطلع اليها قبل أن تحتلها فرنسا والتى كانت ترى ضرورة اكتفاء فرنسا بالجزائر فحسب .

مؤتمر برلين

كان انعقاد المؤتمر فى برلين اعترافا من الدول الأوربية بتفوق النفوذ الالمانى ، فانتقل مركز الثقل السياسى تبعا لذلك من باريس وفينا ولندن وبطرسبرج الى برلين . ولم يكن اجتماع الدول الأوربية الكبرى لاعادة النظر فى معاهدة سان استفانو بقدر ما كان للموافقة على الاتفاقات التى تمت بين روسيا والنمسا من جهة وبين الروسيا وانجلترا من جهة أخرى .

انعقد المؤتمر برياسة بسمرك الذى كان يتمتع بنفوذ سياسى لا يعادله نفوذ

آخر . ومثل انجلترا وفد برياسة بيكونزفيلد أو « سبع المؤتمر » Lion of the Congress والذى ربطته ببسمرك أوثق الصلات . كان يبلغ من العمر فى ذلك الوقت الثالثة والسبعين ، وكان لا يفهم من الفرنسية إلا النذر اليسير ، وكانت لغة المؤتمر هى الفرنسية . ولذا فكان فى كثير من الأحيان لا يدرى بما حوله فى المؤتمر ، ويتوجس خيفة فى كل من حوله ، ويظن بأنهم يأتمرون به[1] . والواقع كان ممثل انجلترا الحقيقى هو سولسبرى الذى اهتم بكل التفصيلات التى تركها له بيكونزفيلد عن طيب خاطر .

وكان يمثل الروسيا المستشار الروسى جورتشكوف السياسى المرم إذ كان يبلغ من العمر - فى ذلك الوقت - الثمانين سنة ولم يكن على علم بالتفصيلات أو دراية بجغرافية بلاد البلقان. وكذلك لم يكن حذرا فى إخفاء ما لديه من معلومات سرية . ففى أثناء جلسات المؤتمر أخذ خريطة سرية وبدأ يطلع عليها أمام أعين السفير الانجليزى المستطلعة الى أن جاء زميله فطواها من أمامه وأخفاها . ولذا كان الاعتماد كله على مساعده شوفالوف سفير الروسيا فى لندن .

وجاء الوفد النمسوى وعلى رأسه اندراسى الذى كان يشبه بالغجر gypsy ، وكانت علاقاته حسنة بالجميع وعلى العموم كان الوفد النمسوى أقوى وفد من حيث شخصياته . فهناك كارولى Karolyi وميزاته الاجتماعية لا تنكر . ثم هناك لباقة هيرمله Haymerle السياسية .

أما الوفد الفرنسى فكان على رأسه وادنجتون Waddington وهو من أصل انجليزى تعلم فى أكسفورد ، وكان فى حالة قلق ولكن تشجعه صداقة

---

١ - د. صفوت . مؤتمر برلين ١٨٧٨ ص ٤٤

بسمرك ويعاونه السفير الفرنسى فى برلين سان فاليير St. Vallier وكان يقاسى من داء عضال . ثم هناك دبريه Desprez الذى اشتهر بين أعضاء المؤتمر بحسن خطه ونظامه، فلا عجب إذا قام بكتابة المعاهدة .

أما ايطاليا فقد مثلها وفد برياسة أشهر سياسى ايطالى فى ذلك الوقت كورتى Cortil، وفى مؤخرة الوفود يأتى الوفد التركى ويمثله قره تودرى باشا وهو تركى يونانى الأصل ، ويعاونه محمد على باشا ، وهو من الجنود الألمان القدماء الذين اعتنقوا الاسلام . ولم يكن الوفدان الايطالى أو التركى موضع احترام بسمرك أو عطفه .

وأظهر شخصية فى المؤتمر هى شخصية رئيس المؤتمر بسمرك . فاستطاع بمقدرته الفائقة أن يحول مجرى المناقشات ، ويعمل على انهاء المحاولات العقيمة ، ويهدد المؤتمر بتركه للذهاب للاستشفاء فى بلدة Kissingen . ولم يعامل أحدا معاملة أسوأ من معاملته للترك .

وفى المقصف جلس ممثلو الدول البلقانية المختلفة : اليونان والصرب والبلغار والجبل الأسود ورومانيا ، والى جانب هؤلاء توجد طائفة الصحفيين .

اجتمع المؤتمر فى ١٣ يوليو ١٨٧٨ . وثارت مناقشات عنيفة خلال الجلسات رغم أن كثيرا من المسائل قد سويت قبل عقد المؤتمر ، ولا سيما ما يتعلق ببلغاريا وباطوم . واتسمت المناقشات بين المندوبين الروس والانجليز بصفة خاصة بالشدة والعنف .

وعلى أية حال توصل المندوبون الى الاتفاق فيما بينهم على بنود المعاهدة

التي تتكون من أربع وستين مادة هي [1] :

الديباجة

صاحب الجلالة قيصر المانيا وصاحب الجلالة قيصر النمسا والمجر ورئيس الجمهورية الفرنسية وصاحبة الجلالة ملكة المملكة المتحدة وامبراطورة الهند وصاحب الجلالة ملك ايطاليا وصاحب الجلالة امبراطور الروسيات كلها ، وصاحب الجلالة امبراطور العثمانيين . رغبة منهم في تقرير فكرة النظام الاوربي تبعا لنصوص معاهدة باريس ٣٠ مارس سنة ١٨٥٦، جميع المسائل التي ظهرت في الشرق نتيجة لحوادث السنوات الماضية وللحرب التي وضعت حدا لها المعاهدة الابتدائية في سان استفانو على اتفاق تام بأن عقد مؤتمر هو خير وسيلة لتسهيل التقارب بينهم ، ولذلك عين جلالاتهم ورئيس الجمهورية الفرنسية ممثليهم (الأسماء) الذين اجتمعوا في برلين وفقا لاقتراح بلاط النمسا والمجر ودعوة المانيا، وخولوا لهم كل السلطات التي وجدت حسنة وفقا للعرف الدولي .

ولقد اتفقوا فيما بينهم على الشروط الآتية :

المادة الاولى : تصبح بلغاريا ولاية لها استقلال داخلي تدفع الجزية وتدين بالولاء للسلطان تركيا . وتكون لها حكومة مسيحية وقوة بوليس قومية .

٢ - تشتمل ولاية بلغاريا على الأراضي الآتية : يتبع الحد الشمالي لها شاطىء الدانوب الأيمن ... ويحد البحر الأسود الولاية من الشرق ... وتعيين هذه الحدود يكون بواسطة لجنة أوربية تمثل فيها الدول الممثلة . وتهتم هذه اللجنة بالمسائل الآتية : ١ - مسألة ضرورة دفاع السلطان عن الحدود البلقانية للروملي الشرقية ... ...

---

١ - المصدر السابق ص ٤٦ وما بعدها .

٣ ـ أمير الولاية ينتخبه السلطان ويثبته الباب العالى بموافقة الدول ، ولا يمكن لاحد أعضاء الأسرات الحاكمة فى أوربا أن ينتخب أمير لبلغاريا ...

٤ ـ يضع مجلس أعيان بلغاريا مجتمعا فى سيرنوفو دستورا للولاية قبل انتخاب الامير .

٥ ـ تلخيص . يجب أن يراعى القانون العام لبلغاريا القواعد الآتية . عدم التفريق بين المعتقدات فى المسائل السياسية والحقوق المدنية وحرية الاعتقاد الدينى .

٦ ـ أما الادارة المؤقتة لبلغاريا فتكون بيد قومسير روسى قيصرى الى وقت وضع الدستور . ويساعده قومسير عثمانى والقناصل الذين تندبهم الدول الموقعة لهذه المعاهدة . ويفصل فى المنازعات التى تثور بين القومسيرين قناصل الدول .

٧ ـ لا يمكن للفترة المؤقتة أن تستمر أكثر من تسعة شهور من وقت موافقة الدول على هذه المعاهدة .

٨ ـ المحافظة على كل المعاهدات التجارية والبحرية المعقودة بين الدول الأجنبية والباب العالى والتى لا تزال معمولا بها الى الوقت الحاضر فى ولاية بلغاريا ، ولا تغير معاهدة من هذه المعاهدات إلا بموافقة الدولة صاحبة الشأن .

٩ ـ تلخيص . الجزية التى تدفعها ولاية بلغاريا للباب العالى تعين باتفاق الدول التى امضت هذه المعاهدة . وتعين الدول مقدار الدين العثمانى الذى يخص بلغاريا .

١٠ ـ بعض واجبات بلغاريا .

١١ ـ لا يقيم الجيش العثمانى فى بلغاريا . وتهدم الحصون القديمة على حساب

الولاية البلغارية فى مدى عام ... ولا يمكن بناء حصون جديدة .

١٢ - بعض حقوق المسلمين فى بلغاريا .

١٣ - جنوب البلقان تقوم ولاية الروملى الشرقيه تكون تحت سلطان الباب العالى السياسى والحربى المباشر على شريطة أن تعطى استقلالا إداريا .

١٤ - ١٥ ، ١٦ ، (خاصا بحدود الروملى الشرقية وحقوق السلطان فيها) .

١٧ - يعين الباب العالى الحاكم العام للروملى الشرقية بموافقة الدول لمدة خمس سنوات .

١٨ - ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ - (يختص بالروملى الشرقية وتنظيمها الادارى والمالى وحقوقها الدولية وحقوق الدول فيها) .

٢٢ - قوات الاحتلال الروسية فى بلغاريا والروملى الشرقيـة تتشكون من ثمان فرق لاتتعدى خمسين ألف جندى . حقوق ومهمة القوة الروسية .

٢٣ - يتعهد الباب العالى بأن يطبق بدقة الدستور الذى أعطى لكريت فى سنة ١٨٦٨ مع ادخال التعديلات الضرورية .

٢٤ - فى حالة ما إذا لم يتفق الباب العالى مع الدولة الاغريقيـة على مسألة تعديل الحدود الاغريقية تعرض الدول المانيا والنمسا والمجر وفرنسا وبريطانيا العظمى وايطاليا والروسيا وساطتها لتسهيل المفاوضات بين الدولتين .

٢٥ - مناطق البوسنة والهرسك تحتلها وتديرها النمسا والمجر . وتظل الإدارة العثمانية باقية فى سنجق نوفى بازار ...

٢٦ - يعترف الباب العالى والدول باستقلال الجبل الأسود .

٢٧ - فى الجبل الأسود لايجب أن تقيم الاختلافات الدينية والمذهبية عراقيل

إزاء الحقوق السياسية والمدنية .

٢٨ - تحديد حدود الجبل الأسود .

٢٩ - يضم الجبل الأسود انتيفارى والساحل الملحق بها . . . ولا يجوز أن يكون للجبل الأسود قوة بحرية .

٣٠ - تتعلق بشأن المسلمين فى الجبل الأسود .

٣١ - يتفق الجبل الأسود مباشرة مع الباب العالى فى شأن ممثليه فى أملاك الدولة العثمانية البلقانية .

٣٢ - بشأن اخلاء كل من العثمانيين وسكان الجبل الأسود الأراضى من أملاك الفريق الآخر منهما .

٣٣ - (خاصة بما يتحمله الجبل الأسود من الدين العثمانى)

٣٤ - اعتراف الدول باستقلال الصرب .

٣٥ ، ٣٦ - (تختصان بحدود الصرب)

٣٧ - خاصة بعلاقات الصرب مع الدول الخارجية .

٣٨ - « « « مع الدولة العثمانية ومع النمسا والمجر .

٣٩ - تختص بالمسلمين المقيمين فى الصرب .

٤٠ - تختص ببعض حقوق الصربيين

٤١ - يخلى كل من الصربيين والعثمانيين الأراضى التى يحتلها كل فريق منهم من ممتلكات الآخر.

٤٢ - تتحمل الصرب جزءا من الدين العثماني فى نظير الأراضى التى أضافتها إلى ممتلكاتها .

٤٣ - اعتراف الدول باستقلال رومانيا .

٤٤ ، ٤٥ - تتخلى رومانيا عن بسارابيا التى كانت قد أخذت من روسيا وفقاً لمعاهدة باريس ١٨٥٦ .

٤٦ - تمتلك رومانيا الجزر المكونة لدلتا الدانوب ، وتأخذ جزءاً من جنوب الدوبروجا .

٤٧ - (تختص بمسألة المياه وحقوق الصيد فى دلتا الدانوب . تترك لتحكيم لجنة الدانوب الاوربية).

٤٨ - لا تفرض رومانيا ضرائب مرور على التجارة المارة بها .

٤٩ ، ٥٠ - (خاصتان بحقوق رومانيا وواجباتها).

٥١ ، ٥٢ - لصيانة حرية الملاحة فى الدانوب وهى مصلحة دولية ، تقرر الدول ألا تبقى حصون على النهر من الباب الحديدى الى المصب ولا توجد بذلك الجزء سفن حربية .

٥٣ - تمثل رومانيا فى لجنة الدانوب .

٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ - (خاصة بحقوق هذه اللجنة وشروط بقائها)

٥٧ - غير مهمة .

٥٨ - يتنازل الباب العالى للروسيا فى آسيا عن أراضى أردهان وقارص وباطوم

٥٩ - خاصة بما تنازل عنه للروسيا .

٦٠ - تسترد تركيا وادى الاكرد ومدينة بايزيد وتتنازل تركيا لفارس عن مدينة واقليم ختر .

٦١ - يتعهد الباب العالى بأن يحقق سريعـــا التحسينات والاصلاحات التى

تستلزمها حالة أرمنية وحمايتها ضد الشركس والكرد . ويضع أمام الدول فى فترات مختلفة تقريرا عن الاصلاحات التى تشرف الدول على تطبيقها .

٦٢ - يعلن الباب العالى رغبته فى منح حرية الاعتقاد الدينى ولا يجب أن يقف الاعتقاد الدينى عقبة فى سبيل الحقوق السياسية والدينية ، وتعترف بحق القناصل فى حماية رعاياهم .

٦٣ - المحافظة على معاهدتى باريس ولندن ١٣ مارس سنة ١٨٧١ فى كل شروطها التى لا تتعارض مع هذه المعاهدة .

٦٤ - (خاصة بموافقة هذه الدول على هـذه المعاهدة ١٣ يوليو ١٨٧٨ امضاءات .

اندراسى، كارولى، هيرمله، بسمرك، بلو، هوهنلوه ، وادنجتون، سان فاليير، دسبريه ، بيكونزفيلد ، سولسبرى ، ادو راسل، كورتى ، دى لونى، جورتشكوف، شوفالوف ، أوبريل ، قرة تودرى ، محمد على ، سعد الله .

ملاحظات عن المعاهدة

تجلت فى معاهدة برلين شخصية بسمرك ، وجاءت وفق مشيئته ، ومتضمنة لسياسته التى اعتنقها وهى سياسة المصالحة والتعويض على حساب ممتلكات الدولة العثمانية . وفى نفس الوقت حاولت التوفيق بين مصالح الدول الكبرى وحقوق الدول الصغرى فى الحرية والاستقلال .

ففيما يتعلق بالنمسا والروسيا فقد قسمتا البلقان الى منطقتى نفوذ ، فتفوق النفوذ الروسى فى شرقى البلقان وعلا نفوذ النمسا فى غربيه .

أما انجلترا فقد نجحت فى وقف زحف الخطر الروسى على الدولة العثمانية

عن طريق القضاء على أطماع الروسيا فى الإشراف على القسطنطينية ومنطقة المضايق . وكذلك فى تقسيم بلغاريا الى قسمين أحدهما مستقل والآخر تحت حكم الدولة العثمانية . وبذلك قضت على أهداف روسيا فى إنشاء الدولة البلغارية الكبرى التى تتمتع بتأييدها . ولكن مع ذلك لم تستطع انجلترا القضاء كلية على أطماع الروسيا ، فلقد أتاح لها الاستيلاء على القوقاز وأردهان وبوتى وباطوم فرصة طيبة للتوسع فى آسيا من ناحية ، وفى متاخمة حدود الدولة العثمانية واقترابها من آسيا الصغرى والعراق من ناحية أخرى . ولكن مما خفف على انجلترا استيلاؤها على جزيرة قبرص من تركيا فى معاهدة سرية لايجاد نوع من توازن القوى فى شرقى البحر المتوسط . فانجلترا ـ وإن لم تشترك فى الظاهر مع الروسيا والنمسا فى تقسيم الممتلكات العثمانية فى البلقان ـ إلا أنها فى حقيقة الأمر قد خرجت من هذه الحرب بمغنم يحقق لها ما تهدف اليه من الاحتفاظ بنفوذها المتفوق فى شرق البحر المتوسط ، وبسط حمايتها على الدولة العثمانية بعد أن نجحت فى إبعاد النفوذ الروسى عنها .

كذلك أثبت نجاح المؤتمر تفوق النفوذ الالمانى فى أوروبا دون منازع ، وبدت ألمانيا أمام الدول الكبرى دولة منزهة عن الاطماع ، كل همها استصلاح دول أوروبا وتحقيق السلام المنشود . وإذا كانت ألمانيا قد عاملت مندوبى الدولة العثمانية باحتقار وامتهان شديدين ، وعملت دون شك على طرد الأتراك من أوروبا والعمل على القضاء على دولتهم ، إلا أن الأعوام التى ستعقب المؤتمر ستظهر تقاربا واضحا بين الدولة العثمانية والمانيا ، إذ سيعتبر العثمانيون أن المانيا رغم قسوتها كانت أكرم من غيرها من الدول فلم تقتطع شيئا لنفسها فى المؤتمر ، وكان بوسعها لو أرادت أن يكون لها نصيب الأسد فى تلك الممتلكات .

أما النتائج التى ترتبت على تلك التسوية فيمكن إجمالها فى النقاط الآتية :

أولا : أن معاهدة برلين وإن لم تستطع القضاء على النزاع بين دول البلقان إلا أنها دون شك وضعت الأساس للنظام السياسى الذى سيسود شبه جزيرة البلقان خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

ثانيا : أن تأكيد استقلال الصرب عن الباب العالى بعد ضم بعض أجزاء من الدولة العثمانية اليها قد كون النواة التى ستنشأ على أساسها دولة يوجوسلافيا بعد الحرب العالمية الأولى .

ثالثا : إن محاولة انجلترا تقسيم بلغاريا الى قسمين لإضعافها كان عملا غير طبيعى فسرعان ما التأمت من جديد بعد ذلك بخمس وثلاثين سنة .

رابعا : إن معاهدة برلين بعد أن وضعت حدا لأطماع الروسيا فى تقدمها نحو الغرب وجهتها بطريق غير مباشر الى التوسع فى آسيا حيث بدأت تصطدم بقوى آسيوية وأوربية مثل اليابان وانجلترا وفرنسا .

خامسا : كان من أثر المعاهدة أيضا توجيه النشاط الاستعمارى نحو القارتين الآسيوية والافريقية ، وسنجد أن مؤتمر برلين الذى سيعقد فى سنة ١٨٨٤ ينظم هذا النشاط لا سيما فى المجال الافريقى . وستقع الشعوب الآسيوية والافريقية تحت ضغط استعمارى منظم من قبل الدول الكبرى بما فيها المانيا نفسها .

سادسا : كان استيلاء انجلترا على جزيرة قبرص مقدمة منطقية لاحتلال مصر فى الوقت المناسب . فجزيرة قبرص تواجه السواحل المصرية الشمالية ، وتمثل نقطة وثوب ومراقبة فى مواجهتها . وتمنح انجلترا موقعا استراتيجيا هاما تستطيع منه الهيمنة على مصر ،ومنع أيه دولة أوربية من الاقتراب منها.

سابعا : أن نجاح الدول فى فرض ما تراه من تسويات على الباب العالى قد قوى من نفوذها ومن تدخلها فى شئون الدولة العثمانية . هذا التدخل الذى لم يكن فى مصلحتها على الاطلاق ، والذى حال بينها وبين تنفيذها ما تريده من اصلاحات .

ثامنا : إن تصفية الممتلكات العثمانية فى أوروبا تقريبا قد وجه أنظار الدول الاوروبية الطامعة الى ممتلكات الدولة فى العالم العربى فبدأ التطلع إلى مصر والشام وشمال إفريقية .

تاسعا : اتخذت فرنسا من استيلاء انجلترا على قبرص موضوعا للمساومة ، واعتبرت هذا العمل من قبل انجلترا إخلالا بالتوازن الدولى فى شرقى البحر المتوسط ، ولم تهدأ ثائرة فرنسا إلا بعد أن أكدت لها انجلترا بأنها لن تغير شيئا فى الموقف السياسى فى منطقة الشرق الأدنى إلا بموافقتها . كما أبدت انجلترا موافقتها على مطامع فرنسا فى تونس ، وتطلعاتها الى المساواة فى النفوذ مع انجلترا فى مصر .

الفصل العاشر

عهدات الحرب العالمية الأولى

صاحبت محاولة ترپتز زيادة القوة البحرية الألمانية عن طريق مشروع بناء سفينتين حربيتين محاولة أخرى من جانبه لتحسين العلاقات مع انجلترا. لاسيما وأن التعاون الروسى الانجليزى فى فارس لم يكن سائرا على ماتروم انجلترا . فكان جراى يعطف على الحركة القومية الدستورية فى فارس، بينما الروسيا لم تكن تقف مثل ذلك الموقف ، فلم تكن تعطف على هذه الحركة ولا تعتقد فى نجاحها .

ولكن انجلترا لم تستطع أن تبالغ فى احتجاجاتها على الروسيا ،وكان الروس يعرفون أن لانجلترا مصالح حيوية فى أوربا تمنعهم من الاصطدام بالروسيا فى آسيا، ولذا غالوا فى فرض مطالبهم على طهران بدرجة أقلقت بال سير ادوارد جراى الذى رأى أنه إذا لم تتمكن الدولتان من التعاون فى طهران كان معنى ذلك نهاية التفاهم مع الروسيا .

وهذا دعا الى الاتصال ببرلين ، ووجدت الرغبة فى زيارة جراى لها،ولكنه قرر إرسال بعثة لورد هولدين Lord Holdane . وفى ٨ فبراير وصل لورد هولدين ، فأكد المستشار الالمانى أن انجلترا لم تعقد معاهدات حربية سرية . وبين للالمان ضرورة تعديل مشروعهم البحرى إذا أرادوا صفاء العلاقات مع انجلترا . وبين المستشار لهولدين ضرورة وقوف الدولتين على الحياد إذا وقعت واحدة منها فى حرب مع دولة أخرى ، فلم يستطع الانجليز الموافقة على ذلك

لارتباطهم مع فرنسا والروسيا واليابان وبلجيكا والبرتغال . واقترح هولدين على ذلك أن تتفق الدولتان على ألا تدخل أحدهما فى حلف اعتدائى ضد الأخرى [١] . وكان هولدين يخشى أن يصبح النفوذ الأعلى فى يد أشخاص طموحين ، وأن يستمر الألمان بسرعة فى إنجاز مشروعهم البحرى . ولقد بين جراى فى مفاوضاته مع السفير الألمانى عقب رجوع هولدين اهتمامه بتحسين العلاقات مع ألمانيا .

ولكن الألمان لم يكتفوا بمسألة حياد انجلترا فى حالة الاعتداء عليهم ، فكانوا يرون أن انجلترا ترى أن واجبها الأول هو نحو فرنسا والروسيا . وردت انجلترا على المشروع الألمانى بوضع مشروع بحرى لزيادة قوة أسطولها ، وتوثيق الصلات الحربية بفرنسا . واجتمع الخبراء الانجليز بالفرنسيين . واعتقد الفرنسيون أن انجلترا قد أخذت على عاتقها تماما مساعدة فرنسا حربيا إذا هاجمتها ألمانيا ، وإن كان فهم الانجليز لهذه المسألة لم يصل إلى هذا الحد .

أما عن مسألة الروسيا فيقول Gooch [٢] .

« وهكذا تتورط فى معارك وأطماع لدولة بعيدة لا سلطان لنا على سياستها » .

تلبدت سماء البلقان بالغيوم فى سنة ١٩١٢ ، فلقد مات اشرنتال Achrenthal الذى عمل على حفظ السلام فى وسط أوربا ، وكان خليفته Berchtold غير كفء وعنيد .

---

1 - Gooch. P. 494 - 495

2 - Gooch P. 499.

وتكونت عصبة بلقانية لمهاجمة وتقسيم تركيا . فبعد أزمة البوسنة كان الصرب في حالة ثورة على النمسا وعلى الطريقة التي تعامل بها رعاياها اليوغوسلافيين. ولذا حاولت مرارا أن تحرز صداقة بلغاريا. ثم وجدت بلغاريا من صالحها الاتفاق مع الصرب وكان الوزير البلغاري جويشوف Gueshoff الميال إلى الروسيا واضع أساس الاتحاد البلقاني لغرض مهاجمة تركيا ، ثم بعد ذلك محاولة مهاجمة النمسا . وكان ثائرا على الأتراك لسياستهم ، سياسة تركيا الناهضة المقدونية ، فزار بلغراد في أكتوبر ١٩١١ حيث وجد ترحيبا كبيرا . واشتركت الروسيا في توثيق الصلات بين الدولتين . وعقدت معاهدة في باريس في ١٩١٢ تضمن سلامة أراضي الدولتين ، وتعد بالمساعدة المتبادلة إذا حاولت دولة كبيرة ضم أو احتلال أي جزء من أجزاء البلقان التركي . وألحق بالمعاهدة ملحق سري يضمن العمل المشترك (إذا ما وافقت عليه الروسيا) في حالة وقوع اضطرابات في الدولة العثمانية . وحددت الغنائم وتركت منطقة في وسط مقدونية لتحكيم القيصر الذي أعطى حق التحكيم في الفصل في الخلافات بين الدولتين . ثم عقد تحالف حربي في ابريل من نفس هذه السنة بين الشروط ، شروط المساعدة المتبادلة في حالة هجوم من تركيا أو رومانيا أو النمسا أو هجوم على تركيا .

وفي ٢٩ مايو سنة ١٩١٢ وقعت اليونان معاهدة تحالف مع بلغاريا بناء على طلب الأولى وفي سبتمبر ١٩١٢ عقد حلف حربي ولكن لم يتفق فيه على الحدود في مقدونيا .

ولقد عرف الوزير الفرنسي الأول بوانكاريه بحلف صربي بلغاري يعتمد على نصيحة الروسيا . ولذا فبوانكاريه يشكو من عمل الروسيا هذا دون أن تتفق

مع فرنسا . ولذا رفض تقديم قرض لبلغاريا ما لم يتحقق من السياسة الروسية في البلقان . وقرر زيارة بطرسبرج لذلك الغرض . وقبل سفره عقد اتفاقا بحريا مع الروسيا ، ولقد أراه سازونوف Sazonoff نص المعاهدة الصربية البلغارية وقرر بوانكاريه أن ذلك النص يحمل جرثومة الحرب ضد تركيا والنمسا ، وأن معنى ذلك أن الروسيا ستسيطر على كل أمور صقالبة البلقان ، إذا كان لها حق التحكيم بينهم . وقرر أن المعاهدة الصربية البلغارية حافزة لهذه الدول على الحرب . ولكن فرح سازونوف لمقابلة بوانكاريه ، فكما يقول هو[1] :

« لقد سررت سروراً عظيما لمقابلة بوانكاريه Poincaré الذى تجد فيه الروسيا صديقا حقا ، وذكاءا سياسيا فوق العادة . وارادة لا تلين » .

وكانت روسيا تشجع ذلك التحالف ضد تركيا متحملة هذه المسئولية الجسيمة . ولقد شعرت النمسا بالخطر الذى كان يتهدد البلقان ، وخاطبت باريس بشأن اشتراك الدول الكبرى فى إقناع الباب العالى بضرورة اتباع سياسة لامركزية ، وحض دول البلقان على انتظار سياسة الدول الكبرى . ولقد وافقت فرنسا على ذلك وحاولت حض الروسيا على قبوله ، ولكن دول البلقان ما كانت لتنتظر الروسيا كانت ترغب فى جعل مشكلة البلقان محلية ، ولكنها اقترحت على الدول أن تحث دول البلقان على ألا تقوم بعمل يؤدى الى الحرب (الروسيا تراجعت فقد خشيت عواقب سياستها) .

---

1 - Gooch P. 503.

ولكن الجبل الأسود اعتدت على تركيا وتبعتها دول ، فاضطرت تركيا إلى عقد صلح مع إيطاليا ، ولكنها انهزمت أمام أعدائها . وأظهرت الروسيا من أول الأمر عطفها على أمم البلقان ، فانتصر البلغاريون فى قرق كليسه ودخل الصرب كانوفو Kumanovo واحتل اليونان سلانيك ، ولو أن سازونوف اقترح تدخل الدول إلا أنه أعلن أن ما احتلته دول البلقان أصبح حقا لها بحكم الفتح . وكان الرأى العام البريطانى فى جانب دول البلقان المسيحية . ولكن دول الوسط لم ترتح تماما لأخذ اليونان سلانيك ، ولا لانتصار الصرب ، ولا لتهديد البلغار للاستانة . واضطرت النمسا الى إرسال جنود الى الحدود الصربية .

ولولا أن الحكومة الألمانية كانت مصرة على السلام فى ذلك الوقت لقامت الحرب ، ولذا ضغطت على النمسا ، وكذا كانت فرنسا . ولو أنها أوضحت للروسيا بأنه إذا هاجمتها النمسا وقامت ألمانيا تنصر حليفتها تدخل فرنسا الحرب فى جانب حليفتها .

ولكن انتصار دول البلقان السريع دعا الى قلق حتى الروسيا ، فلقد حذر سازونوف بلغاريا من دخول استامبول ، وأعلن جراى أنه إذا تقدم البلغار تصبح الآستانة مدينة دولية . ولكن البلغار كانت قد أنهكت قوتهم الحربية فما كانوا بمستطيعى التقدم .

ثم إن تقدم الصرب فى البانيا أثار مخاوف النمسا وإيطاليا ، فما كان كل منها يريد جارا ثالثا على الأدرياتى . وكانت فرنسا وانجلترا والروسيا تعطف على أن تحتل الصرب جانبا من الادرياتى ليصبح لها منفذ على البحر . ولكن الروسيا وانجلترا نصحتا الصرب بالاعتدال ، لأن الأصوات تعالت فى فينا بالحرب إذا سمح للصرب بتنفيذ مشروعها . ثم أن ألمانيا كانت معتدلة ، فلقد

أعلن بتمان هولفيج Bethmann Holweg بأن ألمانيا لن تساعد حليفتها إلا إذا كانت فريسة لاعتداء خارجي .

حاول بوانكاريه منع قيام الحرب فلم يفلح ، فحاول جعلها محلية واقترح عقد مؤتمر للسفراء فى لندن ، واشترطت النمسا اشتراكها على أساس ألا يسمح للصرب بالبقاء على الادرياتى ، لأنها بينت للروسيا أن الأدرياتى بالنسبة لها كالبحر الأسود بالنسبة للروسيا . ولذا أخذت انجلترا على عاتقها منع وقوع اصطدام بين الروسيا والنمسا فى ذلك الوقت .

وكان خطر وقوع الحرب من ديسمبر الى مارس . وقامت الأزمة فى يناير حينما عسكرت الروسيا جنودها على حدود القوقاز معلنة تركيا بأنه إذا قام نزاع بين تركيا ودول البلقان مرة ثانية فإن الروسيا لا تستطيع البقاء على الحياد. ولكن ألمانيا بينت للروسيا بأن مهاجمتها لتركيا ستجعل السلام الاوربى فى خطر، فتراجعت الروسيا . والأزمة الثانية حينما أرغمت الدول ملك الجبل الأسود على إخلاء سكوتارى ، ولكن ذلك كان هزيمة سياسية للروسيا .

ولكن ألمانيا وانجلترا تعاونتا على حفظ السلام . فلقد اجتمع ممثلوا المتحاربين فى لندن ، واستمر المؤتمر مدة دون أن يصل الى نتيجة . فلقد قامت ثورة فى تركيا بزعامة أنور باشا واستمر المتحاربون فى الحرب، فأخذ البلغار أدرنة وأخذ اليونان يانينا. ولكن قام النزاع بين الحلفاء أنفسهم، فلقد طلبت الصرب إعادة النظر فى معاهدة التقسيم سنة ١٩١٢ ، وكانت اليونان تؤيدها . ولذا اضطرت بلغاريا الى عقد هدنة مع تركيا فى ١٦ ابريل .

ورجع مندوبو الدول الى لندن وحضتهم انجلترا على الاتفاق ، واتفقوا على

أن تأخذ اليونان سالونيكا وكريت وجنوب مقدونية . وتأخذ الصرب وسط وشمال مقدونيا . وتأخذ بلغاريا تراقيا وساحل الارخبيل ، وتترك سلستريا لرومانيا . ولم يصبح للترك إلا منطقة صغيرة فى البلقان ،ولكن حلفاءها اختلفوا فيما بينهم اختلافا خطيراً . ولما كانت مصالح الصرب واليونان مشتركة ، فلقد عقدتا اتفاقا ، اتحادا ،ولكن بلغاريا فاجأت أعداءها وهاجمت الصرب فى مقدونيا ، وحاولت الاستيلاء على سلانيك ، وكان الملك البلغارى قد أمر بالهجوم دون علم الوزارة . ولكن رومانيا انضمت إلى الحليفتين إذ لم يكن من صالحها تفوق البلغار فى البلقان .

وفى هذه الاثناء يتقدم الترك فيستولوا على أدرنه ، وكانت الحرب سريعة فلم تعط للدول الكبرى وقتا للتدخل المشترك ، وأملت الدول المنتصرة الصلح فى بخارست فى ١٠ أغسطس ، وطلبت النمسا أن تعرض المعاهدة على الدول فرفضت رومانيا ، وكانت ألمانيا تؤيدها . وبذا حوفظ على السلام . واضطرت الصرب تحت تهديد النمسا أن تنسحب من البانيا .

ولقد تركت هذه الحرب أثراً سيئا فى البلقان وفى أوربا ، فلقد ثار قلق الدول الوسطى لتدخل الروسيا وزيادة نفوذها فى البلقان . ولذا جدد التحالف الثلاثى فى ديسمبر وزادت ألمانيا فى قوة جيشها .

ولكن الروسيا لم تكن قد استعدت للحرب إستعدادا تاما ، ولذا فلا خوف مؤقتا على التحالف الثلاثى . ووضعت خطة Schlieffen بالدفاع على جبهة والهجوم على فرنسا خلال بلجيكا . ولقد برر المستشار الألمانى موقفه فى زيادة الجيش الألمانى بقوة الجامعة الصقلبية الروسية والغلو فى القومية الفرنسية ، وتكلم عن اصطدام لابد واقع بين التيوتون والصقالبة . وبينما كانت قوة ألمانيا

فى زيادة كانت النمسا تزداد ضعفا للنزاع العنصرى فيها . ولم تكن ايطاليا حليفا موثوقا فيه ، وكذا تركيا قد استذلت . بينما كان يزداد ميل رومانيا نحو الروسيا وهذا بالاضافة الى عداوة فرنسا والنمسا وتمسك انجلترا بحلفها مع صديقتيها .

كانت ألمانيا إذاً واثقة من الخطر الذى سيصيبها ، ولكنها كانت شاعرة بقوتها ، وأصبح الرأى العام فيها سريع التأثر . ولكن القيصر كان ميالا للسلم ، وكتب أمثال برنهاردى Bernhardi بضرورة الحرب وأحقيتها وتكونت الجامعة الالمانية معلنة أن الحرب لابد واقعة . ولكن القيصر كان يخشى عدوتى ألمانيا ، ولذا أصبح يعتقد أن الحرب مع فرنسا أمر لابد منه .

ولكن استعداد ألمانيا الحربى تبعه استعداد فرنسا ، وبالغت فرنسا فى الظهور بدرجة لا تقل عن ألمانيا .

وأما النمسا فكانت تريد مهاجمة الصرب فى الوقت الذى اعتدت فيه بلغاريا عليها ، ولكن ايطاليا بينت أن شروط التحالف لا تنطوى على أى مساعدة للنمسا ، وكذا ثبطت ألمانيا عزمها ، ولذا أجلت موقفها . ولكن نمو حركة الجامعة الصربية زاد من قلق النمسا .

لقد كانت علاقة القيصر الروسى بالقيصر الالمانى طيبة ، ولكنهما كانا محاطين برجال ممتلئين حقدا وضغينة ، ولقد تقابل العاهلان فى برلين فى مايو ١٩١٣ .

ووضح فى هذه الحال موقف تركيا ، فلقد طلبت من ألمانيا مبعوثا حربيا لتنظيم الجيش العثمانى كما حدث فى ١٨٨٢ حينما قام فون درجولتز Von der Goltz بهذه المهمة . ولقد تضايقت الروسيا من ذلك وأظهرت ذلك الشعور لألمانيا ، واتصلت بانجلترا وأبانت لها خطر الموقف الناشيء عن سيطرة ضابط ألمانى على الجيش العثمانى ولكن انجلترا حاولت تهدئة الموقف .

أرسلت ألمانيا ليمان فون ساندرز Liman von Sanders حيث عين مفتشا عاما للجيش التركى ، فوثقت الروسيا علاقاتها بالصرب ـ وزاد هياج سازونوف إلى درجة أن طلب من القيصر أن تقوم الروسيا بعمل يضمن مصالحها فى المضايق ، وتألفت لجنة فى فبراير ١٩١٤ للنظر فى هذه المسألة . فوجدت أن الروسيا لا تستطيع القيام بمثل ذلك العمل إلا إذا قامت حرب أوربية وضمنت الروسيا سلامة حدودها الغربية .

ورأت المانيا أن الروسيا تقوم باستعدادات حربية على نطاق كبير وأنها تتم استعداداتها فى ١٩١٧ . وأعلن وزير الحربية الروسية أن دولته ، ولو أنها تحب السلام إلا أنها مستعدة للحرب .

ثارت الصحافة فى كل من الروسيا وألمانيا ، فأعلنت صحف الروسية أن مهمة الدولة هى الاستيلاء على القسطنطينية ، وزاد الاعتقاد فى الدولتين أن الحرب واقعة ، وكان الرأى العام فى كل منهما مستعدا لمواجهتها .

وحاول القيصر الروسى استصلاح رومانيا بزيارة لها ، وزاد الاعتقاد فى الروسيا أن الطريق إلى الآستانة هو خلال برلين . وأعلن وزير الحربية الروسية أن الروسيا مستعدة وأن فرنسا يجب أن تكون كذلك مستعدة مما أثار السخط فى برلين .

وفى تلك الأثناء كانت العلاقات بين انجلترا والمانيا آخذة فى التحسن ، فبعد مسألة مراكش أعلن جراى أن انجلترا لا ترغب فى مضايقة التوسع الألمانى فى

١ ـ انظر Kolnische Leitung ٢ مارس ١٩١٤

وسط أفريقية . وفصلا قامت مفاوضات بشأن الاستعمار بين ألمانيا وانجلترا قسمت مناطق الاستعمار البرتغالى إلى مناطق نفوذ اقتصادى . وبذا فضلت الاتفاقية الجديدة اتفاقية ١٨٩٨ . وزار الملك جورج برلين فى مايو ١٩١٣ ، وأمضيت المعاهدة فى أغسطس ، وعقدت معاهـــدة وتسورفى يوليو ١٩١٤ ، ولكنها لم تمض نهائياً لأن الحرب كانت على الأبواب .

كانت المفاوضات بشأن سكة حديد بغداد أصعب ، ولقد سهلت لسبيا حينما زار حقى لندن بخصوص مفاوضات البلقان ، وقبلت تركيا تعريف انجلترا الحالة الراهنة فى الخليج العربى ، واعترفت انجلترا بتبعية سلطان الكويت للدولة العثمانية . وتأكدت امتيازات الشركات الانجليزية فى العراق . وأعلمت ألمانيا بالاتفاق التركى الانجليزى ، وأخذت انجلترا على عاتقها ألا تعارض مشروع سكة حديد بغداد ، وأخذت ألمانيا على عاتقها ألا تعارض إشراف انجلترا على الملاحة النهرية فى العراق . واشتركت انجلترا وألمانيا فى الإشراف على مدخل النهرين ، فى البصرة وبغداد وبذا اعترفت انجلترا بأن منطقة العراق أعلى البصرة منطقة نفوذ لألمانيا . وكذا اتفقت ألمانيا مع فرنسا فى فبراير ١٩١٤ بشأن سكة حديد بغداد ، وتركت منطقة شمال سورية منطقة نفوذ لفرنسا .

ولكن هذه الاتفاقات كان ينظر اليها فى روسيا وفرنسا بفزع ، ولكن ذلك دعا إلى توثيق عرى التحالف الثلاثى بين انجلترا وفرنسا وروسيا . ولقد أخذت فرنسا على عاتقها توثيق العلاقات بين انجلترا وروسيا فى أثناء زيارة ملك انجلترا وجراى لباريس فى ابريل ١٩١٤ .

وعقب ذلك اتفاق بين انجلترا وروسيا على المسائل البحرية . واقترحت روسيا أن تشغل انجلترا أكبر جانب من الأسطول الالمانى بحيث تستطيع

الروسيا ازال جنود فى بومرانيا ، وذلك بواسطة سفن تجارية ترسلها انجلترا إلى الموانى الروسية فى البلطيق ، وأن تسمح انجلترا للسفن الروسية بالرسو فى قواعدها فى شرق البحر المتوسط . ولقد عرفت ألمانيا بهذه المفاوضات مما أساء إلى العلاقات الألمانية الانجليزية .

أسباب الحرب العالمية الأولى .

ترجع أسباب قيام الحرب العالمية الأولى إلى السنوات التى سبقتها من عام ١٩٠٤ إلى عام ١٩١٣ . ويمكن أن نقسم تلك الأسباب إلى قسمين : أسباب مباشرة وأسباب غير مباشرة .

فاذا بدأنا بالأسباب غير مباشرة نجد أنها ترجع إلى السنوات الأولى من مطلع القرن الحالى حيث نشأت أزمات أوربية كادت تودى بالسلام العالمى . وسنجمل تلك الأسباب فى النقاط الآتية :

أولا : على إثر عقد الوفاق الودى بين فرنسا وانجلترا ، استاءت ألمانيا لذلك وأرادت أن تقوم بعمل يتسم بالشدة والعنف لاختبار مدى صلابة هذا الوفاق ، فأثارت المشكلة المراكشية فى سنة ٤ - ١٩٠٥ محاولة بذلك عرقلة النفوذ الفرنسى فى مراكش ، ومنع فرنسا من بسط سيادتها على تلك البلاد . وقد أسفرت الأزمة عن عقد مؤتمر الجزيرة فى ابريل ١٩٠٦ الذى لم يحقق لألمانيا ما تصبو إليه ، بل على العكس فقد منح فرنسا نوعا من الإشراف على شئون مراكش . وكان نتيجة تلك الأزمة انضمام روسيا إلى الوفاق الثنائى فى عام ١٩٠٧ وأصبحت الدول الثلاث انجلترا وفرنسا وروسيا تكون الوفاق الثلاثى .

ثانياً : فى سنتى ١٩٠٨/١٩٠٩ قامت النمسا بضم ولايتى البوسنة والهرسك

التي كانت تديرهما بمقتضى معاهدة برلين ١٨٧٨ . وقد أثار هذا الضم حفيظة الروسيا ، لأنه منح النمسا مركزا متفوقاً فى غرب البلقان ، واضطرت الصرب إلى قبول الأمر الواقع رغم تطلعها إلى ضم هاتين الولايتين اليها لتكوين دولة يوجوسلافية ، وذلك لعدم تأييد الروسيا لها ، نظراً لضعفها العسكرى نتيجة هزيمتها أمام اليابان فى الحرب (١٩٠٤-١٩٠٥) .

ثالثاً : نظراً لعدم اقتناع ألمانيا بما حصلت عليه من كسب ضئيل في الأزمة المراكشية السابقة ، فقد حاولت أن تثير الأزمة مرة ثانية فى عام ١٩١١ فيما أطلق عليه اسم أزمة أغادير . ولم يكن غرض الألمان فى هذه المرة عرقلة أو منع فرنسا من توطيد نفوذها فى مراكش بقدر ما كان لمساومة فرنسا حول ثمن سكوتهم أو قبولهم هذا الوضع الخاص لفرنسا فى مراكش . ونجحت ألمانيا إلى حد كبير فى هذا الشأن ، إذ اضطرت فرنسا إلى منحها القسم الداخلى من الكونغو الفرنسية المتاخم للكونغو البلجيكية . وبذلك تمكنت ألمانيا من أن تضع قدمها فى أفريقية الوسطى ، واتخاذها نقطة ارتكاز لتوسعها فى تلك المنطقة .

رابعاً : قيام أزمة البلقان فى ١٩١٢-١٩١٣ بتدبير من الروسيا التى كانت تحاول إثارة دول البلقان ضد الدولة العثمانية لتتاح لها فرصة التدخل وتحقيق أطماعها فى ممتلكات الدولة . ولكن هذه الحرب ستثير غضب النمسا ، لأنها ستؤدى إلى تقوية الحركة اليوغوسلافية . وكانت الروسيا تعتمد فى القيام بدورها فى البلقان على التحالف البلقانى الذى شكلته تحت قيادتها . إلا أن هذا التحالف قد انحل فى ١٩١٣ نتيجة تشابك الدول البلقانية فى حرب مع بعضها البعض . وترتب على ذلك بطبيعة الحال توتر العلاقات بين الدول وإلى شكها فى نواياها إزاء بعضها

وإلى محاولتها استجماع قواها ، ووقوفها موقف التربص من أعدائها .

خامساً : انعكس هذا الشك على تصرفات تلك الدول فأخذت تستعد للحرب وتنفذ مشروعات تسليح واسعة النطاق ، تشمل السلاحين البري والبحري. ولا سيما في انجلترا وألمانيا . وقد عرفنا أن ألمانيا قد أصدرت في ١٨٩٧ قراراً بزيادة قوتها البحرية ، وإنشاء اسطول حربي يستطيع منافسة الأسطول الانجليزي، وبرغم بريطانيا على احترام مصالح ألمانيا ورغباتها . وقد لعب الاميرال فون تيربتز دوراً هاما في هذا الشأن .

ولم تقابل بريطانيا هذا الاتجاه من قبل ألمانيا بالارتياح ، بل على العكس فقد أقلق بالها . وقد رأت بريطانيا في أول الأمر الدخول مع ألمانيا في مفاوضات لإقناعها بتحديد قوتها البحرية حتى لا تضطر هي إلى مجاراتها في زيادة قوتها البحرية، بما يستلزم ذلك من زيادة النفقات ، ووقوع عبء ذلك على دافعي الضرائب من الانجليز . وقامت بريطانيا بتلك المحاولة من سنة ١٩٠٧ إلى ١٩٠٩ دون أن تحرز أي نجاح . وأخيراً قررت زيادة قوتها البحرية ورغم ذلك قامت بمحاولة في ١٩١٢ عن طريق وزير حربيتها هالدين Haldane لقيت بعض النجاح في أول الأمر حينما قبل الألمان الابطاء في مشروعاتهم البحرية بشرطين الأول أن تقف بريطانيا موقف الحياد في حالة حدوث حرب بين ألمانيا ودولة أخرى . والثاني أن تعد بريطانيا بعدم مهاجمة ألمانيا .

قبلت بريطانيا الشرط الثاني ، ورفضت الالتزام بالشرط الاول لما فيه من من تشجيع لألمانيا على العدوان ، ولذا فشلت المفاوضات .

وفي ٢ يوليو ١٩١٣ أصدرت ألمانيا قراراً بزيادة عدد قواتها المسلحة وقت السلم من ٦٢٣٫٠٠٠ إلى ٨٨٠٫٠٠٠ جندي ، قابلته فرنسا بالمثل إذ مدت من

مدة الخدمة العسكرية سنة فأصبحت ثلاث سنوات بدلا من سنتين ، وبذلك توفر لها عدد كبير من الجنود تحت السلاح .

أما هذا التسابق فى التسلح لم يجد صداه بشكل جدى لدى كل من النمسا وروسيا وإيطاليا وحتى انجلترا . على أن التسابق فى التسلح بين فرنسا وألمانيا قد ألقى عبئاً ثقيلا على كاهل دافعى الضرائب فى البلدين . وكان من الضرورى لعدم إثارة هؤلاء ضد حكوماتهم أن توضح لهم خطورة الحالة وتوقع حدوث حرب فى أى وقت من الاوقات . وقد هيأ هذا الإذهان لتقبل فكرة الحرب ، بل وتحمسوا لها . وأدى ذلك بطريقة أخرى إلى محاولة كل حكومة أن تستكمل استعداداتها الحربية قبل غيرها ، وأن تستفيد من هذا السبق فى العدوان على عدوتها قبل أن تتم تسليحها [1] .

سادساً : كذلك لاننسى دور التنافس الاقتصادى بين الدول الصناعية الكبرى حول الأسواق ، بنظرنا فيه فى من أقوى اسباب قيام الحرب ، بل يفسر لنا الكثير من الأزمات السابقة . فتدخل ألمانيا فى مراكش فى ١٩٠٤ كان مبعثه كما يقول هولشتين وزير الخارجية الألمانية ، « يجب على المانيا أن تتدخل فى القضية المراكشية لاسباب اقتصادية وللدفاع عن جاهها ونفوذها . ويجب ألا تترك قضية كبرى تسوى خارجا عن نطاقها ، مهما كانت ، وفى أى بقعة من بقاع العالم » . وبهذه النظرة قبلت المانيا فى ١٩٠٩ أن تتفق مع فرنسا بشأن مراكش على أن تقتسم معها الأرباح الاقتصادية .

وكذلك نجد أن التنافس البحرى بين المانيا وانجلترا كان مبعثه التنافس

---

١ - بيير رونوفن : تاريخ القرن العشرين ص ٣١

التجارى بين الدولتين . فنمو تجارة ألمانيا الخارجية قد أقلق بال انجلترا . ويقال بأن السبب الذى دفع المانيا إلى مغامرتها فى ١٩١٤ أزمة اقتصادية كانت تجتازها، بالإضافة إلى حاجتها الى استغلال مشروع أفريقية الوسطى كسوق جديدة لمنتجاتها ، وكذلك تحقيق مشروع الاتحاد الجمركى الذى يضم دول وسط أوربا وجزء من البلقان .

سابعاً : لعبت الحركة القومية فى دول أوربا دورا لا يمكن انكاره فى دفع تلك الدول إلى أتون الحرب . فلا شك أن ظهور المانيا كدولة موحدة فى السبعينات ، أى فى فترة متأخرة من التاريخ الحديث،كان له أثره فى محاولة المانيا تحقيق أمانيها بقوة السلاح لفرض وجودها كدولة قوية يجب ان يكون لها مستعمرات أسوة بالدول الأوربية الأخرى مثل انجلترا وفرنسا وهولندا وبلجيكا والبرتغال .

كذلك وجدت حركة قومية نشطة فى دويلات البلقان ، حاولت النمسا أن تقضى عليها بالقوة ، لما يؤديه نجاح تلك الحركات من تفتيت الدولة.

وإذا انتقلنا إلى الأسباب المباشرة نجد :

أعطى مقتل فرنسيس فردنند وزوجته فى سيرا جيفو Saragivo عاصمة البوسنة فى ٢٨ يونيو ١٩١٤ فرصة لبرشتولد Berchtold وزير خارجية النمسا للانتقام من بلغراد ، ولو أن تقرير ما له الكونت تيسزا Tisza بأنه ليست هناك الأدلة الكافية على أن حكومة بلغراد لها صلة بالجريمة .

فكتب القيصر النمسوى خطابا للقيصر الالمانى بين له فيه خطر الجامعة الصقلبية وخطر حركات الروس فى البلقان ، تلك الحركات التى ترمى إلى القضاء

على الامبراطورية النمسوية ، وأنه من المستحيل عقد اتفاق مع الصرب، وأنه من الضروري وضع الصرب عند حدها .

استلم القيصر الألماني الخطاب في ٥ يوليو وبين السفير النمسوي أن النمسا يمكنها الاعتماد على تأييد ألمانيا . وإذا قامت حرب بين الروسيا والنمسا ، فإن ألمانيا ستقف بجانب حليفتها . لا سيما وأن ألمانيا كانت تعلم أن الروسيا لم تكن قد استعدت للحرب بعد . وعرف القيصر أن خطر الحرب واقع فهو ينذر وزارتي البحرية والحربية بالخطر . وكان يرى أن الخطر الصقلي لا يهدد النمسا فحسب، بل يهدد العنصر التيوتوني كله ، واضطرت ألمانيا إلى أن تنبه انجلترا للخطر . وكانت النمسا ترى أنه من المحتمل ألا تتدخل الروسيا حربيا لمساعدة الصرب ، وقررت إرسال مذكرة للصرب أعطيت فيها مهلة ٤٨ ساعة ، تطلب فيها القضاء على أعضاء الجامعة الصربية وتعاون الموظفين النمسويين مع الصربيين في إقامة الوسائل لتنفيذ ذلك . ولما علمت انجلترا بهذه المذكرة عن طريق السفير النمسوي احتج جراي على تحديد الوقت . ورأى أن هذه المنازع لا تهم انجلترا ، ولكنها ستشاور الدول الأخرى ، وأرسل إلى السفير الفرنسي واقترح عليه توسط الدول التي ليست لها مصالح مباشرة في الصرب .

وتتوسط كل من ألمانيا وفرنسا وايطاليا وانجلترا بين فينا وبتروجراد . فرأى السفير الفرنسي ضرورة انتظار رأي الروسيا ولكن جراي اتصل ببرلين وباريس وروما للنظر في مسألة التوسط وتأجيل الأعمال الحربية إنتظاراً لنتائج المؤتمر . وقبلت فرنسا وايطاليا الاقتراح ، ولكن القيصر اشترط رغبة النمسا ، وطلب جراي من ألمانيا أن تنصح النمسا بالاعتدال . ولكن النمسا لم تنتظر لثورة الرأي العام فيها ، وما كانت تنتظر أن تقبل الصرب إنذاراً . وكانت

تتوقع من انجلترا العطف على مطالبها .

وكذا كانت الروسيا ترى ضرورة تأييد الصرب إذا هاجمها النمسا . وكان الرأى الحربى واثقاً من النصر ومن الحصول على الآستانة ، وأعلنت النمسا الحرب ، ولم تعلن انجلترا لا تأييدها حتى لا تشجع الروسيا ، ولا حيادها حتى لا تشجع فينا .

وعندما رأت المانيا سخط الروسيا وانجلترا على موقف النمسا أرسلت إنذارا إلى فينا تطلب التمهل وأن المانيا مستعدة لتأييدها ، ولكنها لا تستطيع الدخول فى حرب لا تستشيرها فيها النمسا أو لا تصغى إلى مشورتها . ولكن النمسا كانت قد قطعت علاقاتها السياسية ، وأعلنت الحرب ورأت عدم التراجع.

ولكن الروسيا كانت قد أعلنت تحريك جيوشها . وفى هذه الأثناء تبذل انجلترا قصارى جهدها فى إيقاف الخطر بطلب التوسط وتمهل النمسا . ولم يكن جراى يعلم تماما بأن الروسيا قد حركت جنودها . وحاولت انجلترا من جانبها أن تنصح الروسيا بالاعتدال . ولكن الاعتدال لم يكن من سياسة الروسيا فى ذلك الوقت ، فاضطرت المانيا إلى إرسال انذار حربى إلى الروسيا، لاسيما أن حركة تحريك الجنود كانت ضد النمسا وألمانيا . ولم تحاول فرنسا الضغط على الروسيا، وكانت ترى أنه إذا أعلنت انجلترا أنها ستقف بجانب فرنسا لن تكون هناك حرب .

ولما علمت انجلترا بالأمر الواقع أرسلت تطلب من ألمانيا وفرنسا ضمانا باحترام حياد بلجيكا، فأعطت فرنسا ذلك الضمان ورفضت ألمانيا ولما طلبت المانيا من انجلترا إعطاء شروطها للحياد رفضت انجلترا .

وفى أثناء ذلك كانت الواقعة ففى ٢٨ يوليو كانت النمسا والصرب فى حرب ،

وفى أول أغسطس نشب القتال بين ألمانيا والروسيا ، إذ هاجمت الجنود الروسية الحدود الالمانية قبل إنتهاء موعد الإنذار الألمانى . ولما طلبت ألمانيا من فرنسا ماذا يكون موقفها ، أعلنت فرنسا أنها ستتبع مصالحها ، وأعلنت تحريك جيوشها. وفى ٢ أغسطس أعلنت انجلترا أنها ستؤيد فرنسا بحريا إذا حاول الاسطول الألمانى دخول القنال الانجليزى ومهاجمة فرنسا أو الاعتداء على سفنها . وفى ٣ أغسطس أصدرت الاوامر لحملة حربية إلى فرنسا . وفى نفس اليوم أعلن جراى سياسة انجلترا ، بقوله :

« لعدة سنوات كانت تربطنا بفرنسا أواصر الصداقة ، ولكن إذا أردنا أن نعرف مدى ما يترتب على هذة الصداقة من التزامات ، فلينظر كل منا فى قرارة نفسه ومشاعره ليتوصل بنفسه إلى مدى هده الالتزامات . أن الأسطول الفرنسى موجود الآن بالبحر المتوسط ، والسواحل الشمالية والغربية لفرنسا بدون حماية على الاطلاق بسبب شعور الثقة والصداقة بين الدولتين . وإن شعورى الخاص أنه إذا إشتبك أسطول أجنبى مع فرنسا فى حرب لم تسع اليها ، ودخل هذا الأسطول القنال الإنجليزى وضرب السواحل الفرنسية غير المحمية فاننا لن نقف مكتوفى اليدين . لقد كان من حق فرنسا أن تعرف بشكل فورى ما إذا كان بامكانها أن تعتمد على مساندة بريطانيا لها فى حالة ما إذا تعرضت للهجوم على سواحلها غير المحمية فى الشمال والغرب . ونتيجة لذلك فقد أعطيت وعدا بالامس للسفير الفرنسى ولم يكن هذا إعلانا للحرب » .

كذلك فإن هناك إعتباراً أهم من ذلك، وهو حياد بلجيكا . لقد وصلتنا اخبار إنذار المانى :

« إذا كان هذا حقيقيا ، وإذا كانت قد قبلت ، فان استقلالها يكون قد انتهى

بصرف النظر عما تمنحه لها المانيا فى مقابل ذلك . فـإذا هزمت فرنسـا ، وإذا وقعت بلجيكا تحت نفس السيطرة، ثم بعد ذلك هولندا وبعدها الدنمرك، فلنا أن نتصور مقدار الخطر الذى تتعرض له المصالح الانجليزية . فإذا تنصلنا من التزاماتنا التى يفرضها الشرف والمصلحة فى أزمة كهذه فيما يخص المعاهدة البلجيكيـة ، فإننى أشك ، فى قيمة أية قوة مادية قد تكون لدينا فى النهاية إذا ما قورنت بما نكون قد فقدناه من احترام . رغم ان الاسطول على استعداد الآن ، وان الجيش فى سبيل استكمال استعداداته ، فإننا لم نعد حتى الآن بارسال حملة خارج البلاد . ولـكن إذا اضطررنا ان نتخذ موقفا محدداً فى هذه القضايا ، فاعتقادى هـو أن البلاد حين تدرك كنة الخطر الذى تتعرض له، فإننا سنحصل، لا على مساندة مجلس العموم فحسب ، ولـكن سيدعمنا فى موقفنا كذلك تصميم الأمـة بأ كمهـا وشجاعتها واحتمالها » .

وعقب هذا عرفت انجلترا أن المانيا أرسلت إعلانا بالحرب وانها اخترقت حدود بلجيكا فأرسلت اليها إنذارا .

وفى ذلك الوقت اجتمع الريشستاج الألمانى حيث خطب القيصر فى « الصالة البيضاء » Weisser saal جاء به :

« بقلب مفعم بالحزن وجدت نفسى مضطرا أن أعد جيشا لمقاتلة جار طالما حارب هذا الجيش فى صفه فى عدة ميادين للقتال . وبأسى صـادق أشهـد الآن نهاية صداقة كانت المانيا تعتز بها باخلاص . فالحـكومة الروسية بعد أن اسلمت قيادها لعاطفة قومية جامحة ، فقد اندفعت إلى تأييد دولة أثارت هذه الحرب عن طريق تبنيها للمحاولات الإجرامية .

وإنه لايدهشنا ان فرنسا قد اتخذت صف خصومنا. فـكثيراً ما تحطمت جهودنا ...

لإقامة علاقات ودية على صخرة الأمنيات القديمة . وإن الوضع الراهن ، ليس تصادم مصالح عارضه ، ولكن نتيجة سنوات من الحقد المتوقد ضد قوة الامبراطورية الالمانية وازدهارها . وإن « الكتاب الأبيض » ليوضح كيف حاولت حكومتنا وكيف حاول مستشارنا بوجه خاص أن يتفادا هذه الكارثة حتى آخر لحظة . إن الذى يحركنا ليس شهوة الفتح ، ولكنه تصميم جاد للحفاظ على المركز الذى منحنا الله إياه . فنحن نسل سيوفنا بضمير مرتاح وأيد نظيفة » .

وأكمل بتمان هفليج خطاب الامبراطور وبين ان المانيا طلبت ان تكون المشكلة الصربية النمسوية محلية ، ولكن الروسيا تدخلت وحركت جنودها ضد النمسا ، ثم ضد المانيا التى لم تحرك جنديا واحداً . واستمر فى خطابه قائلا :

« هل كان علينا أن ننتظر حتى تختار الدول التى تحيط بنا الوقت المناسب لها لتوجيه ضربتها ؟ إن تعريض المانيا لمثل هذا الخطر يعتبر جريمة . ولذلك فقد طلبنا من الروسيا أن تسرح جيشها ، كمحاولة أخيرة لحفظ السلام . إن فرنسا كانت قد رفضت الوقوف على الحياد ، وعبرت قواتها الحدود قبل إعلان الحرب . أيها السادة نحن فى حالة اضطرار ، والاضطرار لا يعرف قانونا » .

ولقد اعتقد الريشستاج أن المانيا هوجمت ، ولقد أعلن القيصر أنه لم يعد يعرف أحزابا وإنما المانا ، وأيدت الأحزاب القيصر .

واعتقدت المانيا أن انجلترا طعنتها فى الخلف ، وبعد إعلان انجلترا الحرب بيومين أعلنت النمسا الحرب على روسيا ، وردت انجلترا وفرنسا بإعلان الحرب على النمسا ، وأعلنت إيطاليا ورومانيا حيدتها .

وكان طبيعيا بالنسبة للصرب أن تعمل على انتشار مبادىء جامعة صربية وضم صقالبة النمسا الجنوبيين اليها . وطبيعى أن تدافع النمسا عن كيانها ، وقد وعدت

الصرب بأنها ستصبح جارا صالحا للنمسا . ولكن كانت هناك اتفاقات مع الروسيا ضد النمسا ، وليس من الحكمة أن تهمل النمسا كل ذلك . ورأت النمسا ضرورة إيقاف الصرب عند حدها .

أما ألمانيا فكان لزاما عليها أن تساعد النمسا لأنها الدولة الوحيدة الكبرى التى تستطيع الاعتماد عليها ، فما كان يمكن الاعتماد على إيطاليا أو رومانيا . وطبيعى أن تبحث ألمانيا عن حل بين الروسيا والنمسا وما كانت ألمانيا تظن جازمة بأن انجلترا ستتدخل ضد ألمانيا . لا سيما وقد تحسنت العلاقات بين الدولتين بعد أزمة مراكش . وما كانت كل من النمسا وألمانيا ترغب فى حرب دولية ، فكانتا ترغبان فى جعل الحرب محلية [1] ولكن ألمانيا كانت مستعدة للحرب إذا رفضت الروسيا جعل الحرب محلية . كان يعتقد أن حربا بين الصقالبة والالمان لابد واقعة وفضلت ألمانيا أن تحارب فى هذه السنة قبل تمام استعداد الروسيا وفرنسا .

ولقد أدى نجاح اليابان فى حربها مع الروسيا الى تراجع الروسيا عن أطماعها الأوروبية ، وعن سيطرتها على الشرق الأدنى وخاصة البلقان . وإذا كانت الروسيا سمحت بجعل الحرب محلية فإنها بذلك قد تركت كل مطالبها فى البلقان ونفوذها بين الشعوب الصقلبية ، وسمحت للدول الوسطى بالسيطرة التامة فى البلقان . فالروسيا لا تسمح بانهيار الصرب ، كما لا تسمح بانهيار بلجيكا . ثم كانت الروسيا تعتقد فى مساعدة انجلترا لها إذا اتسع مدى الحرب .

أما فرنسا ، فقد كانت ترى أن سبب الحرب بلقانيا . وكانت فى حلف حربى مع الروسيا ولم تكن ترغب فى الحرب، فاندفعت فيها لاستعادة الأرض التى سلبت منها

---

1 - Gooch 556

نتيجة لمطامع حليفتها . ولو أنها لم تنجد الروسيا لزال مركزها كدولة كبرى فى أوربا .

أما ايطاليا فلقد أبانت لحلفائها أنها لن تدخل الحرب معهم اذا كانوا فى حرب مع انجلترا وفرنسا وفى سنة ١٩٠٢ أوضحت لها بأنها لن تشترك فى مهاجمة فرنسا . وفى سنة ١٩٠٩ وعدت الروسيا بتأييد مطالبها اذا أيدت الروسيا مطالب ايطاليا .

ولذا فى عام ١٩١٤ كانت مقيدة باتفاقات مع دول الاتفاق الودى ولو أن علاقاتها مع ألمانيا كانت جيدة إلا أن مطامعها فى الترنتينو الادرياتى لا يمكن تحقيقها إلا على حساب النمسا . ثم إن ايطاليا لن تستطيع أن تساعد المطامع النمساوية فى البلقان .

أما انجلترا فلقد أثارها للحرب مسألة بلجيكا ، فانجلترا تركت سياسة العزلة ، وكانت ترى أنها اذا سلكت طريق الحياد انتصرت دول الوسط ، ووجدت انجلترا نفسها وحيدة أمام أوربا ، ولاضطرت لأن تنفق نفقات هائلة على تسليحها فى البر والبحر . فما كانت انجلترا تستطيع الحياد ولو لم تغز المانيا بلجيكا .

الفصل الحادي عشر

نشوب الحرب

انقسمت أوربا إذاً الى معسكرين متناحرين ، وكانت خطـــة شليفن Schlieffen ترمى الى الهجوم على بلجيكا واختراق أراضيها للوصول إلى الحصون المنيعة التى تفصل فرنسا عن المانيا ، وقد تركت فرنسا حدودها الشمالية الشرقية دون أن تدافع عنها رغم معرفتها بإتجاه الألمان .

وفى ٥ أغسطس يستولى الألمان على ليبج بعد أن ارتد البلجيكيون إلى أنتورب ، وتركوا بروكسل تسقط فى أيدى الالمان . ثم أعقبها سقوط نامور فى ٢٣ أغسطس . وفى ذلك الوقت عبرت القوة الانجليزية بقيادة السير جون فرنش Sir John French القنـال وأخذت مراكزهـا فى ٢٢ أغسطس علـى ميسرة الجنود الفرنسيين .

وأدى انهزام الفرنسيين فى شارلروا وفى لاشاتو إلى تقهقر الانجليز ، ولم يكن هناك ما يمنع الالمان من أخذ ثغور القنـال . ولذا نقلت بريطـانيا قاعدتها العسكرية إلى مصب نهر اللوار . ولـكن الجيوش الالمانية بقيادة فون كلوك Von Kluck سارت بسرعة نحو باريس التى سرعان ما انتقلت حكومتها إلى بوردو تاركة حمـــاية العاصمة الفرنسية فى يد جالينى Gallieni . ولـكن فى ٥ سبتمبر انتهى التقهقر وقامت معركة المارن لمدة ست أيام ، فأنقذت باريس وقضت على خطة الالمان فى انتصار سـريع فى الغرب ، وحل وزير الحربيـة فالكنهاين

محل مولتكه الذى كانت صحته لا تسمح له بالاستمرار فى القتال Falkenhayn ، كما أنه لم يظهر كفاية ممتازة .

وقوى الألمان مراكزهم فى الايزر حيث نشب قتال عنيف ، وسقطت انتورب واضطر البلجيكيون إلى التقهقر بجوار الساحل ليتصلوا بالانجليز . ثم قام الألمان بهجوم عنيف على ايبرس Ypres وضحى الجنود الانجليز حياتهم فى سبيل الوقوف أمام الألمان . وفى هذه الأثناء كانت ألمانيا محتاجة إلى جنود للشرق ، وقلت ذخائر الألمان . ولذا لم يقوموا بهجوم كبير بعد ذلك إلا فى عام ١٩١٨ .

فألمانيا لم تستطيع تنفيذ خطة شيفلن فى الوقت المناسب ، ولكنها كسبت أراضى جديدة ومناطق غنية بالصناعات والمعادن .

وفى تلك الفترة من بدأ الحرب قام الروس بهجوم عنيف فى بروسيا الشرقية وصلوا فيه إلى ضواحى كنجسبرج تحت قيادة القائد الأعلى الجراندوق نيكولاس. ولكن فى ٢٧ أغسطس قاسى الروس هزيمة فادحة فى تاننبرج Tannenberg. واستطاع الألمان بقيادة هندبرج ومساعدة لودندرف أن يقضوا على الجيش الروسى وقائده سامسونوف Samsonov فى معركة تشبه موقعة سيدان ، ولذا أطلق عليها اسم سيدان الروسية وبذا لم يكن للروس خطر كبير على ألمانيا بعد ذلك ، ولو أن الروس تمكنوا بعد ذلك من غزو بعض أجزاء بروسيا الشرقية .

أما النمسا فكانت مقاومتها ضعيفة نسبياً ، فلقد تمكن الروس من غزو غاليسيا ، وتمكنوا من عبور الكربات إلى كراكاو وأسرع هندبرج لمساعدة النمسويين فخف الضغط الروسى ، ولكن لم يفلح الألمان فى الإستيلاء

على وارسو ، وتمكن الروس من أخذ كل غاليسيا وهددوا سيليزيا ولكن النمسا انهزمت أمام الصرب ، فلقد طردت جنودها من بلجراد وغزا الصرب البوسنة .

أما اليابان فقد انضمت إلى فرنسا وانجلترا وروسيا ، فأرسلت إنذاراً إلى ألمانيا فى ١٥ أغسطس بتسليم كياوشاو . ولذا قامت بالحرب ضد ألمانيا فى الشرق الأقصى . وأمدت الروسيا بالذخائر والمؤن وحمت سفن الحلفاء فى الشرق الأقصى .

أما تركيا فقد غضبت لعدم تسليم انجلترا سفينتين حربيتين كانت تركيا قد طلبت منها بناءهما . وعرضت دول الحلفاء على تركيا التعويض أو تسليمها بعد الحرب والبقاء على الحياد ، على أن تقوم بالدفاع عنها إذا هوجمت . ولقد طلبت تركيا إلغاء الإمتيازات ، فأوضح جراى أن انجلترا مستعدة لذلك إذا وافقت الروسيا وفرنسا .

ولكن أنور باشا رجل تركيا الاول فى ذلك الوقت كان قد قرر فى ذهنه الانضمام إلى الدول الوسطى فى حالة حرب عالميــة ، وكان يشاركه ذلك الرأى فريق كبير كان يرى أن انجلترا تعطف على المسيحيين فى الدولة ، وأنها لن تتمسك بوعودها فى المحافظة عليها ، وأنها سوف ترضى الروسيا على حسابهم . وفى أول أغسطس عقدت تركيا معاهدة مع ألمانيا بالانضمام اليها إذا دخلت الروسيا الحرب، وانضمت اليهما النمسا .

ولقد وعدت الدولتان تركيا بمساعدتها حربياً،وضمان سلامة أراضيها ضد الروسيا . وظل ذلك سراً إلى أن تستعد تركيا ووعدت بتصحيح حدودها، وأن يكون لها نصيب فى الغرامة الحربية .

وهددت انجلترا تركيا بأنها إذا دخلت الحرب مع ألمانيا كان فى ذلك نهايتها ، بينما كانت الجنود والأسلحة الألمانية تنهال على تركيا . وفى ٢٨ اكتوبر كانت استعدادات أنور كاملة ، ودخلت بعض السفن الألمانية فى البحر الأسود وهاجمت سفنا روسية وضربت أودسا بالقنابل . ولذا أعلنت الروسيا الحرب على تركيا فى ٣١ اكتوبر وضربت القنابل مداخل الدردنيل ، وأسرعت انجلترا بتعزيز حاميتها فى مصر ، وكانت الجنود التركية تزحف نحوها .

وترتب على ذلك اتساع ميدان الحرب فتعرضت انجلترا وفرنسا لثورة شعور المسلمين ولذا أعلنت انجلترا ضم قبرص واعلان الحماية على مصر وخلع عباس الثانى الذى كان تركى النزعة وصدت غارة على قناة السويس فى فبراير سنة ١٩١٥ .

ولقد سرت الروسيا بدخول تركيا الحرب كى تستطيع تنفيذ مطامعها ، لأن الانتصار على دول الوسط معناه ضم بعض البولونيين الثائرين المستائين . ولكن انتصارها على تركيا له معنى آخر . ولذا أعلنت انجلترا أن الآستانة والمضايق ستكون من نصيب الروسيا .

وأخذت الروسيا تتفق مع كل من انجلترا وفرنسا على تقسيم تركيا ، على شرط احترام مصالح الدول الثلاث ولكن تنفيذ البرنامج كان صعباً . ففى ٢ يناير ١٩١٥ طلبت الروسيا النجدة من انجلترا لتخفيف الضغط على جبهة القوقاز حيث إزداد ضغط أنور باشا . وجاءت النجدة عن طريق مهاجمة الدردنيل وأيد ذلك تشرشل وزير البحرية الذى كان قد طلب مهاجمة تركيا من وقت دخولها الحرب . وأيد ذلك بفكرة ضم البلقان إلى الحلفاء ، وصد هجوم الألمان على الشرق ولتقليل الخطر على مصر والشرق الأدنى .

وأجيب على ذلك الرأى بأن مهمة انجلترا فى الغرب هى حماية القنال ، وأن انجلترا ليس عندها الجنود الكافية ولا الأسلحة الكافية لحملة فى الشرق ، كما أنه ليس لدى انجلترا السفن الحربية الكافية .

ولقد قرر فى ١٦ فبراير إرسال حملة تخرج من مصر . وقامت انجلترا بضرب الدردنيل دون جدوى ، وخسرت خسائر فادحـــة حينما حاولت إنزال جنود إلى الساحل والمحافظة على نقطة ارتكاز لهـــا . ولكن القوات لم تستطع التقدم، وكانت بقيادة السير جان هاملتون Sir Jan Hamilton ، وكان يظن أن الروسيا سترسل مائة ألف جندى ، ولكن الروسيا لم ترسل شيئاً .

وقد وازن انضمام تركيا إلى المانيا انضمام ايطاليا إلى الحلفاء بعد ذلك بستة شهور .

وكانت ايطاليا قد أطلعت المانيا على رغبتها فى ضم الترنتينو ، ولكن النمسا رفضت ذلك . وبوصول سونينو Sonnino إلى منصب وزارة الخـــارجية الايطالية - وكان معروفا بميله إلى الدول الوسطى ، ولكنه كان مكيافيليا قبل كل شىء - تشتد المطالبة بالترنتينو ويجد تشجيعا من قبل ألمانيا ، ولكن تصر النمسا على الرفض . وتتغير الأوضاع بعض الشىء عندما تعلن النمسا بزعامة بريان Burian عن رغبتها فى ترك شىء لإيطاليا . ولكن ترتفع مطالب سونينو ويطالب بضم التيرول وجوريتزيا وتريستا ، وبسيطرة ايطاليا على فالونا ، وأن تتنازل النمسا عن مصالحها فى البانيا . فرفضت النمسا التسليم بكل مطالب ايطاليا لتكون على الحياد .

تتعالى صيحات الانضمام إلى الحرب فى ايطاليا ، وكان من الطبيعى أن تجد

مطالب ايطاليا صدى لدى الحلفاء أكثر من النمسا. فتقوم المفاوضات بين ايطاليا والحلفاء فى لنـــدن ، وكان يعارض مطالب ايطاليا الكبيرة كل من فرنسا والروسيا . فالروسيا كانت تعارض فى مطالب ايطاليا فى ساحل شرق الادرياتى ، ولكن فشل هجمات الحلفاء فى الغرب كانت فى صالح ايطاليا . ثم مجىء وزارة ائتلافية فى انجلترا كان فى صالح ايطاليا أيضاً .

وأخيراً مضى جراى معاهدة مع ايطاليا اشتركت فيها فرنسا والروسيا لإرضاء مطامع ايطاليا فى ٢٨ ابريل ١٩١٥ . وتنص المعاهدة على أن تأخذ ايطاليا الترنتينو وتريستا وما حولها وايستريا وشمال دلماشيا والجزر المواجهة لها . أما الساحل من ايستريا إلى دلماشيا بما فيها فيوم فيترك لكرواتيا والصرب والجبل الاسود . وتأخذ ايطاليا فالونا وتسيطر على البانيا وجزر الدوديكانيز واضاليا فى حالة تقسيم تركيا ، وتعترف الدول بمركز ومصالح ايطاليا فى البحر المتوسط. وضم ليبيا نهائيا إليها . وتقدم انجلترا قرضا ماليا لايطاليا قدره ٥٠ مليون جنيه ، وتأخذ ايطاليا جانبا من الغرامة الحربية . وجعلت المعاهدة سرية ، ونص على دخول ايطاليا الحرب فى مدى شهر والغرض من جعل المعاهدة سرية خشية الحلفاء من أن تعرف الصرب محتوياتها . ولو أن انضمام ايطاليا قوى من مركز الحلفاء المادى إلا أنه أضعف مركزهم المعنوى ، لأن المعاهدة عندما عرفت فى الصرب أثارت غضبهم .

وأما سونينو فقد ترك باب المفاوضات مفتوحا مع فينا حتى يجد عذرا لإعلان الحرب ، ولذا فبعد فترة من الزمن صرح أنه من المستحيل الاتفاق معها، وأعلن عداءه للتحالف الثلاثى . ولكن الحكومة النمساوية أعلنت لايطاليا

تسليمها بمعظم مطالبها ، فتأخذ الترنتينو ، وتصبح تريستا مدينة حرة لها صبغة إيطالية ، وأعلنت النمسا أن ليس لها مصالح فى البانيا وتسلم هذه لايطاليا بعد شهر من الاتفاقية ، وضمنت البانيا وفاء النمسا بوعدها .

وفى أثناء ذلك وصل دانزيو الى روما وبدأت المظاهرات العدائية ، وسقطت وزارة سلاندرا Salendra ثم عادت وأعلنت الحرب على النمسا فى ٢٣ مايو ١٩١٦ ، ولم تعلن الحرب على ألمانيا إلا فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩١٦ ، ووجهت ايطاليا اهتمامها إلى تريستا ولكن هجماتها قد فشلت .

وبالرغم من هجوم ايطاليا استطاعت النمسا أن تطرد الروس من غاليسيا ، فما كانت الروسيا تستطيع الاستمرار فى الحرب مدة طويلة ، لم يتمكن الحلفاء تقديم مساعدة لها .

وكانت خطة فلكنهاين Falkenhayn فى ١٩١٥ الصمود فى وجه الأعداء فى الغرب ، وضرب الروسيا ضربة قاضية فى الشرق ، وأختيرت غاليسيا كنقطة للهجوم للعمل على مساعدة النمسا . وبدأ هجوم ماكنزن Mackensen فى ٢ مايو فى جورليس Corlice ، فتقهقر الروس وسقطت لمبرج عاصمة غاليسيا . ثم هاجم ماكنزن وارسو وكوفنو وجرودنو وفلنا أكبر مدن لتوانيا إلى برست لتوفسك Brest Litovsk ، وبذا خسرت الروسيا بولونيا ولتوانيا . واضمحلت سمعة الروسيا الحربية ، وكذا سمعة القيصرية فعزل الجراندوق نيكولاس وأخذ القيصر على عاتقه القيادة .

أما بولونيا فقد اختصم بشأنها الدول الثلاث ، وكان هذا فى صالحها إلى حد ما ، وقد قسمت بولونيا إلى أقسام مختلفة ، فالقسم الخاضع لألمانيا حالته الاقتصادية جيدة جداً . ولكن لم يسمح له باستقلال ثقافى ، والجزء التابع للنمسا له استقلال

ثقافى وحرية واسعة ، والقسم التابع للروسيا لا يتمتع بإحدى هذه الميزات .

ولقد حاول كل فريق من المتحاربين أن يضم اليه عطف البولونيين .

ففى ١٥ أغسطس ١٩١٤ أصدر الجراندوق منشوراً بليغ الاسلوب فى مدح بولونيا ووجودها وتوحيدها واستقلالها الذاتى تحت حكم القيصر ، وسمحت باستعمال اللغة البولونية فى الإدارة الداخلية . أما الميزات الأخرى فتمنح بعد الحرب . كذلك وعدت المانيا بتوحيد بولونيا . وكانت حالة بولونيا سيئة فكان أبناؤها يحاربون فى معسكر الدول الثلاث . وكانوا منقسمين إزاء الخطة التى يتبعونها ، ففريق الوطنيين وعلى رأسهم ديموفسكى Dmowski كانوا يرون الانضمام إلى الروسيا ، وفريق الديمقراطيين وعلى رأسه بلسدسكى Pilsudski يحارب الروس بعنف فى صف الألمان .

وبعد هزيمة الروسيا فى ١٩١٥ كانت بولندة تحت الكوندمنيوم الروسى - الألمانى ، فالحكومة الألمانية فى وارسو ، والحكومة النمسوية مقرها فى لبلان Lublin ، وفشلت فكرة اقتسام بولونيا . ثم اقترح إنشاء ملكية بولونية مستقلة ، ولكن اختلف على الملك . وعادت الدولتان واتفقتا على أن تعلنا رغبتهما فى إرجاع بولونيا كدولة دستورية ملكية وراثية متصلة بالدول الوسطى .

وكانت هزيمة الروسيا فى ١٩١٥ مشجعة بلغاريا على دخول الحرب فى صف دول الوسط .

وكان كل من المتحاربين يحاول ضم دول البلقان اليه بالترغيب تارة والوعيد تارة أخرى . ولقد أعلن فنزيلوس Venezelos أن اليونان تنضم اليهم فى حالة دخول تركيا الحرب ضدهم ، على شرط حماية الحلفاء لليونان من إعتداء بلغاريا . فوعدت بريطانيا بأن الاسطول التركى لن يستطيع الخروج من الدردنيل ، ولكن

الملك أعلن للقيصر أنه لن يهاجم حلفاء ألمانيا إلا إذا هاجموه .

ولقد وعد الحلفاء اليونان بجنوب البانيا اذا انضمت اليهم .فطلب فنزيلوس ضمانا من بلغاريا ورومانيا بألا تهاجماه، فرفضت رومانيا ولذا استمر فنزيلوس على الحياد . ولكن انجلترا وعدته بأزمير في يناير ١٩١٥ اذا دخل الحرب،فشجع هذا اليونان على دخول الحرب ولو بتضحية قولة لبلغاريا . ولكن فنزيلوس علم بأن المانيا بعثت بقرض الى بلغاريا ، مما دل على ميل السياسة البلغارية لالمانيا. ثم عادت انجلترا فنحت اليونان ولاية Aidin إذا دخلت اليونان الحرب .

وكذا لم يفلح الحلفاء فى ضم بلغاريا اليهم ، فأرسلت بعثة بكستون Buxton بناء على اقتراح لويد جورج وتشرشل ، لاسيما بعد دخول تركيا الحرب ومنحت بلغاريا مقدونيا إذا هى انضمت،وإزداد اهتمام الحلفاء بعد هزيمة روسيا فى ١٩١٥ .

والذى دعا بلغاريا الى الانضمام إلى دول الوسط هو أن بلغاريا عدوة الصرب، والروسيا تحمى الصرب ، فتوثقت العلاقات بينها وبين فينا ، ولكنها لم تعد بغير الحياد فى أول الأمر، لا سيما قبل انهزام الروسيا . ولكن لما انهزمت هذه الدولة وضح الموقف الحربى فى نظر البلغاريين ، فانضموا الى المانيا ، على شرط أنه اذا هاجمتها اليونان أو رومانيا تسترجع بلغاريا ماخسرته من الأراضى.

وهاجم الألمان والنمسويون الصرب بقيادة ماكنزن . ولكن موقف بلغاريا أثر فى موقف اليونان ، فأعلن فنزيلوس التعبئة وطلبت اليونان النجدة من من الحلفاء، فأرسلو جنودا إلى سلونيكا ، ولكن اليونان عادت فأعلنت الحياد بعد طرد فنزيلوس ، ودخلت الدول الوسطى الصرب ، وسقطت الصرب .

وسقوط الصرب دعا إلى فتح السكك الحديدية بين أوربا الوسطى وتركيا

وسهل نقل المدافع ، الذخائر ، ورأت انجلترا الانسحاب من الدردنيل ، ولـكن الحملة فى سلانيك ظلت هناك لمراقبة اليونان .

وانتهت الحرب فى سنة ١٩١٥ فى صالح الدول الوسطى . فلم ينجح الحلفاء فى الغرب وانهزمت الروسيا فى الشرق ، ولم تفلح إيطاليا فى هجماتها، ودخلت بلغاريا فى صالح الدول الوسطى ، وسقطت الصرب وفشلت حملة الدردنيل .

ولكن انجلترا كانت تسيطر على البحر ، فلم تحاول البحرية الألمانية منع الحملة الانجليزية من الوصول إلى فرنسا ، واستعملت الغواصات ، ولم تقم حرب بحرية مهمة . ولكن بقرب ساحل شيلى هزم أسطول ألمانيا فى المحيط الهادى أسطول Cradock فى موقعة كورونيل Coronel فى أول نوفمبر ١٩١٤ ، ثم عبر الألمان مضيق مجلان ، ولكن دمر الأسطول فى ٨ ديسمبر بقرب جزائر فكلاند Folkland بقيادة ستوردى Sturdee . وفى أواخر سنة ١٩١٤ إختفى العلم الألمانى من المحيط ، وقطعت المواصلات بين ألمانيا ومستعمراتها .

وفى عام ١٩١٦ بدأت كفة الحلفاء ترجح ، فقد انكسرت حدة الهجوم الألمانى نتيجة موقعتين فاصلتين فى تاريخ الحرب العالمية الأولى ، ففى معركة فردان استطاع الفرنسيون بعد تضحيات جسيمة أن يوقفوا الزحف الألمانى وأن يستعيدوا الأراضى التى فقدوها فى الهجوم الألمانى الأول ، وبذلك استطاع الفرنسيون أن يوقفوا الغزو الألمانى لأول مرة منذ بداية الحرب .

أما فى معركة السوم فقد فقد الألمان قرابة نصف مليون جندى بينما بلغت خسائر البريطانيين ٤١٠,٠٠٠ جندى والفرنسيون ١٩٠,٠٠٠ جندى وقد بلغت من شدة المعركة ان البريطانيين قد فقدوا فى اليوم الأول لها مايقرب من ٦٠,٠٠٠ مقاتل دون أن يستطيعوا تحطيم خط الدفاع الألمانى .

ومع ذلك فقد خسر الألمان خيرة قواتهم المحاربة فى هذه المعركة، مما اضطرهم إلى الاعتماد على المجندين الجدد الذين لم تكن لهم نفس الخبرة أو المقدرة التى كانت لزملائهم من قبل ، وبذلك بدأت كفة الحلفاء ترجح ، لا سيما وأن بريطانيا أصبحت أكثر إستعداداً على إمداد فرنسا بعدد أكبر من القوات الانجليزية المحاربة .

ومما تجدر الاشارة اليه أن البريطانيين استطاعوا لأول مرة إستخدام الدبابة فى الحرب ، ففى معركة السوم بالذات وفى ١٥ سبتمبر ١٩١٦ ظهرت فى ميدان القتال ، ولو أن ظهورها لم يكن له خطره فى بادىء الأمر نظرا لعدم إستخدامها إستخداما صحيحا ، وكذلك لقلة عددها، إلا أن الاعتماد عليها بعد ذلك سيكون كبيراً وستكون من الأسلحة التى أكسبت الحلفاء النصر فى النهاية .

وإذا إنتقلنا إلى الميدان الشرقى نجد أن أعلام النصر الروسية بدأت ترفرف على الجبهة الشرقية إذ استطاع القائد الروسى بروسيلوف Brussilov أن يدحر قوات النمسا والمجر فى معركة دامت قرابة الشهرين استطاع فيها القائد الروسى أن يأسر حوالى ٤٥٠,٠٠٠ جندى نمسوى . وبهذا النصر استطاع الروس أن يردوا على الهزائم الأولى التى منيوا بها فى الحرب ، مما شجع رومانيا على إعلان الحرب على النمسا فى ٢٧ أغسطس ١٩١٦ . وبذلك يمكننا القول بأن سنة ١٩١٦ كانت حاسمة وفاصلة بين فترتين للحرب، وكانت فى صالح الحلفاء إلى حد كبير.

ولكن انضمام رومانيا إلى جانب الحلفاء قد أتاح للألمان فرصة الهجوم عليها واكتساح أراضيها، إذ استطاعت القوات الألمانية تحت قيادة فلكنهاين وماكنزن من اكتساح الأراضى الرومانية والاستيلاء على العاصمة بوخارست فى ٦ ديسمبر

١٩١٦ ، وبذلك استطاع الألمان أن يستولوا على دولة غنية بثروتها الطبيعية ولا سيما البترول عصب الحرب .

الحصار البحرى

ومما زاد من متاعب الألمان ذلك الحصار البحرى الشديد الذى فرضه الانجليز على الألمان مما أدى إلى قلة المواد الغذائية لدى الشعب الألمانى وإلى معاناة هذا الشعب من برنامج التقشف الذى فرضته الحكومة الألمانية عليه . ولكن مما قلل من هذا الضيق الترحيب الذى قابل به الشعب الألمانى تغيير القيادة العليا للجيش بعد النكسة التى أصيب بها فى معركتى فردان والسوم ، فتعيين هندنبرج قائداً عاما للجيش الألمانى فى ١٨ أغسطس ١٩١٦ ، وكذلك تعيين لودندورف رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش . وكان كلا الرجلين يتمتع بثقة الشعب الألمانى وتقديره .

ونظراً لتفوق انجلترا البحرى استطاعت أن تقوم بعملياتها البحرية فى البحر المتوسط دون أن تخشى شيئاً من قوة ألمانيا البحرية ، فتمكنت من إنزال قواتها فى الدردنيل، وكذلك فى سالونيك كما أنها قطعت كل صلة تربط ألمانيا بمستعمراتها، بحيث أصبحت تلك المستعمرات مهددة بالسقوط فى أيدى الحلفاء دون أن تستطيع ألمانيا أن تفعل شيئا من أجل انقاذها . كما أن قوة البحرية الانجليزية قد قللت إلى حد كبير خطر الحصار الألمانى الذى فرض على الجزر البريطانية عن طريق الغواصات التى قامت بحرب لا هوادة فيها فى إغراق السفن المتجهة لانجلترا مهما كانت جنسيتها .

على أن سياسة بريطانيا فى تفتيش السفن التجارية المتجهة نحو أوربا قد أثار غضب الدول الأوربية المحايدة . فلم تستسغ تلك الدول قبول التدخل البريطانى فى حريتها التجارية، رغم وقوفها على الحياد، وخصوصا الولايات المتحدة الأمريكية

التي كانت تقف على الحياد من الحرب الدائرة فى أوربا حتى ذلك الوقت ولكن دخول الولايات المتحدة الحرب الى جانب الحلفاء قضى على معارضة الدول لموضوع التفتيش البحرى. ورغم تفوق انجلترا البحرى إلا أن الأسطول الانجليزى قد أصيب بخسائر كبيرة نتيجة لحرب الألغام والغواصات والطوربيدات .

وفى تلك السنة نشبت معركة جتلند Jutland (فى ٣١ مايو سنة ١٩١٦) بين الأسطولين البريطانى والألمانى لم تحرز فيها بريطانيا نصراً حاسما على العدو، بل أن خسائرها فى تلك المعركة قد فاقت خسائر خصمها . وبذلك لم يرتح الشعب الانجليزى لنبأ تلك المعركة لأنها لم تبين التفوق البريطانى البحرى ، بل على العكس لقد بدا للرأى العام الانجليزى أن القوتين البحريتين تكاد تكون على قدم المساواة وأن مسألة التفوق البحرى الانجليزى موضع نظر .

ولكن هذا التصور المؤقت لم يكن يستند على أساس صحيح ، فالمعركة لا تمثل فى حقيقة الأمر قوة الدولتين، وإنما تمثل ذكاء القائد العام للاسطول الألمانى ترپتز واستغلاله الحرب البحرية القصيرة المدى، وسوء الأحوال الجوية فى بحر الشمال كى ينزل بالأسطول الانجليزى خسائر فادحة . على أننا لا نستطيع أن ننكر أن قطع الأسطول الالمانى كانت من أحدث طراز، ومدافعها أبعد مدى وأكثر قوة، كما أن دروعها كانت سميكة بحيث تعذر على القذائف الانجليزية أن تخترقها ، ولكن إلى جانب ذلك فهناك التفوق البحرى الانجليزى ممثلا فى خبرة البحارة الانجليز ودرايتهم بالحروب البحرية الواسعة المدى .

وحتى ذلك الوقت، أى بعد مضى نحو عامين على نشوب الحرب لم يحرز الطرفان المتصارعان نصرا حاسما يرجح أحدهما على الآخر ، ويرجع ذلك الى عدة أسباب .

أولا : الفصل الذي ظهر بين رغبات الشعوب ومشيئة الحكومات . فبينما مالت الشعوب إلى الوصول بالحرب الى نهايتها عن طريق حل وسط يرضاه الطرفان، وذلك للخسائر الفادحة التي حلت بتلك الشعوب ، نجد أن الحكومات لم ترض بهذا الحل الوسط ورأت الاستمرار في الحرب حتى نهايتها الفاصلة.

ويرجع ذلك بطبيعة الحال الى ما تكبدته الشعوب ، ولا سيما في سنة ١٩١٦ . من تضحيات جسيمة سواء في ذلك المعسكر الانجليزي الفرنسي الروسي أو المعسكر الالماني النمسوي التركي . زد على ذلك سوء الاحوال الاقتصادية نتيجة للغلاء الذي استشرى في أوربا ، وقلة الاجور مما انخفض بمستوى المعيشة للطبقات الدنيا والمتوسطة على السواء .

ففي فرنسا مثلا نجد ثورة الرأي العام ضد وزارة بريان Briand من ديسمبر ١٩١٦ لانها لم تقم بعمل إيجابي لإنهاء الحرب أو إدارتها على درجة من الكفاية تقرب يوم النصر . وكذلك حدث نفس الشيء في بريطانيا إذ سقطت وزارة اسكويث Asquith في ديسمبر من نفس العام، وحلت محلها وزارة لويد جورج.
وفي المعسكر المضاد نجد أن المستشار الالماني بتمان - هولفج قد واجه أيضا صعوبات داخلية كثيرة من قبل المعارضة ، فطلبت منه اتخاذ سياسة أكثر حزما وشدة إزاء انجلترا .

أما في النمسا فقد قامت صعوبات ضد الحكومة ولا سيما من ه القوميات غير الالمانية الخاضعة لحكم الدولة . وأدى الاضطراب في شئون الدولة الى قتل رئيس الوزراء في ٢١ أكتوبر ١٩١٦ ، كما أن الشعب المجري لم ينظر بعين الارتياح الى سياسة وزارة الكونت تيسزا Tisza التي جرت الدولة الى الحرب .

ثانيا : نمو الحركة الاشتراكية في أوربا في ذلك الوقت في مختلف الدول

الأوربية ، وقد التقت آراء الاشتراكيين الحياديين فى سويسرا تحت زعامة جريم Grimm الذين حاولوا إحياء مذهب الدولية Internationalism من جديد مع الاشتراكيين الإيطاليين والإشتراكيين الروس البلاشفة تحت زعامة لينين وأدى هذا اللقاء إلى عقد أول مؤتمر اشتراكى دولى فى سبتمبر ١٩١٥ فى زيمرفالد Zimmerwald بالقرب من مدينة برن بسويسرا ضم أعضاء من جميع الدول المحايدة والمشتركة فى الحرب على السواء ، وقد أوصى المؤتمر فى قراراته مناشدة الشعوب الكادحة فى أوربا بأن يطلبوا من حكوماتهم إبرام الصلح . وقد تجدد هذا اللقاء مرة أخرى فى كنتهال Kienthal فى ١٩١٦ . فهذا النداء الذى انبعث من دول مختلفة إنما كان يعبر عن رأى كثير من الشعوب فى إنهاء الحرب وإقرار السلام .

ومع ذلك حاولت الحكومات ، رغم كل الصعوبات التى أشرنا اليها أن تدفع بالحرب حتى النصر . وقد بدا ذلك واضحا من رد الجانبين المتحاربين على المذكرة التى وجهها الرئيس ولسون فى ٢٠ ديسمبر ١٩١٦ ، إذ أوضحت انجلترا وفرنسا والروسيا بأنها لا تقبل حلا وسطا، وبأن هدفها تحرير الالزاس واللورين وكذلك تحرير الربطانيين والسلافيين والرومانيين والتشكوسلوفاكيين من الحكم الأجنبى . بل إن هذه الدول قد ارتبطت فيما بينها باتفاقات سرية توضح أهدافها من الحرب، ففى مارس ١٩١٥ اتفقت بريطانيا وفرنسا والروسيا اتفاقا سريا يمنح الروسيا القسطنطينية ومضيق البسفور والدردنيل بعد الانتصار فى الحرب ، وكذلك عقد اتفاق سرى آخر فى مارس ١٩١٦ بين الدول الثلاث المذكورة وهى اتفاقية سايكس بيكو لتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بينها .

وفى فبراير ١٩١٧ عقد اتفاق سرى ثالث بين فرنسا والروسيا تعد فيه الأخيرة

بمساعدة الأولى فى استرجاع الألزاس واللورين والاستيلاء على أراضى السار .

كما أن ألمانيا لم تكن أقـــل رغبة فى كسب الحرب من تلك الدول ، ففى المذكرة التى وجهتها الحكومة الألمانية إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى يناير ١٩١٧ أوضحت قبولها استقلال بلجيكا بشروط خاصة وضمانات معينة ، تتلخص فى تجريد بلجيكا من قواتها الحربية ، ومنح المانيا حق الإشراف على الخطوط الحديدية البلجيكية وتسليم حصون ليبج ونامور لإحتلالها بقوات ألمانية . كما أشارت المذكرة أيضا إلى رغبة ألمانيا فى توسيع رقعة أراضيها من جهة الشرق .

ومن هـذا يبدو واضحا أن الحكومات المتحاربة كانت مصممة على المضى فى الحرب حتى النصر .

دخول الولايات المتحدة الحرب

كان عام ١٩١٧ فاصلا فى الحرب العالمية الأولى ، فبالرغم من أن تلك السنة لم تشهد نهاية الحرب وانما شاهدت استمرارها ، إلا أن حدثين هامين قـد وقعا فيها غيرا التوازن فى القوى العالمية المتصارعة وهما : تدخل الولايات المتحدة الحربى وقيام الثورة الروسية .

فإذا تناولنا الحدث الأول نجـد أن الولايات المتحدة التى استمرت تعتنق مبدأ الحياد المشوب بالعطف على قضية الحلفاء قد وافق برلمانها فى ٢ أبريل ١٩١٧ على رسالة الرئيس ولسون بدخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء ضد ألمانيا . وقد جاء دخول الولايات المتحدة الحرب فريدا فى نوعه ، إذ لم يسبق ذلك مفاوضات مع الحلفاء أو وضع شروط معينة للتدخل ، وإنمـــا دفع الولايات المتحدة إلى الحرب محاولة انقاذ العالم الديمقراطى من الهزيمة من على

الدول الاستبدادية فى العالم . ولذا لم تطلق الولايات المتحدة على بريطانيا وفرنسا والروسيا اسم الحلفاء وإنما كانت تذكر اسم « الأصدقاء » أو « الشركاء » للدلالة عليهم .

وقد أعطى دخول الولايات المتحدة الحرب على هذا النحو قوة لها ، فهى لم تتورط فى الاتفاقات السرية التى عقدت بين الحلفاء من قبل ، كما أنها لم تشأ أن تكون طرفاً فيها . وقد منحها هذا حرية العمل غير المقيد ، فمن حقها أن تخرج من الحرب فى أى وقت تشاء بعد أن تطمئن إلى القضاء على الروح العسكرية الألمانية . فلم يكن هدفها كهدف الحلفاء ، وهو كسب الحرب والقضاء على ألمانيا . وكان هذا الفهم الصحيح لموقف الولايات المتحدة يمثل تهديداً مستمراً لأهداف الحلفاء ومراميهم التوسعية على حساب الدول المهزومة .

وقد نتساءل عن العوامل التى دفعت الولايات المتحدة إلى اتخاذ مثل هذا القرار الخطير بعد أن اعتنقت سياسة الحياد فترة غير قصيرة من الزمن . فمبدأ مونرو قد رسم للولايات المتحدة الأمريكية سياسة واضحة المعالم فيما يتعلق بالمشكلات الأوربية ، فقد نص على ابتعاد الولايات المتحدة عن المنازعات الأوربية وعن شئون أوربا المعقدة. فسياسة الحياد هى خير وسيلة لضمان سلامة الولايات المتحدة . ولذا نجد أن الرئيس الأمريكى ولسون يوضح فى رسالته التى وجهها إلى الكونجرس فى ٢٢ يناير ١٩١٧ أنه لا يغلب فريقا على آخر ، بل أنه على العكس يتمنى صلحا دون نصر ، أى كان يريد صلحا يقوم على مراعاة مصالح الطرفين . وكان يستبعد فكرة اشتراك الولايات المتحدة الأمريكية فى الحرب ، ففى هذا الشهر بالذات يصرح ولسون لصديقه الكولونيل هاوس House بأنه يعتبر الإشتراك فى الحرب جريمة على الحضارة .

ومع ذلك فقد كان الرأى العام الأمريكى منقسما على نفسه بخصوص فكرة الحرب ، فبينما نجد أن الولايات الشرقية تبدى ميلا ظاهراً نحو الحلفاء، نظراً لما بينها من روابط اقتصادية وثيقة ، نجد أن الولايات الأخرى لا سيما فى الوسط والغرب لم تبد اهتماما يذكر بهذه الفكرة . وعلى هذا النحو نجد أن فكرة الحرب لم تجد موافقة أغلبية الشعب الأمريكى .

إذاً كيف دخلت الولايات المتحدة الحرب مع هذا الانقسام البادى فى الرأى العام الأمريكى ؟

الحقيقة أن الولايات المتحدة الأمريكية ظلت متشبثة بفكرة الحياد رغم تكرار إعتداء الغواصات الألمانية على سفنها التجارية عبر البحار . وطالما وجهت الولايات المتحدة الإنذار تلو الآخر للحكومة الألمانية على هذا العدوان الذى لا مبرر له على سفن دولة محايدة ، ولكن الألمان لم يعيروا تلك الانذارات أذنا صاغية ، لأنهم كانوا يؤمنون بأن كسب الحرب لن يتأت إلا بفرض حصار بحرى على الجزر البريطانية لإماتتها جوعا . وفى ٧ مايو ١٩١٥ نسفت الغواصات الألمانية عابرة المحيطات الانجليزية لوزيتانيا Lusitania وكانت تحمل ١١٨ راكبا أمريكيا ، فاحتجت الولايات المتحدة على هذا العمل غير الودى من قبل الحكومة الألمانية . وقد حاولت الحكومة الألمانية أن تخفف من هجماتها على السفن الناقلة للركاب ، ولكنها لم تستطع أن تستمر على تلك السياسة طويلا، فسرعان ما عادت إلى هجماتها مرة ثانية أشد وأعنف مما كانت من قبل . لا سيما وقد خيل للقيادة الألمانية بأن هذه الهجمات الشديدة سترغم بريطانيا على التسليم العاجل السريع الذى قدر له فترة ستة شهور ، لا سيما وأنها اعتقدت أن تلك الهجمات ولو أنها ستسبب بعض الخسائر للولايات المتحدة الأمريكية إلا أنها لن

تؤد بطبيعة الحال إلى عدول الولايات المتحدة عن سياسة الحياد . وحتى على أسوأ تقدير إذا دخلت الولايات المتحدة الحرب فإن استعداداتها الحربية ستستلزم ما لا يقل عن عام كامل ، مع أن تسليم بريطانيا كما توقعته القيادة الألمانية لن يزيد على ستة شهور .

وبعودة حرب الغواصات مرة ثانية بعد حادث الباخرة لوزيتانيا استاء الرأى العام الأمريكى لنقض الحكومة الألمانية وعودها فى عدم مواصلة إغراقها السفن الأمريكية وبدأت فكرة الحرب تجد تأييداً من الرأى العام . وكإجراء مؤقت أمرت الحكومة الأمريكية بتسليح بواخرها التجارية لمقاومة حرب الغواصات الألمانية ، وكان ذلك بطبيعة الحال مقدمة منطقية لدخول الولايات المتحدة الحرب .

وبالإضافة إلى تلك الخسائر المادية التى منيت بها الولايات المتحدة والشلل الذى أصاب تجارتها عبر المحيط نتيجة لحرب الغواصات ، فقد وقعت حادثة أخرى لها أهميتها الكبرى فى تصميم الحكومة الأمريكية على دخول الحرب ألا وهى (قضية برقية زيمرمان) . ويتلخص هذا الحادث فى أن زيمرمان Zimmermann مساعد وزارة الخارجية الألمانية كان قد أرسل إلى ممثل ألمانيا فى المكسيك برقية يقترح فيها على الحكومة المكسيكية الدخول فى حلف مع ألمانيا فى حالة دخول الأخيرة الحرب ضد الولايات المتحدة، فى مقابل استرجاع المكسيك للأراضى التى استولت عليها الولايات المتحدة فى عام ١٨٤٨ وهى كاليفورنيا ونيو مكسيكو . وقد استطاعت مخابرات انجلترا أن تستولى على تلك البرقية وأن تعرف مضمونها وأن تبلغها إلى الولايات المتحدة الأمريكية التى بدورها أعلنتها على الرأى العام الأمريكى الذى أثاره هذا العمل أيما إثارة .

كما أننا لا ننسى الدور الذى قامت به المصارف الأمريكية التى اقرضت انجلترا وفرنسا قروضاً كبيرة لتمويل عملياتها الحربية ، فى دفع الولايات المتحدة إلى خوض تلك الحرب إلى جانب هاتين الدولتين ضمانا لأموالها وحفاظا على مصالحها .

ومما لاريب فيه أن قضية الحلفاء قد كسبت كثيراً بدخول الولايات المتحدة الأمريكية إلى جانبها فى الحرب ، كما أن هذا التدخل كان حاسما [1] فى ترجيح كفة الحلفاء على كفة دول وسط أوربا . ولكنه من زاوية أخرى قيد حرية الحلفاء فى الناحية السياسية إلى حدما . فلم تعد تلك الدول مطلقة اليد فى أن تفعل ما تشاء ، بل كان عليها الحصول على موافقة الولايات المتحدة فى أى أمر تعتزم القيام به .

فمن الناحية العسكرية كان دخول الولايات المتحدة الحرب كسبا لا شك فيه ، ولكنه لم يتحقق بصورة فعالة إلا بعد مضى عام على إعلانها الحرب ، ريثما تمكنت من تطبيق نظام التجنيد الإجبارى وإعداد الجيوش وإنتاج الأسلحة اللازمة لخوض تلك الحرب . وعندما أتمت الولايات المتحدة استعداداتها الحربية ألقت فى ميدان القتال فى أوربا بمئات الآلاف من الجنود المزودين بأحدث الأسلحة ، فانقلب بذلك ميزان القوى إلى صالح الحلفاء ، وأتى بنتائجه فى ربيع عام ١٩١٨ .

ومن الناحية الاقتصادية ، فان دخول الولايات المتحدة الحرب قد أحكم الحصار حول ألمانيا ، وأنقذت انجلترا من التسليم بعد أن خسرت عدداً كبيراً من سفنها وأصبحت عاجزة عن نقل المواد الضرورية اللازمة للحرب ، وما هو

---

١ — بيير رونوفن : تاريخ القرن العشرين ص ٦٦ .

أم من السلاح ، وهى المواد الغذائية . فافتقار بريطانيا إلى وسائل النقل الكافية قد عوضه دخول الولايات المتحدة الحرب ، واستخدامها لأسطولها فى نقل ما تحتاج اليه بريطانيا وفرنسا لمواصلة الحرب.

هذا فضلا عن أن دخول الحكومة الأمريكية الحرب قد شجع بعض دول أمريكا اللاتينية مثل البرازيل وبيرو وأرجواى وجمهوريات أمريكا الوسطى على دخول الحرب إلى جانب الحلفاء .

زد على ذلك أن الولايات المتحدة قد اشترطت على الدول المحايدة التى تربطها بها علاقات اقتصادية ضرورة الامتناع منعا باتا عن بيع ما تستورده من أمريكا إلى ألمانيا وحلفائها ، وإلا توقفت الولايات المتحدة عن المتاجرة معها .

ومن الناحية المالية فقد سهل دخول أمريكا الحرب عملية اقتراض انجلترا وفرنسا . فبعد أن كانت حكومتا الدولتين تلجأ كل منهما إلى المصارف الأمريكية للاقتراض منها لتمويل عملية شراء المؤن والمعدات اللازمة للحرب ، أخذت تتجه مباشرة إلى الحكومة الأمريكية التى فتحت صدرها لذلك ، لما فيه من مصلحتها وفائدتها . وإلى جانب الفوائد التى عادت على الحلفاء بدخول الولايات المتحدة الحرب ، نجد التناقض الواضح بين وجهة نظر كل من الولايات المتحدة وشركائها بإزاء الحرب . وبالرغم من إحساس الرئيس الأمريكى ولدن به ، إلا أنه لم يجعل له أى تأثير على التعاون بينهم . وفضل إرجاء البت فى هذا الأمر إلى ما بعد الحرب . وكان يعتقد أن الولايات المتحدة بحكم ما لها من تفوق عسكرى ، وبحكم قوتها المادية ، ونظراً لطبيعة الدور الذى قامت به فى الحرب من أجل تدعيم القوى الديمقراطية فى العالم ، سيكون لها الغلبة فى النهاية ، وستتمكن من تنظيم العالم وفق إرادتها بعد نهاية الحرب .

الثورة الروسية (مارس ١٩١٧)

كانت الأحوال السائدة فى الروسيا تنذر بالخطر على النظام القيصرى ، خصوصا بعد كارثة الهزيمة التى منيت بها الدولة فى حربها ضد اليابان فى عام ١٩٠٥ . وما ترتب على ذلك من قيام ثورة فى تلك السنة للقضاء على الحكم القيصرى الفاسد .

وبالإضافة إلى تلك المتاعب الداخلية كانت الحكومة على غير وفاق مع البرلمان الروسى (الدوما) ، وذلك منذ انشائه فى عام ١٩٠٦ . على أن طبيعة الفترة التى مرت بالبلاد منذ عام ١٩٠٦ إلى قيام الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤ قد تميزت بالأزمات المستمرة بين الدوما والحكومة . وكان أكثر ما يخشاه كبار رجال الدولة فى الروسيا من أمثال المستشار دورنوفو Dournovo وميليوكوف Milioukov وزير الداخلية اشتراك الروسيا فى الحرب فى الوقت الذى تموج فيه البلاد بحركة تذمر واسعة النطاق .

وكان مرد ذلك ، **أولا** : إلى سوء الإدارة وتفشى الرشوة وإسناد الوظائف الكبرى إلى أناس ليسوا فوق مستوى الشبهات . وقد انعكس ذلك بشكل واضح على إدارة الجيش . وعلى تموين المدن الكبرى نظراً لسوء إجراءات النقل .

ثانيا : ضعف القيصر الروسى نيقولا الثانى وقصر نظره وبعده عن الحياة العامة فى بلاده بعداً تاماً ، فلم يكن يدرى بما يعتمل فى نفوس الشعب من الثورة على الأوضاع الفاسدة فى الدولة ، وعلى رأسها القيصر الروسى وأفراد حاشيته . ولا سيما راسبوتين الذى كان يتستر خلف مسوح رجال الكنيسة لتنفيذ مآربه الشريرة . واستطاع راسبوتين عن طريق صلته بالامبراطورة التى كان له

عليها تأثير لا يقاوم من التدخل فى كل شئون الدولة صغيرها وكبيرها حتى المسائل العسكرية .

وقد أدت فضائح القصر الامبراطورى إلى ازدراء الشعب للقيصر ، وإلى تطلعه لليوم الذى يطيح فيه بتلك الأسرة بعيداً عن العرش . بل لقد بلغ من سوء الحالة فى البلاد أن طلب أفراد الأسرة المالكة من القيصر ضرورة الأخذ بالنظام البرلمانى انقاذاً للبلاد من الدمار ، وانقاذاً لملكهم من الضياع .

ثالثاً : ظهور قوة المعارضة فى البلاد داخل مجلس الدوما وخارجه . ففى داخله نمت معارضة الأحرار ، وتشكلت كتلة تضم التقدميين منهم للمطالبة بتشكيل وزارة يرضى عنها البرلمان ، وتحكم وفق مصالح الشعب .

وفى خارج الدوما تمثلت المعارضة فى ثلاث كتل اشتراكية ، وكان أكثرها تطرفاً كتلة « البولشفيك » بزعامة لينين التى كانت تؤمن بالقوة كوسيلة للوصول إلى السلطة . وتليها كتلة « المانشفيك » وهى ماركسية أيضاً شأنها فى ذلك شأن الكتلة البولشفية ، ولكنها أقل منها تطرفاً . ثم تأتى كتلة الوسط وهى الكتلة « الاشتراكية الثورية » وهى أقلها تطرفاً وأكثرها اعتدالاً .

بدأت الثورة فى ٨ مارس ١٩١٧ بمظاهرة قام بها العمال فى مدينة بتروجراد لعدم توافر مواد التموين ، فتصدى لها رجال الشرطة ، فاتسع نطاقها ، واقتحم المتظاهرون قلعتى القديس بطرس والقديس بولس ، وأخرجوا المعتقلين السياسيين .

وعندما عجز رجال الشرطة عن قمع التمرد ، طالبت الحكومة بتدخل الجيش ، ولكنه رفض فاستقالت الوزارة . وفى ذلك الوقت تشكلت لجنة

تنفيـذية فى مجلس الدوما من الأحرار البورجوازيين . وكذلك تألفت منظمة تضم العمال والجنود أطلق عليها اسم « سوفيت بتروجراد » .

وأسفرت تلك الأحداث عن قيام حكومة مؤقتة من الأحرار والاشتراكيين وذلك فى ١٤ مارس ١٩١٧ .

وعندما لجأ القيصر إلى استخدام سلطته كقائد أعلى للجيش الروسى ، وأمر بعض القوات بالزحف على العاصمة وإخماد الثورة ، رفض هؤلاء القيام بهذا العمل ، وكانت حجتهم أن قيام حربٍ أهلية فى وقت تتعرض فيه البلاد لغزو خارجى من قبل أعدائها ، عمل تنقصه الحكمة ، بل سيؤدى دون شك إلى انهيار مقاومة الروسيا ، وهزيمتها فى نهاية الأمر .

ولما وجد القيصر الروسى تصميم قواده على موقفهم آثر التنازل عن العرش فى بسكوف Pskov فى مساء ١٥ مارس ١٩١٧ ، لأخيه الدوق ميخائيل الذى لم يلبث بدوره أن تنازل عن العرش بعد ذلك بيومين اثنين بعد أن وجد بقاء الأسرة الروسية الحاكمة أمراً مستحيلا . فتولت الحكومة المؤقتة التى أشرنا اليها كل الصلاحيات فى البلاد ، ريثما تشكل « الجمعية التأسيسية » التى ستأخذ على عاتقها اختيار نظام الحكم الجديد .

أثر الثورة الروسية فى سير الحرب

لم تكن الثورة الروسية فى حد ذاتها بذات قيمة بالنسبة لانجلترا وفرنسا والولايات المتحدة ، ولكن الذى أثار اهتمام تلك الدول هو موضوع استمرار الروسيا فى الحرب من عـــدمه . وكان الفريق الذى يعتقد فى مواصلة الروسيا الحرب يؤمن أن حكومة الجمهورية فى الروسيا ستكون أقدر على السير بالحرب

من الحكومة القيصرية . لا سيما وأن ميليوكوف وزير الخارجية الروسية فى الحكومة المؤقتة كان صديقا لانجلترا وفرنسا ، وعضواً فى « الحزب الدستورى الديمقراطى » ومن أنصار مواصلة الحرب .

ولكن الامور فى الروسيا كانت تسير فى غير صالح الفريق المنادى بالحرب ، فانشغال الشعب الروسى بتنظيماته الجديدة ، وبمسألة توزيع الارض أو عدم توزيعها ، قد دفع عدداً كبيراً من الجنود الروس إلى إلقاء أسلحتهم والعودة إلى بلادهم لمشاركة زملائهم فى المكاسب الثورية الجديدة . وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى تفكك الجيش الروسى وإلى انحلاله .

وهناك سبب آخر هو قيام الثورة الروسية الثانية فى نوفمبر ١٩١٧ ، إذ استطاع الحزب البولشفيكى تحت قيادة لينين والذى كان ينادى بالصلح مع ألمانيا ، من قلب الحكومة المؤقتة التى يرأسها كيرينسكى Kerenskij الاشتراكى - الثورى . وليس بغريب نظراً لمبادئه التى نادى بها ، ومنها الصلح مع ألمانيا أن تسمح له القيادة الالمانية أن يجتاز المانيا - رغم أنه من رعايا دولة معادية - الوصول إلى الروسيا .

وفى مساء ٦ نوفمبر ١٩١٧ يحدث الإنقلاب فتحاصر قوات لينين مدينة بتروجراد ، وترغم كيرينسكى على الفرار ، فتتشكل الحكومة الجديدة برئاسة لينين ، ويتولى تروتسكى Trotskiy وزارة الخارجية ، وجوزيف ستالين Stalin شئون القوميات . وقد حاول كيرينسكى أن يعاود الكرة مرة ثانية ولكنه يفشل .

وليس من شك فى أن الإنقلاب البولشفى قد أثر على الروسيا تأثيراً خطيراً سواء من الناحية الداخلية أو الخارجية . فمن الناحية الداخلية استطاع هذا

الانقلاب أن يغير نظم المجتمع الروسي تغييراً جذريا ، وأن يقسيم الدولة الاشتراكية ، وذلك عن طريق تأميم كل الأراضي الزراعية ، وحق العمال فى الإشراف على مصانعهم ثم تأميمها بعد ذلك .

ولكن لينين أراد أن يبنى اشتراكية الروسيا على أساس توطيد دكتاتورية الطبقة الكادحة . ولذا حل الجمعية التأسيسية فى ١٩ يناير ١٩١٨ عندما وجد معظم أعضائها من الاشتراكيين الثوريين أنصار كيرينسكى . وجاء دستور ١٠ يوليو ١٩١٨ مدعما لسلطة الطبقة الكادحة حينما حدد مؤتمر السوفييت من له حق الانتخاب من المواطنين الذين يشتغلون بأنفسهم ، وبذلك حرمت الطبقة البورجوازية من هذا الحق .

أما من الناحية الخارجية ، فقد أوفى لينين بوعده وأعلن اعتزامه عقد صلح مباشر مع الألمان ، وأبلغ هذا القرار إلى حلفاء الروسيا . وتم ذلك فى ١٥ ديسمبر ١٩١٧ فى معاهدة بريست - ليتوفسك Brest-Litovsk .

كان لعقد هذه المعاهدة أثر سيء على الحلفاء ، إذ فى الوقت الذى بدت فيه بوادر النصر قريبة اليهم بإنضمام الولايات المتحدة الى جانبهم فى الحرب ، نجد أن خروج الروسيا من صفوفهم قد أعاد التوازن الذى اختل لغير صالح الألمان. وترتب على ذلك نتيجتان هامتان : الاولى أن خروج الروسيا من الحرب خفف عبئاً ثقيلا عن كاهل الألمان ، مما يتيح لهم فرصة توجيه ضرباتهم القوية إلى الميدان الأوربى الغربى .

والثانية : أن إنسحاب الروسيا من الحرب قبل أن تكمل الولايات المتحدة استعداداتها الحربية لتكون قوة فعالة فى الميدان الأوربى قد منح ألمانيا فرصة

ذهبية يمكن استغلالها لكسب نصر حاسم فى أوربا فى وقت قصير ، وقبل أن تنزل الولايات المتحدة بثقلها فى الميدان .

المرحلة الاخيرة للحرب

لم يؤثر دخول الولايات المتحدة الحرب فى عام ١٩١٧ أثراً يذكر فى سير المعارك ، فلم تستطع قوات انجلترا وفرنسا اقتحام الجبهة الألمانية فى غرب أوربا فى ابريل ١٩١٧ بل على العكس من ذلك كان انتصار قوات ألمانيا والنمسا حاسماً على الجيش الايطالى فى معركة كاربوريتو (٢٤ اكتوبر ١٩١٧) ، فخسر ٢٩٠٠٠٠ أسيراً و ٣٠٠٠ مدفعا ، ولم تكن هزيمة الجيش الايطالى غير متوقعة بعد ما بلغه من ضعف نتيجة اهمال وزارة الحرب الايطالية فى إعداده وتسليحه ، وبعدما وصلت إليه الروح المعنوية للجنود الايطاليين من خور لسوء حالة الايطاليين ويأسهم من كسب الحرب أو مواصلة القتال . وارتد الجيش الايطالى إلى ضفاف نهر البياف حيث أخذ يعيد تنظيم صفوفه من جديد . وكان الفضل الأكبر فى إرجاع الثقة إلى نفوس الجنود وحثهم على القتال بحمية وعنف الجنرال كادورنا Cadorna القائد العام للقوات الايطالية .

كان هذا فى الميدان الأوربى ، ولكن إذا انتقلنا إلى ميدان الشرق الأدنى نجد أن انجلترا استطاعت فى ذلك الوقت أن تعبىء جيشاً كبيراً ، خرج من مصر تحت قيادة اللنبى اكتسح الشام واستولى على بغداد ، وذلك بالتعاون مع القوات العربية التى انضمت إلى صفوف الانجليز وأعلنت الثورة على تركيا . وبذلك تتحقق المطامع الانجليزية والفرنسية والصهيونية فى المشرق العربى التى تضمنتها معاهدة سايكس بيكو ووعد بلفور .

كان عام ١٩١٨ حاسما فى الحرب ، فما أن وقعت ألمانيا معاهدة الصلح مع

الروسيا إلا وأخذت تعد العدة للقضاء على أعدائها قبل وصول القوات الأمريكية، فمع بداية شهر يناير سحبت أربعين فرقة من الميدان الروسى لمهاجمة فرنسا بأسرع وقت ممكن ، فقد كانت تعلم بأنها فى حالة تسابق مع الهزيمة ، فلم يكن أمامها أكثر من أربعة شهور للقيام بهذا العمل .

ولقد اتخذت ألمانيا هذه الخطوة بعد أن عرفت بأن الحلفاء لن يقبلوا صلحا مشروطا ، وأن كلا الجانبين المتناحرين لا يسلم بحل وسط . ولذا عندما لاح للعسكريين الألمان أن المستشار الألمانى بتمان هلفيج يميل إلى التساهل نوعا ما ، لجأوا إلى عزله وتعيين لودندورف بدلا منه لتسيير دفة الحرب وفق مشيئتهم .

لم تحاول ألمانيا رغم حاجتها الشديدة إلى تعبئة أكبر قدر من الفرق العسكرية أن تسحب كل قواتها من الجبهة الروسية ، وكانت تقدر فى ذلك الوقت بسبعين فرقة ، نظراً لأن صلح (بريست - ليتوفسك) لم يوقع بين الروسيا وألمانيا إلا فى ٣ مارس ١٩١٨ . ولذا فالهدنة التى وقعت بين الطرفين فى ١٥ ديسمبر ١٩١٧ لم تكن كافية لتقنع الألمان بسحب كل قواتهم من الجبهة الروسية .

هذا بالإضافة إلى أن اضطراب الأمور فى الروسيا لم يطمئن الألمان على مستقبل علاقاتهم مع الروس ، فربما وصل إلى الحكم فى الروسيا فريق يؤيد فكرة عودة الحرب ، وبذلك تجد ألمانيا نفسها فى حرب مع الروسيا مرة ثانية . فالحكمة إذاً تتطلب المزيد من الحذر .

زد على ذلك أن خشية الألمان من إنتشار المبادىء الشيوعية ، جعلتهم يتمسكون بالإبقاء على عدد كبير من الفرق لحماية ألمانيا ضد أية تطورات في غير صالحها :

وإذا كان الألمان مصممين على النصر بأى ثمن مهما عظمت التضحيات ، حسبما جاء بخطاب (١٣ فبراير ١٩١٨) المستشار الألمانى لودندورف أمام مجلس الريشستاج الألمانى إذ يقول : «سيكون القتال مريعاً . وسيبدأ فى نقطة، ونستمر فى نقطة أخرى . وسيتطلب ذلك المزيد من الوقت وسيكون بالغ القسوة » ، فإن الفرنسيين والانجليز كانوا لا يقلون عنهم تصميما . وقد ساعدت الظروف هاتين الدولتين على أن يتولى الحكومة فيها رجال عرفوا بقوة الشكيمة وشدة البأس، وقوة الاحتمال على النضال .

فى فرنسا وصل إلى الحكم (١٣ نوفمبر ١٩١٧) كليمنصو ، وكان مصرا على أن يجمع فى يديه كل السلطة لمواصلة الحرب، فبالرغم من وجود البرلمان الفرنسى، فكان كليمنصو يعرف كيف يوقفه عند حده إذا ما تطلب الأمر ذلك . كما أنه أعلن منذ توليه الحكم على أن سياسته هى أن يحارب فى الداخل ، وأن يحارب فى الخارج ، وأن يحارب على الدوام . فكان بذلك خير من يقود فرنسا فى مثل ظروفها البالغة الخطورة .

وكان يقابله فى بريطانيا لويد جورج ، الذى لم يأبه لصيحات المعارضة داخل البرلمان . وكان يؤمن بأن من حقه أن يتخذ من الإجراءات ما يشاء فى سبيل كسب الحرب . ولذا كان يتمتع رغم وجود البرلمان بنوع من الدكتاتورية التى ساعدته كثيراً على إنجاز ما يريد من أعمال .

أما ايطاليا ، فرغم هزيمتها فى موقعة كاپوريتو ، ورغم الانقسام الداخلى فيها بخصوص الحرب ، إلا أن أورلاندو Orlando رئيس الوزراء تمكن من الحصول على تأييد العناصر المنادية بالحرب .

أما الولايات المتحدة الأمريكية ، وعلى رأسها الرئيس ولسن فقد عملت

جاهدة على إنقاذ الحلفاء فى أقصر وقت ممكن ، وعلى تسخير جهودها لنصرة الديمقراطيات فى العالم .

وفى ١٨ يناير ١٩١٨ حدد الرئيس ولسن فى رسالته إلى مجلس الشيوخ الأمريكى الأهداف التى ترمى الولايات المتحدة إلى تحقيقها لاقرار السلام فى المستقبل، وهى ما أطلق عليها اسم المبادىء الأربعة عشر ، وهذه المبادىء تتضمن أسسا عامة؛ أهمها حرية الملاحة فى البحار وتخفيض السلاح على أن يحل محل ذلك إقامة عصبة الأمم لتأمين السلم العالمى ، وكذلك القضاء أو التخفيف من القيــــود الاقتصادية ، وكذلك القضاء أو التخفيف من القيود الاقتصادية ، وكذلك القضاء على المعاهدات السرية بين الدول . وهناك مبادىء خاصة تتعلق بتسوية المشاكل التى سببتها الحرب . إلا وهى إعادة الالزاس واللورين إلى فرنسا ،وتسوية قضايا دول البلقان بالطرق الودية مع مراعاة المصالح القومية كأساس لتلك التسوية ، وكذلك الإعتراف بإستقلال بلجيكا ، وتكوين الدولة البولونية المستقلة على أن يراعى فى تشكيلها إيجاد منفذ لها على بحر البلطى . وكذلك الاعتراف بالقوميات التى كانت تتكون منها الامبراطورية النمساوية المجرية ككيانات لها حق النمو . ومعنى هذا أن المبادىء الأربعة عشر قد تضمنت حق تقرير المصير كأساس عادل لصلح دائم .

ورغم انضمام الولايات المتحدة إلى انجلترا وفرنسا فى الحرب إلا أن توحيد القيادة بين الجيوش الثلاثة الانجليزية والفرنسية والأمريكية لم يتحقق خلال تلك السنة ، وقد تشاور الحلفاء فيما بينهم على فتح جبهة فى أوربا لتخفيف الضغط على الجبهة الغربية ولإرغام ألمانيا على تحويل جزء من قواتها إلى تلك الجبهة الجديدة . ولقد فكروا فى ذلك الوقت فى فتح جبهة فى سالونيك وكان لانجلترا وفرنسا

قوات حربية فيها، ولكن اعترض طريق تنفيذ هذه الفكرة انتصار الحلفاء فى ذلك الوقت إلى العدد الكافى من البواخر لنقل الجنود والمعدات الحربية إلى هذه الجبهة

ثم طرح على بساط البحث مشروع آخر يقضى بتعاون القوات اليابانيـة مع القوات الانجليزية والفرنسية للقيام بحمله على سبيريا لإشعار الألمان بالخطر الذى يتهددهم من ناحية الشرق ، وبذلك يبقون على جزء كبير من قواتهم فى الجبهة الشرقيـة

كانت خطة لودندورف هى القيام بضربة قاصمة لتجمعات القوات الانجليزية والفرنسية تمكنه من شطر تلك القوات إلى شطرين على أساس الهجوم بكل قواته وبكل مدفعيته على جبهة طولها ثلاثة وأربعون ميلا ، وأن يستمر الضرب بصفة متصلة إلى أن تتمكن القوات الألمانية من إيجاد ثغرة لها فى صفوف العدو وتستطيع أن تنفذ منها إلى قلب فرنسا. وقد نفذ ذلك فى ١٠ مارس ١٩١٨ ،فتمكنت القوات الألمانية من القضاء على الجيش الانجليزى الخامس بقيادة الجنرال جوف Gough وبذلك أصبح الطريق مفتوحا أمامها صوب مدينة أميان Amiéns .

ولقد تمكن الجيش الألمانى أن يفصل بالفعل بين الجيشين الفرنسى والانجليزى، وكان على هذين الجيشين سد هذا الفراغ بأسرع ما يمكن حتى لا يتيحا للعدو فرصة الدخول الى قلب فرنسا . ولقد أبطأ الجيشان الانجليزى والفرنسى فى سد الثغرة بعض الوقت مما أتاح للعدو فرصة النيل من الجيشين على السواء . ولكن الجيش الألمانى لم يستمر فى مهاجمته بالقوة الأولى، نظراً لحدوث تغيير أساسى من خطته الحربية، فقام بالهجوم على جبهات متعددة، فهاجم الانجليز فى منطقة ايرس (٩ -٢٩ أبريل) ، وكذلك هزموا الفرنسيين هزيمة ساحقة فى شمان دى دام

Chemins des dames . ولكن كل تلك الهجمات لم تكن بذات فائدة كبيرة لانها لم تستطع أن تدحر قوات الحلفاء أو أن تقضى على تحصيناتهم فى الجبهة الغربية. بل لقد كبدت الالمان خسارة فادحة .

على أن ما أصاب الجيش الانجليزى الخامس من هزيمة ساحقة قد أقنع الانجليز والفرنسيين بضرورة توحيد قيادتهم لمواجهة العدو فى معركة فاصلة وقبل الانجليز تعيين الجنرال فوش Foch الفرنسى قائدا عاما لقوات الحلفاء ويعاونه الضابط الفرنسى فيجان Weygand كرئيس لهيئة أركان حربه . والى جانبه الجنرال ولسون رئيس هيئة أركان حرب الجيش البريطانى ، صديق الجنرال فوش . وبهذه القيادة المتعاونة القديرة بدأ الحلفاء صفحة جديدة فى الحرب . وظهر تفوقهم على أعدائهم ، خصوصا بعد أن بدأت الفرق الأمريكية تفد على ميدان القتال وتحتل أماكنها إلى جانب شركائهم . وتمكن الجنرال فوش من إعادة تنظيم قوات الحلفاء وتنسيق التعاون فيما بينها .

وفى ٩ أبريل ١٩١٨ عاود الالمان هجومهم للمرة الثانية على الجبهة الغربية الممتدة من أرمانتيير Armentières الى لاباسيه La Bassée بقصد الوصول إلى موانى بحر المانش وهى بولونى Boulogne وكاليه، ورغم ما أصاب القوات الانجليزية التى تصدت للعدو من خسائر إلا أن القوات الفرنسية والانجليزية الاخرى هبت لنجدتها فى الوقت المناسب وفوتت على الجيش الالمانى الوصول إلى أهدافه ، وبذلك انكسرت حدة الهجوم الألمانى الثانى وتوقفت .

عاود الألمان بعد فترة من الوقت زحفهم الثالث فى ٢٧ مايو ١٩١٨ على جبهة شمال نهر الأين حيث تتركز أربع فرق انجليزية ضعيفة والى جانبها ثلاث فرق فرنسية أخرى، والتى الالمان بثلاثين فرقة، أى بأ كثر من أربعة أمثال القوات الفرنسية

والانجليزية . وحملت تلك القوات على جبهة الحلفاء حملة صادقة مزقت شملها ودفعت بقوات الألمان جنوبا الى نهر المارن. واستطاع الالمان بهذه العملية أن يتوغلوا حوالى ستين كيلو مترا . ومع ذلك لم يتمكنوا من إحراز نصر حاسم على أعدائهم .

وفى ٢٥ يوليو قام الجيش الالمانى بهجومه الرابع على الجيش الفرنسى فى الشامبانى Champagne ، على أن تساندها فى نفس الوقت القوات الألمانية الموجودة على نهر المارن وكانت القيادة الفرنسية على علم بهذا الهجوم فاستعدت له ، ووضعت خطة حربية للقيام بحركة مضادة لشل زحف الجيش الالمانى. ونجح الجنرال الفرنسى مانجان Mangin فى إرغام الالمان على التراجع .

وكان من الطبيعى أن يثير انتباه ساسة المانيا عجز قواتها العسكرية عن الوصول إلى حل رغم الانتصارات التى أحرزتها . وأيقنت فى نفس الوقت أن المانيا التى فشلت فى إرغام أعدائها على التسليم قبل نزول القوات الأمريكية بكامل عددها إلى الميدان ، لن تستطيع بحال من الاحوال أن تحصل على النصر بعد أن يتم ذلك . ومن ثم بدأت بعض الأصوات الحكيمة التى تقدر خطورة الموقف وسوء المصير تنادى بضرورة الوصول إلى حل بالطرق الدبلوماسية ، وأن الحصول على كل شىء أمر غير ممكن فى ظروف المانيا الحالية . وعلى رأس هؤلاء كوهلمان Kühlmann وزير الخارجية الألمانية الذى صرح بذلك فى الخطاب الذى ألقاه فى مجلس الريشتساج فى ٢٤ يونيه ١٩١٨ .

ولكن هذا الرأى الصائب الذى كان من المتحمل أن ينقذ المانيا من الدمار الشامل قد ضاع أمام سيطرة لودندروف وتعنته . بل لقد ذهب به الغضب إلى حد عزله من الوزارة .

هزيمة المانيا وحلفائها

وعندما توافرت لدى الحلفاء القوات الحربية المطلوبة ، لا سيما بعد أن ارسلت الولايات المتحدة الأمريكية سبعة وعشرين فرقة حربية إلى ميدان القتال ، انقلب موقف الدفاع إلى هجوم . منتهزين فرصة سوء الأحوال الاقتصادية فى المانيا ، انحطاط معنويات جيشها ، ويأسه من إحراز النصر . وكانت خطة الجنرال فوش ترمى إلى اتخاذ نفس الأسلوب الالمانى الأول فى الهجوم ، وهـو القيام بعدة ضربات على جبهات مختلفة لتشتيت قوى العدو ، استعداداً لهجوم عام شامل للإجهاز عليه .

بدأ هذا الهجوم مع شهر أغسطس ١٩١٨ ، وكان عنيفاً قاسياً ، ولا سيما يوم ٨ أغسطس الذى أطلق عليه لودندورف « اليوم الاسود » ، إذ تمكنت القوات الانجليزية بقيادة هايج من هزيمة الالمان قرب أميان ، وأسر حوالى عشرين الف جندى ، بعد أن تخلى الالمان عن مواقعهم الأصلية . وذلك بفضل تفوق الحلفاء فى سلاح الدبابات ، ووفرة ماالديهم منها . ومنذ تلك المعركة أحس لودندورف بأن أمل المانيا فى الانتصار قد ضاع إلى الأبد . وقد صرح بذلك إلى القيصر الالمانى الذى أبدى رغبته فى إنهاء الحرب والمانيا مازالت تقف على أقدامها ، وقبل أن تخر صريعة . ولكن هذه الرغبة لم تعززها مساع حقيقية ، بل ظل رجال الحرب الالمان يحدوهم الأمل فى استطاعتهم إيقاف هجمات الجنرال فوش . وفى ذلك الوقت يتقدمون بطلب الصلح وما زالت أقدامهم على الأرض الفرنسية . وفى ٢٥ سبتمبر قام الجنرال فوش بثلاث هجمات على أرجون وسان كنتان والفلاندر فى وقت واحد .

ولم يقتصر الأمر على المانيا فحسب ، بل توالت النكبات عليها من كل

جانب ، فانهارت جبهة سالونيك وهزمت قوات بلغاريا ، وتراجعت على طول الخط . كما استطاعت القوات الانجليزية أن تجتاح الشام كله وأن تدخل دمشق وأن تدفع بالقوات العثمانية داخل حدود شبه جزيرة الأناضول .

وبدأت بعد ذلك قوات حلفاء المانيا تتساقط كأوراق الخريف ، و أولها قوات بلغاريا التي وجدت أن من صالحها - بعد أن ايقنت من هزيمة المانيا - أن تبادر بطلب الهدنة ، فربما ساعدها ذلك على الحصول على شروط صلح أفضل مما لو استمرت إلى نهاية الحرب لتلقى نفس مصير المانيا . هذا من وجهة أخرى فإن بلغاريا رغم دخولها الحرب مع المانيا إلا أنها لم تقطع علاقتها الدبلوماسية مع الولايات المتحدة . وكان نزول القوات الأمريكية ميدان القتال حافزا لها على استرضاء الولايات المتحدة . وأخيراً كانت بلغاريا يائسة من استجابة المانيا لمطالبها الاقليمية ، لا سيما في منطقة دوبروجا . لكل هذه الأسباب، طلبت بلغاريا الهدنة في ٢٦ سبتمبر ١٩١٨ ، ووقعت عليها في ٢٩ من نفس الشهر ، وتنص شروطها على النقاط التالية:

أولا : تسريح الجيش البلغاري في الحال ، وتسليم اسلحته وعتاده .

ثانياً : أن تحتل قوات الحلفاء مراكز استراتيجية معينة داخل بلغاريا فيما عدا العاصمة .

ثالثاً : طرد جميع الألمان من أراضيها .

وقد كشف تسليم بلغاريا جبهتي تركيا والنمسا ، ولهذا سارعت تركيا بطلب الهدنة . بينما كان اقتراب قوات الحلفاء من الحدود النمساوية نذيراً للقوميات التي تكونت منها الدولة كي تهب للاستقلال . وبذلك يتحقق للحلفاء تمزيق أوصاله

الامبراطورية النمساوية التي بذلت جهوداً مضنية عشرات السنين لتكوين أمة واحدة من الأقليات القومية الخاضعة لحكمها ، ولكنها لم تفلح .

وقد انهارت قوى الامبراطورية النمساوية قبل خوض المعركة الفاصلة ، نتيجة تصريحات الرئيس الأمريكي ولسن التي أوضح فيها عطف أمريكا على تحقيق الأماني القومية لتلك الأقليات . وبناء على ذلك فالأقليات التي كانت ممثلة في الجيش النمساوي مثل العناصر السلافية واليوغوسلافية والتشيكية لم تجد لها مصلحة في الدفاع عن كيان الامبراطورية ، بل العكس هو الصحيح . ولذا عندما هاجمت القوات الايطالية النمسا لم تجد أمامها سوى جيش منهار معنويا ، أغلبيته ليست حريصة على القتال بقدر حرصها على تسليم أسلحتها طلبا للنجاة .

وأمام هذا الموقف الخطير لم تجد الدولة النمساوية مناصا من طلب الهدنة والتوقيع عليها في فيلا جيوستي Villa Giusti في ٣ نوفمبر ١٩١٨ .

أما المانيا التي ظلت تقاوم بعناد تحت قيادة لودندورف اقتنعت في شهر سبتمبر ١٩١٨ بأن مواصلة القتال أمر بعيد الاحتمال ، وأن عليها أن تقبل الامر الواقع وأن تسلم كما سلمت حليفاتها من قبل ، لا سيما وأن الرئيس ولسن قد وضع أسسا عادلة للصلح في مبادئه الاربعة عشر لاترى ألمانيا بأسا من قبولها . وكان من الطبيعي أن تسقط وزارة الحرب الالمانية لتحل محلها وزارة جديدة تتولى الدخول في مفاوضات لطلب الهدنة والصلح . وبالفعل تولى الأمير ماكس بادن Max von Baden الحكم وأخذ على عاتقه مفاتحة الولايات المتحدة في أمر الهدنة والصلح في ٤ أكتوبر ١٩١٨ . ولكن الأخيرة اشترطت للدخول في مفاوضات الصلح أن تقوم في المانيا حكومة تتمتع بثقة الشعب الالماني وتمثله تمثيلا صحيحا . فقبلت الحكومة الألمانية ووقع وفدها شروط الهدنة في روتوند Rethondes في

١١ نوفمبر ١٩١٨ ، وهى تنص على تسليم الالمان لكل أسلحتهم من برية وبحرية وجوية ، وكذلك السكك الحديدية والانسحاب عن كل الأراضى التى استولوا عليها . ولم يكن هناك بد من قبول كل تلك الشروط دون مناقشة

حدث هذا فى الخارج ، أما فى داخل ألمانيا فقد طالب الاشتراكيون بضرورة تنازل القيصر غليوم الثانى عن العرش . وقد حاول القيصر المقاومة بالزحف بقواته على العاصمة ، ولكنه لم يستطع لرفض ضباط الجيش ذلك . وأخيراً اضطر مرغما إلى التنازل .

وقد قيل بأن الاشتراكيين قد طعنوا الدولة من الخلف ، وأن الجيش الألمانى سلم تحت ضغط هؤلاء ولكنه لم يهزم . وحقيقة الأمر سواء قام الاشتراكيون بخلع القيصر أم لم يقوموا ، فقد كانت ألمانيا تسير بخطى واسعة إلى مصيرها المحتوم ، وأنه لو تمكن الجيش الالمانى الصمود بعض الوقت ، فلم يكن يستطيع ذلك إلى النهاية ، لا سيما وأنه قد قلت موارده بعد تسليم حلفائه ، بينما موارد أعدائه فى زيادة مستمرة. فالوقت إذاً لم يكن فى صالح ألمانيا ، فخير لها أن تسلم إنقاذاً لها من الدمار الشامل ، كما حدث فى الحرب العالمية الثانية عندما ركب هتلر رأسه وأصر على موقفه المتصلب حتى أتى على ألمانيا وقضى عليها قضاءاً تاما .

الفصل الثاني عشر

معاهدات الصلح

أحدث إعلان الرئيس الأمريكى ولسن النقط الأربع عشرة الشهيرة فى ٨ يناير سنة ١٩١٨ دويا فى العالم ولا سيما لدى الفريقين المتحاربين . وقد اعترف الألمان بأن هذه النقط هى التى قضت عليهم لأنها شجعتهم على التسليم قبل أن تهزم ألمانيا هزيمة كاملة على يد أعدائها ، وذلك طمعا فى صلح مشرف مع الحلفاء

وكانت هذه النقط مبينة لوجهة نظر ولسن فيما يجب أن يكون عليه السلام فى أوربا بعد الحرب . ولقد أصدر الرئيس هذه النقط بعد أن اطلع على معاهدات الحلفاء السرية بحيث تكون صالحة فى حالة انتصار الحلفاء أو هزيمتهم ، أو فى حالة عقد صلح وسط بينهم وبين ألمانيا [١] .

وأهم المبادىء التى اشتملت عليها تلك النقط هى : العمل من أجل السلام وتخفيض السلاح ، وتسوية المشاكل الاستعمارية بما يحقق العدالة وحرية البحار، ورفع الحواجز الاقتصادية ، وصراحة المعاهدات ، وإنشاء عصبة الأمم .

ثم زيد على تلك المبادىء مبدأ آخر هام ينص على احترام حقوق الشعوب ، بحيث لا تصبح تلك الشعوب سلعة تباع وتشترى على موائد السياسة . كما أشارت أيضا إلى ضرورة تعديل الحدود بين الدول عن طريق التراضى واحترام قانون الجماعات المتمدنية .

---

(١) د. محمد محمود السروجى . سياسة الولايات المتحدة الخارجية ص ١٢٦

وقد اختلف الكثيرون فى تفسير هذه النقط ، وذهبوا فى شأنها مذاهب شتى، فقد نعتها البعض بأنها ليست سوى مصيدة ، وأن الرئيس ولسن لم يفكر فى تطبيقها بصفة جدية . ولكن أصحاب هذا الرأى مخطئون، فلقد تضمنت معاهدات الصلح ، وخاصة معاهدة فرساى ، عدداً من هذه النقط . وكان الرئيس ولسن حريصا على إعلانها قبل نهاية الحرب لتكون أساسا عادلا لتسوية المشاكل التى ستتخلف عن الحرب ، ولتمهد بذلك لفترة سلام طويلة الأمد . بينما البعض الآخر قد مدحها وقدر أهمية صدورها فى العمل على إنهاء تلك الحرب التى أصابت البشرية بويلات لم تعهدها من قبل .

وعلى أى حال فاذا لم تكن تلك المبادىء قد طبقت تطبيقا صحيحا كما رمى بذلك الرئيس ولسن إلا أنها قد فرضت وجودها على معاهدات الصلح ، وأن الدول القومية التى ظهرت فى أوربا فى أعقاب تلك الحرب إنما يرجع الفضل فى قيامها الى تلك المبادىء .

وقد أشرنا من قبل أن المانيا قد طالبت بالصلح على أساس تلك النقط ، وكان على رأس حكومتها ماكس فون بادن المعروف بأرائه الحرة . وكان نتيجة تمسك ولسن بقيام نظام حكم دستورى فى المانيا كشرط لقبول الصلح أن سقطت أسرة الهوهنزلرن الحاكمة فى المانيا ، كما سقطت بقية الأمراء الألمان .

ولإنشاء سلام جديد يرفرف على أوربا بصفة خاصة ، والعالم بصفة عامة ذهب ولسن بنفسه إلى مؤتمر السلام يحـدوه الأمل فى اقناع ساسة أوربا بصلح عادل قائم على أساس عصبة من الشعوب الديمقراطية المحبة للسلام .

وربما كان خيرا لولسن لو بقى فى الولايات المتحدة وأرسل من ينوب عنه فى المؤتمر، ولكنه أراد أن يواجه ساسة اوربا الكبار من أمثـــال لويد جورج وكليمنصو بشخصيته ونفوذه العالمى وبسطوة الولايات المتحدة . ولكن قوة ولسن لم تكن كما يظن هو أو يظن قرناؤه فى أوربا . ولقد قويت المعارضة لمشاريع الرئيس ولسن أثناء غيابه فى أوربا، وقوى القول بأنه ليس الممثل الحقيقى للولايات المتحدة ، وذلك لرفض بعض الزعماء بأن تزج الولايات المتحدة الأمريكية بنفسها فى مشكلات اوربا فى فترة ما بعد الحرب ، ولمطالبتهم الحكومة الأمريكية بضرورة العودة إلى سياسة العزلة وترك اوربا بأحقادها ومطامعها تفعل ما تشاء .

وإذا نظرنا إلى حالة دول اوربا فى ذلك الوقت نجد أن دول الوسط المنهزمة قد خرجت من الحرب مقطعة الاوصال وفى حالة سيئة ، أما الدول الحديثة التى نشأت فى أواسط أوربا وشرقها فلم تكن قد استقرت بعد، فحدودها كانت غير معترف بها ، ولم تحدد تحديداً دقيقاً ، كما أنها لم تكن على درجة من الكفاية والخبرة بحيث تستطيع أن تحكم نفسها بنفسها . هذا فضلا عن أنها كانت تتكون من عناصر مختلفة لم تكن جميعها على درجة واحدة من الولاء للحكومات الجديدة . زد على ذلك أن دول أوربا المنهزمة قد خرجت من تلك الحرب بعد أن فقدت حوالى ثمانية ملايين من زهرة شبابها فى الحرب ، وما صاحب ذلك من إنتشار الجوع والفقر والأوبئة التى فتكت بعدد مماثل من هؤلاء الشبان .

أما عن معاهدات الصلح فنستطيع القول بأن للزعماء الثلاثة ولسن ولويد جورج وكليمنصو أكبر الأثر فى تشكيل تلك المعاهدات على النحو الذى أتت عليه، كما أن هناك اعتبارات متعددة أملت عليهم نصوصها، وأهمها حقيقة الأمر الواقع

الموجود فى اوربا والذى لا يمكن تجاهله بأى حال من الأحوال .

ولم تكن المشكلة التى واجهت الحلفاء المنتصرين هى فرض شروط الصلح التى تقتضيها على ألمانيا وحلفائها ، فألمانيا كانت أضعف من أن تعارض مطالب الحلفاء ، ولكن المشكلة جاءت من صعوبة إتفاق المنتصرين على الشروط التى يجب فرضها على الالمان وحلفائهم، نظراً لتضارب المصالح بين الظافرين . فمنذ أن انتهت الحرب هبت كل دولة للدفاع عما اعتقدت بأنه مصالح حيوية بالنسبة لها .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فدول الوفاق الثلاثى ، انجلترا وفرنسا وايطاليا ، التى خاضت الحرب فى مرحلتها الاولى لم تتفق مع الولايات المتحدة الأمريكية قبل دخولها الحرب على الشروط التى ستخوض المعركة على أساسها . فاشتركت الولايات المتحدة فى الدور الأخير منها اشتراكا فعالا كان له أكبر الأثر فى إنزال الهزيمة بالاعداء ، وفى وضع نهاية سريعة للحرب . فدور الولايات المتحدة الهام لا يمكن انكاره ، ولهذا لا بد أن يكون لرأيها وزنه فى أية تسوية تعرض على مؤتمر الصلح .

وكان من المسلم به أن تتم التسوية على أساس النقاط الاربع عشرة ، خصوصا أن ألمانيا عندما طلبت عقد هدنة وجهت نداءها إلى الرئيس ولسن معلنة موافقتها على الدخول فى مفاوضات الصلح على الأساس الذى أعلنه فى تلك النقط ، وهو ما لم تقبله دول الوفاق بسهولة إلا بعد أن هددت الولايات المتحدة الأمريكية بعقد صلح منفرد مع ألمانيا إذا لم يقبلوا وجهة نظرهم .

ورغم اتخاذ النقاط الأربعة عشر أساس التسوية إلا أنها لم تكن محددة وواضحة ، فغلب عليها التعميم والابهام ، فتعرضت نتيجة ذلك الكثير من

التأويلات والتفسيرات التى أبعدتها فى بعض الأحيان عن المعنى المقصود. وعندما بدأ تطبيقها على الأوضاع الأوربية فى ذلك الوقت وجدوا أن اسلم السبل لتحقيق الهدف هو مراعاة احترام حقوق القوميات كمبدأ أساسى هام يجب ألا يحيدون عنه .

ولكن هذا المبدأ تعذر تطبيقه بدقة فى أماكن عديدة فى أوربا بالنظر إلى كونها مناطق إختلاط وامتزاج يستحيل معها وضع خط تقسيم معين يفصل بين أجزائها ومن هنا بدأ الاجتهاد فى حل تلك المشاكل بعيداً عن التطبيق الحرفى للمبادىء .

ويحسن بنا قبل أن ندخل فى تفاصيل ما أسفرت عنه معاهدات الصلح أن نبين أوجه الخلاف بين الدول المنتصرة ، والتى يمكن تلخيصها فى اختلاف مفاهيم الدول الخمس الكبرى ، وهى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وايطاليا واليابان فيما يختص بالمبادىء السياسية لمؤتمر الصلح ، وترتب على اختلاف المفاهيم تباين المصالح فيما بينها .

فوجهة نظر انجلترا تنحصر فى نقطتين جوهريتين : الأولى إيجاد نوع من التوازن الدولى ، تتمتع فى ظله دول أوربا بحياة اقتصادية نشيطة تحقق لانجلترا ما ترجوه من تبادل تجارى معها .

والنقطة الثانية هى العطف على ألمانيا ومعاملتها بشىء من التسامح حتى لا تدفعها قسوة المعاملة إلى الارتماء فى أحضان الروسيا الشيوعية .

وفيما عدا هذين المطلبين لم تكن لها أطماع اقليمية فى القارة الأوربية ، وإنما انحصرت فى ميدان الاستعمار .

أما فرنسا فقد تركزت كل جهودها فى نقطة هامة جوهرية ، ألا وهى تحقيق الأمن والضمان لها فى المستقبل . ويكفى لتبرير تلك المخاوف أنها تعرضت للغزو ثلاث مرات فى مدى قرن واحد (١٨١٥ ، ١٨٧١ ، ١٩١٤) فهذه المسألة بالنسبة اليها مسألة حياة أو موت .

أما الولايات المتحدة فقد ظلت بعيدة عن المشاكل الأوربية منذ حصلت على إستقلالها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وظلت الولايات المتحدة حريصة على تحقيق تلك السياسة إلى أن اضطرت إلى خوض الحرب العالمية الأولى دفاعا عن الديمقراطيات الأوربية ، ولاستفحال الخطر الألمانى نتيجة إعتداء ألمانيا على سفن الدول المحايدة ، مما ألحق بها بعض الأضرار . فالهدف من دخولها الحرب تحقيق هاتين النقطتين .

ومن هنا كان كل مايهم السياسة الامريكيين أن يقوم صلح أوربى على أساس المبادىء الاربعة عشر ، يكفل تحقيق العدالة - والإبتعاد بقدر المستطاع عن الحلول الوسط التى تعجز عن إقامة سلام وطيد فى أوروبا - وأن يدعم النظم الديمقراطية ، وأن يحترم الحريه الفردية . وأن يقيم العلاقات بين الدول فى ظل عصبة الامم .

أما اليابان فلم تهتم بالشئون الأوربية ، فكان نشاطها منصرفا إلى منطقة الشرق الاقصى فحسب . وإذا انتقلنا إلى ايطاليا نجد أنها قد خاضت الحرب على أسس محددة تضمنتها معاهدة لندن ١٩١٥ وهى الحصول على ترانتان وايستريا وجزء من ساحل دلماشيا .

وفى نفس الوقت كان على الدول الكبرى أن تستجيب لمطالب الدول والشعوب

الصغيرة التى اشتركت فى الحرب،وكان بينها وبين بعضها خلافات وحزازات قديمة وتعارض فى المصالح، وتصارع حول مناطق معينة . وبعضها كان لا يرى التمسك بحقوق القوميات بل مراعاة الحقوق التاريخية والمصالح الاستراتيجية والاقتصادية وإعطائها الأولوية فى تسوية تلك الأمور .

أضف إلى ذلك صعوبة التوفيق بين أمزجة وميول رؤساء الدول التى اشتركت فى مؤتمر الصلح ، وإذا قلنا رؤساء الدول فإنما نقصد بذلك رؤساء الدول الخمس المتحالفة وهى انجلترا وفرنسا وايطاليا والولايات المتحدة واليابان الذين أطلق عليهم اسم « مجلس الخمسة » ولو أن اليابان لم تقم بدور رئيسى فى التسوية ، فاقتصر العمل على « مجلس الأربعة » الذى كان يبت فى كل ما يعرض عليه من أمور فى جلسات سرية . وهذه الجلسات كانت ميدانا فسيحا يصول فيه هؤلاء الرؤساء ويجولون طبقا لاستعدادهم الشخصى .

وإذا تناولنا شخصيات رؤساء تلك الدول بشىء من التحليل نجد أن الرئيس ولسن كان يشعر بتفوقه المعنوى ، ولكن صفة الاستاذ الجامعى [1] ظلت متغلبة عليه ، فكان ينظر إلى المبادىء أكثر مما ينظر إلى حقيقة الأمر الواقع . وهذا الاتجاه حجب عن عينيه حقيقة الأوضاع السياسية فى اوربا .

أما كليمنصو ممثل فرنسا فقد عرفته بلاده مناضلا كبيراً، وعرفته مقاعد المعارضة فى البرلمان الفرنسى كمعارض لا تلين له قناة وكان حاد الذكاء، متحمسا لآرائه ، عنيفا فى مناقشاته وفى تهجمه على رؤساء الدول ، سخر من المبادىء وكان يؤمن بالواقعية وبالمصلحة قبل كل شىء .

---

(١) كان ولسن أستاذا للعلوم السياسية .

أما ممثل انجلترا لويد جورج فقد اشتغل بالمحاماة ، وعرك الحياة البرلمانية ، وتولى مناصب سياسية كثيرة ، فغلبت عليه الصفة السياسية . ولكن مما يؤخذ عليه تردده وتقلبه فى أحيان كثيرة استجابة للرأى العام الانجليزى .

أما ممثل ايطاليا اورلاندو ، فرغم ثقافته الممتازة ، لم يكن له أى أثر فى توجيه سير المناقشات .

كان الخلاف شديداً بين فرنسا من ناحية وانجلترا والولايات المتحدة الامريكية من ناحية أخرى ، بشأن مطالب فرنسا فى ضم منطقة السار . وكذلك حدثت مشاورات حادة بين ايطاليا والولايات المتحدة بشأن مطالب الأولى فى البحر الادرياتى . كما ثار خلاف حول مقاطعة شانتونج الصينية التى كانت تابعة لألمانيا ، فقد وعدت كل من فرنسا وانجلترا اليابان بمنحها تلك المقاطعة إذا ما دخلت إلى جانبها الحرب . وعارضت الولايات المتحدة ذلك بحجة أن المنطقة صينية ويجب أن تعود إلى الصين . ولكن نظراً لحرج موقف انجلترا وفرنسا وافقت الولايات المتحدة مضطرة على مطالب اليابان .

أشرنا من قبل كيف أدى تدخل الولايات المتحدة إلى إنهاء الحرب طبقاً لمبادىء الرئيس الأمريكى ولسن ونتيجة قبول ألمانيا التسليم للحلفاء على أساس تلك المبادىء ، فوقعت الهدنة بين ألمانيا وبين ممثل الحلفاء فى ١١ نوفمبر ١٩١٨ ، وأهم ما تضمنته من شروط هى :

أولا : انسحاب جميع القوات الألمانية من كل المناطق التى احتلتها إلى ما وراء الضفة الشرقية لنهر الراين .

ثانياً : تسليم ألمانيا لأسطولها ومعداتها الحربية .

ثالثاً : وضع خطوطها الحديدية الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الراين فى خدمة قوات الحلفاء .

رابعاً : إطلاق سراح جميع الأسرى المعتقلين لدى ألمانيا .

خامساً : إلغاء معاهدتى برست ليتوفسك وبوخارست المعقودتين مع ألمانيا من ناحية والروسيا ورومانيا من ناحية أخرى.

معاهدات الصلح

تمت تسوية مشكلات الحرب فى معاهدات عدة هى معاهدة فرساى ، ومعاهدة سان جرمان ، ومعاهدة تريانون ، ومعاهدة نوبى ، ومعاهدة سفر . ويهمنا فى هذا المقام أن نبين أثر تلك المعاهدات على الجانبين المتحاربين أولا ، ثم أثرها بعد ذلك على أوربا بصفة عامة والعالم بصفة خاصة.

فإذا تناولنا ألمانيا ، تلك الدولة التى كانت إحدى الدول التى أثارت الحرب، والتى دوخت الحلفاء وكبدتهم خسائر فادحة ، نجد أن وطأة تلك المعاهدات كانت شديدة عليها . فأولا خسرت جزءاً من سكانها ومساحة واسعة من الأرض كانت من نصيب أعدائها ، أو لخلق دول اوربية جديدة . فانتزعت فرنسا منها الألزاس واللورين ، وبلجيكا أوبن ومالميدى ، وبولونيا أخذت بوسنانيا وبوميريليا لتطل على بحر البلطى ، وكذلك منحت مدينة دانتزيج على هذا البحر لتكون منفذاً لها ، واعتبرت مدينة حرة .

كذلك أخذت الدنمرك شمال شليزفيك وخسرت ألمانيا جزءاً من سيليزيا بناء على استفتاء سكانها .

ثانيا : أن تقوم ألمانيا بدفع تعويضات عن كل الخسائر التى منى بها الحلفاء

نتيجة عدوان ألمانيا ، وإن لم تحدد معاهدة الصلح مقدارها ، نظراً لإختلاف وجهات نظر الدول المتحالفة بشأنها ، فقدرتها اللجنة الفنية البريطانية التى شكلت لهذا الغرض بأربعة وعشرين ألف مليون جنيه . وهذا المبلغ كان بطبيعة الحال خيالى ولا يمكن لألمانيا أن تتحمله . ولما لم تصل الأطراف المعنية بالأمر إلى حل لهذا الموضوع ، لم تحدد قيمة التعويضات فى معاهدة فرساى ، وتركت هذه المسألة إلى مفاوضات مقبلة .

ولم تطل مدة المفاوضات فقد كان من صالح حكومة الجمهورية فى ألمانيا أن تستقر على وضع معين ، كما كان أيضاً من صالح انجلترا أن تنهض ألمانيا إقتصاديا وأن تكون راضية عن التسوية ، حتى لا تثير حرباً فى المستقبل للانتقام من أعدائها . وكذلك كانت الولايات المتحدة تهدف إلى تخفيف وطأة التعويضات عن ألمانيا ، لا سيما وأنها قبلت إنهاء الحرب طبقاً للمبادىء الأربعة عشر .

لكل هذه الأسباب انعقدت مؤتمرات متعددة للوصول إلى مبلغ معين تستطيع ألمانيا دفعه دون إرهاق ، وفى نفس الوقت يتفق مع مصالح الحلفاء ، وقد حدد هذا المبلغ بما يزيد قليلا عن ألفى مليون جنيه ، وذلك فى مؤتمر لوزان فى ١٦ يونيه ١٩٢٣ .

ثالثاً : أن يتولى الحلفاء احتلال منطقة الراين لمدة خمس عشرة سنة ، ضماناً لتنفيذ ألمانيا ما فرض عليها من شروط ، مثل دفع التعويضات ونزع السلاح . على أن تنسحب قوات الحلفاء تدريجيا ، وبصورة جزئية كل خمسة أعوام .

رابعاً : تحديد قوة ألمانيا العسكرية بما لا يزيد عن ١٠٠,٠٠٠ جندى يتم جمعهم عن طريق التطوع ، بعد إلغاء التجنيد الاجبارى . على ألا يزود هذا الجيش بأسلحة ثقيلة أو بسلاح للطيران .

خامسا : نزع سلاح الضفة اليسرى لنهر الرين ، وكذلك منطقة أخرى تمتد على الضفة اليمنى لهذا النهر بطول ٥٠ كيلومترا ، تأمينا لسلامة فرنسا وبلجيكا .

أما الدولة الثانية وهى الامبراطورية النمساوية المجرية ، فقد خسرت أجزاء واسعة من أراضيها ، فنظراً لاشتمالها على عناصر مختلفة ، ونظرا لان مبادىء الرئيس الامريكى ولسن كان عاملا على تقويض امبراطوريتها، عندما اعترف بحق هذه القوميات فى النمو وفى تقرير مصيرها بنفسها، فقد انسلخت منها بولونيا النمساوية وضمت إلى الدولة البولونية الجديدة . كما انتزعت منها بولونيا أقاليم ترانسلفانيا والبوكوفين . وكذلك ضمت يوجوسلافيا أجزاء أخرى . وبذلك تضاءل حجم النمسا وقل عدد سكانها بحيث أصبح لا يزيد عن ستة ملايين نسمة . وفقد المجريون ثلثى أراضيهم .

وإذا انتقلنا الى الدولة الثالثة وهى الامبراطورية العثمانية فقد حددت معاهدة سفر فى أغسطس سنة ١٩٢٠ مصيرها ، وجعلتها دولة أسيوية فحسب ، وليس لها فى الشاطىء الاوربى سوى القسطنطينية وما يحيط بها من أراضى . أما شبه جزيرة الاناضول ، فلم تصبح خالصة للاتراك ، فأعلن الحلفاء استقلال أرمينيا دون بيان لحدودها . وكذلك وضعت ايطاليا يدها على منطقة فى جنوب شبه جزيرة الاناضول فى أضاليا .

أما اليونان فقد احتلت منطقة أزمير والمناطق المجاورة لها بصفة مؤقتة إذلالا لتركيا ، وكذلك منحت جزر بحر ايجة .

وفى المشرق العربى استطاعت فرنسا وانجلترا ان تحققا أطماعها فى تلك المنطقة بمقتضى اتفاقية سان ريمو ، فوضعت انجلترا يدها على العراق وفلسطين وشرق الأردن . وانتدبت حليفتها فرنسا على سوريا ولبنان كبلدين منفصلين .

أما منطقة المضايق (البوسفور والدردنيل) التى كانت تتمتع بوضع دولى خاص بمقتضى اتفاقية سنة ١٨٤١ ، قد وضعت تحت إشراف دولى لوضع التدابير اللازمة لحرية المرور دون تدخل من الدولة التركية .

أما عن بلغاريا فقد تضاءل حجمها نتيجة انتزاع أجزاء منها ضمت الى اليونان. وقد أصبح توسع اليونان حائلا بينها وبين الوصول الى بحر ايجة ، لإيجاد منفذ لها على البحر .

أما اليابان التى لم يكن لها دور فعال فى الحرب الى جانب الحلفاء ، اللهم إلا القيام ببعض العمليات الحربية البسيطة فى الشرق الأقصى ، حيث استولت على ممتلكات ألمانيا فى اقليم شان تونج ، فقد منحت جزر شمال المحيط الهادى وهى مارشال وماريان وكارولينا • بالإضافة الى كياوشاو وشبه جزيرة شان تونج .

وأخذت ايطاليا ايستريا وجنوب التيرول ، وساحل دالماشيا وشاطىء الادرياتى. كما استولت بلجيكا على أوبن وماليدى، وفرنسا على الألزاس واللورين.

أما الروسيا التى خرجت من صفوف الحلفاء بعد ثورة عام ١٩١٧، وعقدت صلحا منفردا مع ألمانيا فى معاهدة برست - ليتوفسك (مارس ١٩١٨)تنازلت بمقتضاه عن الأراضى المطلة على بحر البلطى، وكذلك ليتوانيا وكورلاند وليفونيا والأراضى البولونية ، فلم تسترجع تلك الأراضى فى معاهدات الصلح .

تناولت معاهدات الصلح دول شرق أوربا ووسطها وجنوبها بالكثير من من التعديل . فظهرت الى الوجود دولة جديدة هى تشكوسلوفاكيا تضم ١٢ مليونا من عناصر مختلفة ، أكثرها عددا هم التشيك الذين يبلغون ستة ملايين نسمة ، ثم يليهم السلوفاك الذين يقدرون بثلاثة ملايين . بالإضافة إلى ثلاثة ملايين ألمانى

فى منطقة السوديت ، و ٧٠٠,٠٠٠ مجرى فى المناطق الجنوبية المتاخمة للمجر ، و ٤٠٠,٠٠٠ أكرانى أو روتينى فى روسيا الجنوبية .

وقد تكونت هذه الدولة نتيجة الجهود التى قام بها اثنان من المجاهدين أحدهما سلوفاكى ويدعى مازاريك Masaryk ، والآخر تشيكى ويدعى بنيش Benés فبفضل تعبئتهما لشعور مواطنيهما أن أصبحت قضية التشيك والسلوفاك تلقى عناية الدول التى اجتمعت فى مؤتمر فرساى . كما أدى انسحاب الجنود التشيك من صفوف الجيش النمسوى أثناء القتال إلى انهزام الامبراطورية النمسوية المجرية.

وكانت نقطة الضعف فى هذه الدولة وجود العنصر الألمانى والمجرى والروتينى.

كذلك ظهرت بولونيا مرة ثانية الى حيز الوجود ، فانضمت الأجزاء الثلاثة التى كانت مقسمة اليها ، وهى بولونيا الروسية ، وبولونيا النمسوية ، وبولونيا الروسية وتكونت الدولة الجديدة .

وظهرت أيضا يوجوسلافيا الى الوجود كدولة تضم ١٤ مليون نسمة وتشتمل على الصرب وكرواتيا والجبل الأسود وشمال مقدونيا وبانات تيميسفار .

كان هذا هو الحل الذى توصل اليه الحلفاء بشأن الأوضاع فى القارة الأوربية. أما خارج أوربا ، ولا سيما فى القارتين الآسيوية والأفريقية فكان لالمانيا مستعمرات يجب البت فيها ، واستقر الرأى على توزيعها على بعض الدول تحت اسم الانتداب، فأخذت انجلترا أفريقية الشرقية ومستعمرات المانيا فى أفريقية الجنوبية الغربية ونصف توجولند . واستولت فرنسا على الكامرون والنصف الآخر لتوجولند . كما وضعت بلجيكا يدها على أجزاء من أفريقيا الشرقية ، وكذلك عهد الى أستراليا بغينيا الجديدة و نيوزيلندا وجزر جنوب المحيط الهادى

أما اليابان فقد أخذت ممتلكات المانيا فى الشرق الأقصى كما سبق أن ذكرنا . هذا فضلا عن تقسيم المستطيل العربى الممتد من العراق شرقا إلى ساحل البحر المتوسط غربا ، ومن جبال طوروس شمالا إلى شمال صحراء العرب جنوبا فيما بين انجلترا وفرنسا .

نقد معاهدات الصلح .

وجهت الى معاهدات الصلح انتقادات عديدة ، ولن ندخل فى حسابنا بطبيعة الحال الانتقادات التى وجهت اليها من الدول المهزومة ، فهى من وجهة نظرها مليئة بالأخطاء ، ولكننا سنهتم بالنقد الذى وجه اليها من أناس محايدين ، وبما أثبتته الأيام من صلاحية بعض تلك التسويات وفشل البعض الآخر .

وأولى تلك الانتقادات هى أن التسوية التى اتخذت المبادىء الاربعة عشر أساسا لحلول عادلة ، والتى اعترفت بحق تقرير المصير لكل الشعوب ، والتى نجحت فى تخليص عدد كبير منها من نير الحكم الأجنبى ، مثل البولونيين الذين تحرروا من سيطرة الروسيا وبروسيا والنمسا ، والتشكيين واليوجوسلافيين من النمسا ، والالزاسيين واللورينيين والدنمركيين من المانيا،قد وضعت شعوبا أخرى كأقليات قومية جديدة . أى أنها قد تخلصت من مشكلة قديمة بخلق مشكلة جديدة من نفس النوع .

مثال ذلك تشكوسلوفاكيا التى ضمت أقليات المانية بلغ عددها ثلاثة ملايين نسمة ، وأقلية مجرية وصل تعدادها إلى ٧٠٠,٠٠٠ مجرى . وكذلك الحال فى بولندا التى اشتملت على مليونين من الألمان ، وثلاثة ملايين من الروتينيين . كما ضمت ايطاليا عناصر من السلوفيين .

ويمكننا تطبيق هذا أيضا على رومانيا ويوجوسلافيا ، فاذا نظرنا إلى هذه

المثالب فى ضوء حق تقرير المصير، وحقوق القوميات لوجدنا أن معاهدات الصلح كانت بعيدة عن الكمال . ولكننا فى نفس الوقت نعترف بأن الضرورات تبيح المحظورات . فقد كان للضرورات السياسية أهمية فى بعض الأحيان تفوق حقوق القوميات . ولنتخذ من الألمان مثلا ، فاذا سمح للألمان الذين يعيشون فى السوديت والألمان الموجودين فى النمسا بالانضمام إلى ألمانيا لأصبحت ألمانيا بعد الحرب أقوى منها قبلها ، وهذا لم يدر بخلد المنتصرين بطبيعة الحال .

كذلك ارتكبت مخالفات ضد مبدأ حقوق الأقليات لأسباب اقتصادية أو استراتيجية تأمينا لحدود الدول المنتصرة .

وعلى أى حال فحقوق القوميات قد روعيت فى أوربا طبقا لتلك المعاهدات بشكل يدعو إلى التفاؤل ، فقد انخفض عدد الأقليات القومية التى تخضع لدول أجنبية فى أوربا من ستين مليون نسمة قبل الحرب العالمية الأولى الى ثلاثين مليونا بعد انتهائها .

ولكن إذا كانت هناك ضرورات دعت الى تجاهل حقوق بعض القوميات فى أوربا تدعيما للسلام والأمن فى أوربا ، فما هى الضرورات التى حتمت على هذه الدول تجاهل القومية العربية تجاهلا يكاد يكون تاما ، فلم يكن تجاهلها بطبيعة الحال راجع إلى دوافع تتعلق بالسلام أو الأمن أو أى شىء آخر سوى تحقيق المطامع الاستعمارية على حساب العرب الذين كانوا بالأمس القريب حلفاءا مخلصين.

لقد حصلت كل الدول المنتصرة الكبرى ومن يدور فى فلكها من الدول الصغرى على ما أسمته حقوقا ، فيما عدا العرب، فقد مزقوا شر ممزق . فحقيقة أن معاهدة فرساى كانت أكثر استجابة لحقوق القوميات من معاهدة فينا (١٨١٥) ولكن

اقتصر ذلك على القوميات الاوربية فحسب ، وليس بسائر القوميات التى اشتركت فى الحرب .

ومن العيوب التى وجهت إلى معاهدات الصلح أنها لم تعمل حقيقة على الحيلولة دون الاخذ بالثأر ، فالوضع الدولى فى أوربا قبل الحرب كان يفضل كثيراً وضعها بعده . فقبل الحرب كانت المانيا محاطة من الجنوب بالامبراطورية النمسوية المجرية ، لكن بعدها حل محل تلك الامبراطورية دول صغيرة لا تقو على مقاومة المانيا إذا ما استعادت قوتها .

كذلك لم تقض المعاهدات على قوة المانيا الصناعية ، ولا تغفل مدى الارتباط الوثيق بين القوة الصناعية وإعادة بناء الدولة عسكريا من جديد . ولكن حرص الدول المنتصرة على أخذ تعويضاتها من المانيا دفعها الى عدم المساس باقتصادياتها . وعن هذا الطريق استطاعت المانيا فى ظرف سنوات قلائل من أن تستعيد قوتها من جديد وأن تثأر لنفسها .

وهناك مأخذ آخر على تلك المعاهدات وهو تجاهلها التام للروسيا التى انصرفت فى ذلك الوقت عن الحرب والمؤتمر بتنظيم شئونها الداخلية . فرغم عدم تمثيلها فى المؤتمر إلا أنه كان يجب أن يوضع فى الحسبان عودة الروسيا الى نشاطها الاول بعد الفراغ من الحرب الأهلية ، لا سيما وأن وجودها مهم للتوازن الاوربى . فخلق الدول الصقلبية الجديدة فى أوربا على انقاض الامبراطورية النمسوية كان يحتاج إلى شىء من التدعيم من قبل الروسيا لتلك الدول الناشئة بحكم كونها الدولة الصقلبية الكبرى .

عصبة الامم

ومهما يكن من شىء فإن من أفضل ما تضمنته معاهدات الصلح ، ميثاق عصبة

الامم التى جاهد الرئيس الأمريكى ولسن جهادا عنيفا لإخراجها إلى حيز الوجود ، والتى تعرض بسببها لهجوم خصومه وأعدائه . فولسن نظرا لحرصه الشديد على أخذ موافقة الدول الاعضاء فى مؤتمر السلام على ضم ميثاق العصبة إلى معاهدة فرساى ، بينما كانت تلك الدول تصر على فصل الاثنين عن بعضهما ، أكثر من استرضاء المنتصرين الى درجة تنافت مع بعض المبادىء والنقط التى نادى بها من قبل . ولهذا لم يرض أوربا ولا أمريكا ، بل أصبح مكروهـــا فى كثير من دول أوربا ، كما لم يرض فريقا من الرأى العام الأمريكى ، فالإبقاء على بعض النقط (نقط ولسن الشهيرة) أغضب الكثيرين ، وحذف البعض أثار غضـــب الفريق الآخر .

ولكن بالرغم من ذلك نجح ولسن فى إنشاء عصبة الامم ، وفى إقناع دول أوربا الكبرى بالاعتراف بمبدأ منرو ، وكان هذا المبدأ قبل ذلك الوقت مجرد تعبير عن سياسة أعلنتها الولايات المتحدة من جانبها وحدها . كان ولسن يرى أن العصبة ما هى إلا نظرية منرو مكبرة ، فهو يرى أن العصبة ستؤدى الى العالم كله خدمات كبيرة مثلما تؤدى نظرية منرو للولايات المتحدة [1] .

ورغم الآمال العريضة التى علقت على قيام العصبة فإنها بحكم تكوينها لم تكن قادرة على حفظ السلام . فالولايات المتحدة الأمريكية الداعية إلى إنشاء العصبة المتحمسة لها لم تشترك فى عضويتها ، وذلك لعدة أسبـاب ، أولها أن العصبة كانت تمثل مجموعة الدول المنتصرة ومن يدور فى فلكها ، كما أنها كانت أوربية الصبغة ، ولم تكن تمثل دول العالم تمثيلا حقيقيا .

---

١ - د. محمد محمود السروجى . سياسة الولايات المتحدة الخارجية ص ١٣٩ .

ثانيا : كانت المادة العاشرة من ميثاق العصبة التى تضمن سلامة أراضى أعضاء العصبة ، موضع اعتراض العناصر الألمانية والايرلندية ، فقد رفضوا الموافقة عليها لأنها تضمن تفوق انجلترا ، فالامبراطورية البريطانية لها خمسة أصوات ، وللولايات المتحدة صوت واحد ، وما كان هذا يرضى شيوخ الولايات المتحدة ، لأنه مها قيل عن استقلال كندا وجنوب أفريقية واستراليا ونيوزيلندا فهى جميعا أعضاء فى الامبراطورية البريطانية . وفوق ذلك يجب ألا ننسى ما منيت به آمال الأمريكيين من فشل وما أصابهم من ملل نتيجة مماطلة دول أوربا . هذا فضلا عن ميل الأمريكيين الى انتهاج سياسية العزلة من جديد ، والاهتمام بشئونهم الخاصة .

ثالثا : لم تمثل العصبة سوى أربع وأربعين دولة معظمها أوربية ، وظلت الروسيا بعيدة عنها رغم أنها ليست من الدول الأعداء . كذلك أبعدت المانيا وتركيا وحلفائها بحجة أنها لم تبلغ بعد مرتبة النضوج من الناحية الدولية .

رابعا : عرضت فرنسا اقتراح إنشاء قوة دولية ضاربة لضمان تنفيذ قرارات العصبة إذا لزم الأمر ، ولكن عندما طرح هذا الاقتراح على بساط البحث رفض بأغلبية كبيرة ، واكتفى أعضاء عصبة الأمم بالعقوبات الاقتصادية التى نصت عليها المادة ١٦ من ميثاق العصبة . أما العقوبات العسكرية فبقيت اختيارية . فافتقار العصبة إلى الأداة التنفيذية العسكرية كانت السبب فى فشلها ، وفى تشجيع بعض الدول على تحدى إرادتها ، ووقفت عاجزة عن رد عدوان المعتدين، وأصبح ضمان سلامة أراضى الدول الأعضاء فى العصبة مجرد حبر على ورق .

على أنه من الانصاف أن نقول بأن العصبة قد أدت اعمالا على المستوى الدولى

ماكان يمكن القيام بها خلال فترة الخمسة عشر عاما التى قضتها من حياتها بدونها .

نتائج الحرب

ما من شك فى أن الحرب العالمية الأولى قد غيرت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى أوربا بصفة خاصة وفى العالم بصفة عامة .

وسنتناول تلك التطورات بشئ من الايجاز اتماما لموضوع الحرب .

النتائج السياسية

تغيرت النظم السياسية فى الروسيا وألمانيا والمجر وتركيا نتيجة للحرب تغييرات جوهرية . ففى الروسيا قامت حرب أهلية عنيفة بين الحكومة البلشفية والثائرين ضدها من أنصار تروتسكى ، وواجهت تلك الحكومة عصيانا فى أربعة مراكز رئيسية فى منطقة الفولجا وفى سيبريا وفى روسيا الجنوبية وفى منطقة البلطى . واستمرت الحرب فترة غير قصيرة تغيرت فى خلالها الكثير من النظم .

وفى ألمانيا قامت ثورة الاشتراكيين فى برلين فى ٧ نوفمبر ١٩١٨ منادية بالنظام الجمهورى ، ونجحت فى تشكيل حكومة اشتراكية على رأسها ايبرت Ebert الذى ووجه بمعارضة شديدة من قبل العناصر البلشفية التى أطلق عليها اسم سبارتاكوس Spartakus . وبعد مقاومة عنيفة تمكنت الحكومة من إخمادها . ولكنها لم تكن الثورة الأولى أو الأخيرة فقامت ثورات متعددة فى أجزاء مختلفة من ألمانيا . كان أخطرها محاولة الحكومة البافارية الاشتراكية التى تشكلت بصفة مؤقتة فى اعلان الاستقلال عن ألمانيا . ولكن بفضل جيش الأحرار الذى جندته حكومة ايبرت تمكنت من السيطرة على الموقف والقضاء على كل تلك الحركات .

كذلك إذا نظرنا إلى المجر نجد اشتعال الثورة فيها فى أواخر عام ١٩١٨ ، تلك الثورة التى ارغمت الامبراطور على التنازل عن العرش والمناداة بالجمهورية . وتولت الحكم حكومة مؤقتة برئاسة ميشيل كارولى Michel Karolyi الذى حاول القيام بإصلاحات جذرية اجتماعية ، معتمدا فى ذلك على تأييد الاشتراكيين. ولكن نظراً لسوء الحالة الاقتصادية فى البلاد تمكن صحفى اسرائيلى يدعى بيلاكون Bela Kun بمساعدة الشيوعيين من اسقاط حكومة ميشيل كارولى فى مارس ١٩١٩ وإعلان قيام دكتاتورية الطبقة الكادحة . ولم تستطع حكومة بيلاكون الشيوعية الاستمرار نظراً لعدم اعتراف الحلفاء بها ، فسقطت . وقبض على زمام الأمور فى المجر الاميرال هورتى Horthy بعد عودة الوصى على العرش الارشيدوق جوزيف .

أما فى تركيا فكانت معاهدة سيفر شديدة الوطأة على الأتراك ، فاحتلال الإيطاليين لبعض أجزاء من الدولة ، وبقاء قوات انجليزية وفرنسية فى منطقة المضايق رغم قسوته كان أهون على نفوسهم من احتلال اليونانيين أزمير . فقام مصطفى كمال بثورته المشهورة لتحرير بلاده من الإحتلال الأجنبى ، فأقام حكومة فى انقرة فى ٢٤ ابريل ١٩٢٠ بعد الإنفصال عن حكومة القسطنطينية. ثم أخذ يعد العدة لمهاجمة اليونانيين ، ونجح فى إنزال الهزيمة بهم على ضفاف نهر سقارية (٢٣ أغسطس - ١٣ سبتمبر ١٩٢١) . ثم أجهز على قواتهم مرة ثانية فى ٢٦ أغسطس ١٩٢٢ ودخلت قواته ازمير .

وفى مؤتمر لوزان عام ١٩٢٣ اضطر الحلفاء إلى قبول الانتصارات التركية ، وسحب القوات الأجنبية من تركيا ، وإلغاء الإمتيازات الأجنبية .

أما عن الدولتين الديمقراطيتين انجلترا وفرنسا فقد خرجتا من الحرب

وهما محتفظتين بنظمهما الدستورية دون أن تتعرضا للهزات العنيفة التى واجهت الدول الأخرى التى أشرنا اليها .

ومن الناحية الفكرية المذهبية فقد أسفرت الحرب عن قيام النظام الشيوعى إلى جانب النظام الرأسمالى . وظهر التناقض واضحا بين النظامين بإنعقاد المؤتمر الذى دعا إليه البلاشفة فى عام ١٩١٨ للنظر فى إيجاد الدولية الشيوعية ، والمؤتمر الاشتراكى الدولى الذى انعقد فى برن فى فبراير ١٩١٩ من الاشتراكيين الانجليز والفرنسيين . فبينما كان ينادى البلاشفة بضرورة التخلى عن الديمقراطية والحرية الفردية لتدعيم سلطة الدولة ، ولا سيما فى فترة التحول ، كان الاشتراكيون الديمقراطيون يؤمنون بأن النظام الاشتراكى الحقيقى لا ينمو إلا فى ظل النظم الديمقراطية .

وكانت أهم ظاهرة لعالم ما بعد الحرب ، الاضطراب السياسى الذى أعقب التطبيق العملى لمعاهدات الصلح ، فظهرت قضية دانتزيج التى انتزعت من ألمانيا لتعطى إلى بولونيا لتجد منفذاً لها على بحر البلطيق ، وما يليها من الأراضى التى عرفت باسم الممر البولونى . ثم قضية روسيا البيضاء ، تلك الأراضى الواقعة بين بولونيا والروسيا ، وهى مناطق اختلاط من الجنسيين وقد ضمت بولونيا جزءاً منها فى حربها مع الروسيا فى عام ١٩٢٠ .

ثم قضية بسارابيا ، وهى تلك المنطقة الواقعة على طول البحر الأسود بين نهرى الدنيستر والبروت والتى يسكنها خليط من الروس والرومانيين والألمان . وكانت تابعة للروسيا قبل الحرب ، ولكن معاهدات الصلح ألحقتها برومانيا .

وكذلك قضية سيليزيا العليا التى قرر الحلفاء إجراء استفتاء فيها ، نظرا لأن ثلثى السكان يتكلمون اللغة البولونية والثلث الباقى يتكلم الألمانية . وأسفرت

نتيجة الاستفتاء عن ضم ألمانيا لثلث المنطقة والبولونيين الثلثين الآخرين .

كذلك ثارت قضية التيرول الجنوبي أو الاديج الأعلى في شمال ايطاليا ، وهى منطقة اختلاط بين العناصر الالمانية والايطالية ، وقد أعطت معاهدة فرساى وادى الاديج بما فيه الألمان لايطاليا .

من المشكلات التى ثارت أيضاً قضية فيومى Fiume والادرياتيك التى تنازعتها كل من ايطاليا ويوجوسلافيا ، ولم تضمها ايطاليا إليها إلا بعد جهد جهيد ومفاوضات طويلة مع الحكومة اليوجوسلافية .

كذلك حركت الحرب العالمية الأولى الحركة القومية فى الهند ، وكذلك فى الصين ، وفى تركيا كما أشرنا من قبل .

النتائج الاقتصادية

كان للدمار الشامل الذى منيت به دول أوربا خلال فترة الحرب (١٩١٤ - ١٩١٨) أثره فى اضمحلال أوربا اقتصاديا إلى حد كبير ، فتدمير معظم المصانع الاوربية قد أفقد أوربا قدرتها على الانتاج . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فتجنيد الأيدى العاملة فى الحرب قد أفقدها خيرة شبابها من العمال المهرة الذين يقدرون بنحو ثمانية ملايين ونصف .

زد على ذلك أن قيام أوربا من كبوتها كان يتطلب وقتا غير قصير كى تستعيد كامل نشاطها وانتاجها . كما أن تحول المصانع من الانتاج الحربى إلى الانتاج المدنى كان يستلزم بعض الوقت .

كذلك كانت مشروعات التنمية الاقتصادية ، وإعادة بناء اقتصاديات تلك البلاد يتطلب أموالا وفيرة ، ولم تكن بحكم استدانتها فى الحرب بقادرة على

انفاق المزيد من الأموال . هذا بالإضافة إلى أن انخفاض قيمة العملة ونقص الاحتياطي من الذهب قد أعجز تلك الدول عن شراء حاجياتها من المواد اللازمة لصناعتها من الخارج .

اضطربت الحياة الاقتصادية في معظم دول أوربا، ولكن بنسب متفاوتة بقدر ما أسهمت تلك الدول في الحرب ، وبقدر ما قدمت من تضحيات. ففرنسا فقدت ٢٠ ٪ من الأيدي العاملة فيها ، وكذلك قدرا كبيرا من ثروتها الحيوانية. والروسيا اجتاحتها الحروب الأهلية والثورات المختلفة التي شلت الحياة الاقتصادية فيها ، وأصابتها بخسائر فادحة في الأيدي العاملة.

أما بريطانيا فقد واجهتها مشاكل متعددة أولها استدانتها قدراً كبيراً من الديون من الولايات المتحدة ، وفقدانها عددا غير قليل من بواخرها التجارية . وأسواقها التجارية في الخارج . ولكن مما خف من حدة الأزمة الاقتصادية أن مصانعها لم تدمر .

أما ألمانيا الدولة المهزومة ، فقد خرجت من الحرب بأقل الأضرار الممكنة ، فبالرغم من فقدانها لأسطولها التجاري ولمستعمراتها فيما وراء البحار ، ومناطق صناعية هامة ، إلا أنها ظلت محتفظة بمصانعها ووسائل انتاجها . وساعدها على ذلك عدم تجريدها من قوتها الصناعية لحرص الحلفاء على استيفاء ديونهم منها .

وأكثر الدول استفادة من تلك الحرب هما الولايات المتحدة واليابان . فالولايات المتحدة كسبت كثيرا من تجارتها مع الدول المحايدة ، وعندما دخلت الحرب زادت من إنتاجها في جميع القطاعات ، سواء في ذلك الإنتاج الزراعي أو الصناعي . كذلك جنت بنوك أمريكا أرباحا طائلة من القروض التي

أعطيت لشركائها فى أوربا حتى بلغ مجموعها فى نهاية الحرب ١٠ مليارات دولار. كما أصبح لدى الأفراد الأمريكيين استثمارات خارج بلادهم تقدر بنحو ٨ مليارات دولار. هذا بالاضافة إلى امتلاك الولايات المتحدة لنصف رصيد الذهب العالمى.

وإذا انتقلنا إلى اليابان نجد أن فترة الحرب قد أفادتها فائدة كبرى، فانقطاع الواردات الأوربية إلى أسواق الشرق الأقصى جعل للبضائع اليابانية السيطرة التامة على تلك الأسواق دون منازع . فارتقى انتاجها الصناعى وزاد حجمه زيادة كبيرة . وأخذت اليابان تغزو أسواقا جديدة فى أمريكا اللاتينية بحيث أصبح الميزان التجارى فى صالحها إلى حد كبير ، وحقق فائضا هائلا . ولو أن هذا النشاط الاقتصادى كان محدودا لظروف الحرب العالمية إلا أن اليابان استطاعت استغلاله أحسن استغلال فى تثبيت أقدامها فى أسواق الشرق الأقصى .

النتائج الاجتماعية

كان لنجاح الثورة البلشفية فى الروسيا أثره الكبير على التطور الاجتماعى لطبقتى العمال والبورجوازية ، لا فى داخل الروسيا فحسب ، وإنما خارجها أيضا. وأظهر هذه التغيرات كان بين سكان الريف ، فالاصلاحات الزراعية التى قامت بها الروسيا قد انعكست بطريق غير مباشر على طبقة الفلاحين فى الدول المجاورة لها ، وذلك لخشيتهم من النظام الشيوعى . فالعمل على تحسين حال تلك الطبقة ، وتمليك المعدمين هو خير وسيلة لمكافحة الشيوعية . وكان هذا هو أسلوب العمل فى بولونيا ورومانيا ودول البلطيق ، فنمو الملكيات الزراعية الصغيرة على حساب الملكيات الكبيرة كان له أثره فى الاستقرار السياسى دون شك .

أما طبقة العمال ، فقد عانت فى أوائل الحرب من اشتداد موجة الغلاء وارتفاع مستوى الأسعار مع بقاء الأجور كما هى ، أو زيدت زيادة طفيفة

لا تتناسب مع الزيادة المطردة مع أثمان الحاجيات. ولكن نظرا لشدة الطلب على الطبقة العاملة للانتاج الحربى ، أن أخذت أجور العمال تزداد شيئا فشيئا ، بحيث يمكننا القول بأن حالتهم قد تحسنت عما كانت عليه قبل الحرب. أما الطبقة البورجوازية ذات الدخل المحدود مثل الموظفين وصغار الملاك فقد أضر بهم ارتفاع مستوى الحياة ضررا بليغا، فلم تعد الزيادة التى حصلوا عليها بقادرة على أن تواجه موجة الغلاء الفاحش التى اجتاحت أوربا خلال فترة الحرب .

من هذا العرض الموجز لنتائج تلك الحرب يمكننا القول بأن الحرب العالمية الأولى قد أحدثت تغييرات جوهرية فى ميادين كثيرة داخل أوربا وخارجها ما كان من الممكن حدوثها بتلك السرعة لولا قيامها .

مصادر ومراجع

المصادر العربية

١ - رفعت ، محمد : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية. القاهرة ١٩٥٩
٢ - رونوفين، بيير: تاريخ القرن العشرين. ترجمة د. نور الدين حاطوم. دمشق ١٩٦٠
٣ - السروجى ، محمد محمود (دكتور) : سياسة الولايات المتحدة الخارجية الاسكندرية ١٩٦٥
٤ - صفوت ، محمد مصطفى (دكتور) : الجمهورية الحديثة . الاسكندرية ١٩٥٨
٥ - فشر، هـ. ا. ل: تاريخ أوربا فى العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠) القاهرة ١٩٦٤
٦ - كلود ، ا. ل : النظام الدولى والسلام العالمى . ترجمة د . عبد الله العريان . القاهرة ١٩٦٤
٧ - بيوريج، ادوار هنرى: ودرو ويلسون وسياسة توازن القوى. القاهرة ١٩٦٤

المصادر الأجنبية

A.

Accounts & Papers 1890 - 1

Accounts & Papers 1892. 3, 4, 5, 6

Albin, P. : La Paix armée (1854 - 1894)

Allen, Bernard, M. : Gordon & Sudan. London, 1931

Arther, Sir G. : Life of Lord Kitchener, 3 vols. Londron 1920.

B.

Bérard, V. : La Politique de Sultan. Paris 1897.

Billot, Albert : La France et l'Italie 1881 - 1899. 2 vols. Paris 1905.

Biovès, Achille ; Français et Anglais en Egypt 1881 - 2 Paris 1910.

Blowitz : My Memoirs

Blue Books.

1883. Volumes XLVIII & XLIX (African Question)
LXXXII (Madagascar)
XXXII Egypt

1884. LVI Africa
LXXXVII Central Asia
LXXXVIII & LXXXIX Egypt

1884-5 LIV Pacific Ilands
LV & LVI Africa
LXXXVIII & LXXXIX Egypt

1886 XLVII Africa

Bodlsen, C.A. : Studies in Mid-Victorian Imperialism. N.Y. 1925.

Brandenburg, Erich : From Bismark to the World War. New York. 1927.

British Documents of the Origins of the War 1898-1914.

Brunswik, Benoît : Le Traité de Berlin annoté et Commenté, Paris. 1878.

Bülow, Prince Von : Memoirs. 4 vols.

Bryce, James : Impression of South Africa. London 1899

C.

Charles-Roux, J.: Allemagne, Angleterre en Egypte en 1877-78. l'Afrique française. vol XXXVIII. Supplement March 1928.

Charles-Roux, J.. l'Allemagne et les questions de l'Egydte de 1879-884. L'afrique française. vol. XXXVIII Supplement June 1928.

Charles-Roux, Fr. : Les Conventions militaires Italo-Allemandes sous la Triple Alliance (Rev. de Paris IV. Aug. 1, 1926),

Chirol, V : The Middle Eastern Question. London 1903.

Churchill, W: Lord Landolph Churchill. 2 vols. 1886,

Cocheris, J. : La Situation Internationale de l'Egypte et du Sudan. Paris 1903.

Coolidge, Arch.: The Origins of the Triple Alliance. New-York 1926.

Crewe, Marquess of : Lord Rosebery. New-York 1931.

Crispi : Memoirs

Cummings, A.N. : The Secret History of the Treaty of Berlin (Nineteenth Cent. LVIII. July 1905)

Cyon, Elie de : La Guerre russo-turque d'après des documents inédits. (Nouvelle Revue) IV June 15,1880.

D.

Daudet, Er. : Histoire diplomatique de l'alliance franco-russe 1873-1893. Paris 1877.

De Caix, Rol. : Fachoda . Paris 1899.

Die Grosse Politik der europaischen Kabinette 1871-1914.

Dilke, Sir Charles : The Present Position of European Politics. London 1887.

Ducray, Cam : P. Deroulède. Paris 1914.

Duke of Argyll ; The Eastern Question. 2 vols. London 1877.

E.

Earle, Ed. M. : Turkey, the Great Power & the Baghdad Railway. New-York 1924.

Edwards, Sutherland : Sir William White,

Elliot, Arthur D. : The Life of George Joachim Goschen. 2 vols. London. 1911.

Elliot. Sir H. : Some Relations & Other Diplomatic Experences. London 1922.

Engelhardt, Ed : La Turquie et le Tanzimate 2 vols. Paris 1884.

F.

Fay, Sidney : The Origins of the World War. 2 vols. New-York 1928.

Fillien, G. : Enre Slaves. Paris 1894.

Freycinet Charles de : Souvenirs 1878-93. Paris 1913.

G.

Gauld, W. : The Dreikaiserbund and the Eastern Question 1871-6 (English Historical Rev. April 1925).

Gauld, W. : The Dreikaiserbund and the Eastern Question 1877-78 (English Historical Review XLII, PP. 561-8, Oct. 1928.

The Anglo-Austrien Agreement of 1878 XLI. (1926)

Gardiner : The Life of Sir W. Harcourt. 2 vols. London (1923).

Garvir, J. L. : The Life of Joseph Chamberlain. 3 vols. London 1932-4.

Gavard, Charles : Un Diplômate à Londres 1871-77. Paris 1897.

Giffen, M. B : Fachoda. Chicago Accounts and Papers 1898, 99.

Gontaut - Biron : Ma Mission en Allemagne 1871 - 3 Paris. 1906.

Gooch, G. : Holstein (Studies in Modern History) London. 1910.

Gorianov, Serge : Le Bosphore et les Dardanelles. Paris 1910

Gorianov, Serge : The End of the Alliance of th Emperor (American Historical Rev. XXIII PP. 324-50 Jan. 1981)

H.

Hanotaux. G. : Fachoda Paris 1909.

Hansen, J. : l'Ambassade de Mohrenheizn 1884 - 1890. Paris 1907.

Hardy Gathorne : Lord Cranbrook. 2 vols. London 1918.

Harris, Norman : Intervention and Colonisation in Africa. Boston 1914.

Hauser, Henri : Histoire diplomatique de l'Europe 1871 - 1914 2 vols. Paris 1929.

Headlam Morely, J. : Studies in Diplomatic History. New-York 1930.

Hoffman, R.J.S. : Great Britain and the German Trade Rivalry 1875 - 1914

Hoskins, H. : British Routes to India. Philadelphia 1928.

Hull, W. : The Two Hegue Conferances and their Contr-

ibutions to International Law.

Hohenlohe : Memoirs.

J.

Johnson, H. : The Papacy and the Kingdom of Italy. London 1926.

L.

l'Alliance Franco-Russe 3ième Livre Jaune. Paris 1918.

Lee, Dwight. : The Proposed Mediterr. League of 1878. (Journal of Modern History III. March 1931).

Lee, Sir Sidney : King Edward VII. 2 vols. New - York 1925 - 7.

Le Rapport Secret sur le Congrès de Berlin adressé par Carathéodory Pacha edited by Bertrand Bareilles. Paris 1919

Loftus, Lord Augustus : Diplomatic Reminiscences 1862-79 2 vols. London 1874.

M.

Marvaud, Ungel : La Politique exterieure de l'Espagne. (Rev. de sciences politiques P.P. 41-74).

Medlicott W.N. : The Mediter Agreements of 1887. (Slavonic Rev. v. PP. 60 - 88 June 1926)

Medlicott W. N. : Austria Hung. and the War Danger of 1887 (Slavonic Rev. VI Dec. 1927).

Medlicott, W. N. : Diplomatic Relations after the Congress of Berlin. (Slavonic Rev. VIII. June 1929).

Meyendorff, Baron A. : Correspondance diplomatique de M. de Staal. 1884 - 1900. 2 vols Paris 1929.

Midhat Bey, Ali Haydar : Midhat Pacha, sa vie, son oeuvre. Paris 1908.

Moon, Parker : Imperialism and World Politics. New-York 1926.

Morse, Hosea B. : The International Relations of the Chinese Empire. 3 vols. New York 19 8.

Mousset, Al. : L'Espagne et la politique mondiale. Paris 1923.

Moüy, Ch. : Souvenirs et causeries d'un diplomatic. Paris 1909.

N.

Newton, Fitzmaurice, Buckle, Letters of Queen Victoria. Salisbury.

Newton, L. : Lord Lansdowne. London 1929.

P.

Pribram. A. F. : England and the International Policy of the European Great Powers. Oxford 1931.

R.

Renouvin, P. : Les Engagements de l'Alliance Franco-Russe. (Rev. de l'hist. de la guerre mondiale Oct. 1934).

Ronaldshay, Earl of : Life of Curzon. 3 vols. London 1925

Russko - Germanskie (Krasny Arkhiv).

S

Simpon J. V. : The Saburov Memoirs, or Bismarck and Russia Cambridge 1929.

Slieve, J. : Deutchland and Europa 1890-1915 Berlin 1926.

Sontag, R J. : European Diplomatic History 1871 - 1932 New York 1933.

Spender, J. A. : Fifty Years of Europe. London 1933.

Steiger, G. : China and the Occident. New York 1927.

T.

Taffs, W. : The War Scare of 1875 (Slavonic Review IX PP. 335-49 Déc. 1930)

The Milner Papers. South Africa 1897—99 Edited by Cicil Headlam. London 1931.

The Secret Memoir of Count T. Hayashi. Edited by A.M. Pooley. New York 1915.

Tirpitz, Alfred My Memoirs. 2 vols. New York. 1919.

Toutain, Ed. : Alexandre Ill et la Republique Française Paris 1929.

Townsend, Mary : The Rise and Fall of German's Colonial Empire 1884-1941. New York 1930.

U.

"Unprinted Docs. Russo—British Relations during the Eastern Crisis." Edited by R. W. Seton—Watson (Slavonic Review vols. Ill , IV 1 24—6).

Unprinted Docs. Russo — Turkish Relations during the Eastern Crisis. Edited by R. W. Seton — Watson (Slavonic Rev. III, IV, 1924-6).

Walter Eric, A. : A History of South Africa. New York

Wemyss, Mrs. Rosslyn : Memoirs and Letters of the Righ Hon. Sir Robert Morier 2 vols. 1911.

Wertheimer, Eduard : Graf Julius Andrassy. 3 vols. Stuttguart 1913.

White, Arth. S. : The Expansion of Egypt. London 1899.

William, Basil : Cecil Rhodes. London 1921.

Wilson, A. T. : The Persian Gulf. Oxford 1928.

Wilson, H. W. : The War Guilt 1928.

Wolff, Sir H. D. : Rambling Recollections. 2 vols. London 1908.

Z.

Zevaes, Alex. : Au Temps du Boulangisme. Paris 1930.